علي مصطفى المصراتي

صندوق التفاح

قصص قصيرة

محمد يوسف الدويشي

علي مصطفى المصراتي

صندوق التفاح

قصص قصيرة

رسم الغلاف /

للأستاذ الفنان علي العباني

رسوم داخلية وإخراج /

للفنان الهادي عبدالسلام رويبح

رقم الإيداع :

5448 / 2003 / دار الكتب الوطنية - بنغازي

الطبعة الأولى

سنة 2004

طبع بمطابع الثورة العربية / طرابلس

حقوق الطبع محفوظة

الإهداء

إلى ذكرى عزيزي الدكتور "رشدي فكار".. زميل الفترة الدراسية بالقاهرة.

علي مصطفى المصراتي

طرابلس/ 18 أغسطس 2003

فهرست

- الإهداء 3
- شفاها الله 7
- ودفع الغرامة من جيبه 33
- صندوق التفاح 63
- قداش هالمعلاق 113
- عشوة ليلة وحوار أفلاطوني 155
- محرر الصفحة 187
- تجربة الشيخ مرسي 217
- شعرة 259
- ورفعت الجلسة 271
- شتمني في المنام 281
- الخزنة والمفتاح 309
- ثور وثيران 325

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

شفاها الله ...

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

- ذهب إليه يطلب منه استدانة مبلغ زهيد للضرورة الطارئة.. خمس جنيهات من أجل شراء دواء من الصيدلية لابنته المريضة والتي جعلت أباها وأمها لا ينامان غمضة طوال الليل لتواصل كحتها وسعالها.. وتواصل شكواها وأنينها وارتفاع حرارتها في هذا البرد .

وكم كانت صدمة غير متوقعة أن فوجئ به يبسط يديه.. ويقول عبارته الملاكة المألوفة المعتادة:

- إن شاء الله يقعدوا بعدي..
- ما عنديش حتى مليم أحمرّ..

والله ما نصّر على بارة. وطبعاً أين يكون المليم الأحمر وقد انقضى عصره فضلا عن البارة التي انقرضت فهي من عملة العهد العثماني..

ثم قال في مكر وخبث مبيناً عدم وجود مال لديه وأنه لن يسعفه.

- إيه.. عمرك أطول من عمري.. أنا كنت سـأطلب منـك سلفة سبقتني

والله.. وراسك وراسي يفداك ما عندي..

وبهت الذي سأل:

- هل معقول .لا يملك خمس جنيهات؟!

وهو صاحب الثروة.. والعمارات الشاهقة ويكنـز الـذهب والفضة والعملات الصعبة يسمسر ويتاجر في كل شيء حتـى الممنوعات والمهربات والمحرمات على ما يقول بعضهم. وقف عبد المتوكل على الله مذهولاً.. حائرًا ما كان يظن أن كـزازة هذا النهم الحلوف وبؤس نفسه يصلان إلى هذا الحد..

خمس جنيهات ثمن دواء عاجل لابنته الصـغيرة المريضـة يرفض هذا أن يمده بهذا المبلغ!

وطوال الليل يتواصل كح المسكينة حتـى يخيـل إليـه أن شرايينها ستتمزق..

ولكنه كأب حاول أن يتحمل الصدمة ويفتتح كوّة أمل بسؤاله لعله يجد مخرجاً أو يساعده على حل..

- توا يا سيدي تعجز عن هذا المبلغ البسيط..؟!

- ماهو الفلوس في المصرف.. والمصرف مسكر.

ونصحه قائلا، كأنما جاء ليبحث عن نصحه:

- دبر حالك وشوف أصحابك الآخرين شـــوف البقـــال وإلا صاحب القهوة اللي تقعد عندها هادوم فلوسهم في الدرج وفـــي جيوبهم رقاق إيه.. يعرفوك يسلفوك.

ومرة ثانية تحمل تقاريع الصدمة وحاول معه مرة، ومرة..

- الحاج مفتاح سافر والحاج سالم مشي للسانية وهي بعيـــدة وأنا أريد الدواء توا البنت مريضة.. وقال هذا الحلوف النهم:

- ربي يشفيها.. عزم عليها..

- يا راجل أقول لك البنت تكح.. برد.. شهيقة.. تقول لـــي أمْشِ عزم عليها..

أولا أنا مش مرابط..

ثانيا أش دخل التعزيم في الدواء..

وربي خلق الداء والدواء..

ورد النهم الحلوف ببرود:

- ربي يشفيها.. لا تخاف عليها، الصغار ديمه يمرضوا أنـــا لما كنت صغير ديمه نكح ونعيط.. وكنت أصفر ورقيق.. وياما تعبت أهلي.. الصغير ديمه يمرض ما تخافش عليها.. توا تبـــرا وتصح.. توا يتغير الجو.. موجة البرد قريب تمشي.. توا بنتك تدفى لما تخش السخانة في الصيف..

- الحلوف النهم خنافر الشر كان أمامه فنجان قهوة ولم يقل للعبد لله المتوكل على الله.. تفضل اجلس ولم يدعه حتى لشربة ماء..

- معرفة سنوات طويلة..

ولن ينسى أنه ذات مرة استخدمه مجانا حتى تكاد أنفاسه تتقطع وروحه تطلع.. كانت هناك بضائع يريد الحلوف النهم إنزالها في المخزن.. أتى بها من الميناء على عربة.. واستلف منه صاحب البضاعة الحلوف أجرة العربة وإلى الآن لم يردها له.. ومع ذلك أبى أن يذكره به.. حكاية لها سنوات..

ومرة هذا الحلوف النهم طلب منه مساعدة أن يبادر بإنزال جوالق.. وصناديق.. وشوالات رزينة.. بضاعة من العربة إلى مخزن توفيرا لأجرة عمّال حمّالة ينزلونها..

وتعب عبد المتوكل في إنزال البضاعة وتصبب عرقه.. وتلخلخ كتفه.. وانهدت أنفاسه في سبيل مساعدة هذا الحلوف النهم وإن كان آنذاك سقاه كأس شاي وقدم له سيجارة عافتها نفسه.. كأس شاي وسيجارة..

وتبين وتذكر أن حتى كأس الشاي كان قد صنعه جاره ولم يكن الحلوف دفع في الشاي شيئا.. أما السيجارة فهي من علبة كان قد نسيها في محله صاحب العربة التي جاءت بالبضاعة من

الميناء.. وتكرم بها الحلوف النهم على الناس، من أى طينة خلق هذا الكز القمئ؟..

مقدس للمال عابد للذهب والفضة والعملات الصعبة خمس جنيهات ينقذ بها طفلة.. روح انسانة لم يلن قلبه.. لم تتحرك مشاعره.. ما أقساه..

ترى لو كانت عنده في بيته طفلة أو طفل مريض أيكون شعوره بليدا أو جامداً هكذا..

أليس فيه عرق أبوة.. ونبض حنان.. ووتر وجدان.. ثم قال له هذا الحلوف النهم المتبرع بالنصائح المجانية:

- يا سيدي ما دمت تحتاج إلى الدواء فلماذا لا تذهب إلى الصيدلية العامة.. صيدلية الحكومة عندها دواء مجاني، أنا نفسي أخذت منه..

نقولك.. عندي عقاب زجاجة خديتها عمنول من الصيدلية المجانية.. مر عليّ غدوة.. نعطيك منها.

- يا سيدي أولا.. مرضك غير مرض البنت الطفلة.

ثانيا الدواء الذي تجرعت غير ملائم لها..

ثالثا.. هذا الدواء من نوع شروبّوا.. انتهى مفعوله وتاريخه.. ثم يا سيدي أنا مستعجل والبنت شايطة فيها النار والصيدلية المجانية بعيدة في آخر منطقة "قشلوم" ولم يفكروا أو يعملوا صيدلية مجانية في وسط المدينة..

- إيه انتظر..

وضحك وهو يقول..

- راجينا يا علي بعشاك لين نجيبوا الزيت من غريان..

- سيدي الدواء من نوع لا يوجد إلا في صيدلية الأمل وهو دواء معروف للالتهاب..

- اسمع عندي نصيحة بدل ما تتسلف من الناس كمكم البنت وسكر الروشن ودفيها وباعدها عن الهواء.. وان شاء الله تشفى.. الشافي الله..

ما تخاف أنا زمان وأنا صغير جاءتني حمى رعيدة على شوي ما خذت روحي.. ولكن شفاني الله.. توكل على الله..

وهل هو في حاجة إلى دعائه أو غوالى نصائحه وحكاية الإشارة إلى مرضه وهو يتذكر قول والده:

- حاجتك إلى اللئيم البخيل ذل مزدوج.. ووجد نفسه للضرورة أو تلقائيا يقول له:

- يا حاج.. إن كنت تريد رهان هذه ساعتي وحتى برنوسي.. برنوس العرس خذه وما عاد فيه وقت، الصيدلية ستقفل والدواء لا يوجد إلا عندها..

- إن شاء الله يقعدوا بعدي.. ما عندي لا أحمر ولا أصفر أقول لك ما عندي فلوس تقول لي نرهن برنوسي والا ساعتي..

لو عندى نخدمك.. نساعدك من غيـر رهـن أو إن كنـت محتاجا إلى الرهن امش لليهودي خلافو وإلا حواتو ارهن عنده حاجتك يعطيك بدل العشرة عشرين.. امش لليهودى قبـل مـا يسكر دكانه وغدوه راهوا سبت ما تلقاشي في السوق..

هو يعرف، وكما حدثه وأكد له احد أصـحابه فـي سـهرة وسكرة بأوروبا يصرف مئات وهذا كز ممسك وضحك.. وهـو يستمع لنصائحه ويستعرضها ساخرا من هـذا الحلـوف الـنهم عندما قال:

- اسمع بدل الدواء من الصيدلية ربما يكون مغشوشـا وإلا يكلف.. أو يكون دواء طاحت مدته وتبخر مفعوله الاحسن امش للحوش وخلي المرا تشوي نصف كيلو كبدة ودجاجة مشوية والا مرقة دجاج والبنت تصح تقطع دابر البرد والكحة.. شفاها الله..

- حير التنبال يطلع مهندس.. إيه قوله ثور يقولك احلبـه.. يطلب منه سلفة خمس جنيهات يقوله كبـدة مشـوية ودجاجـة مشوية وهبرة.. صحيح كلام الأولين حكمة وتجارب، المدس ما يدريش على الحفيان.. وكما كانت تقول أمي:

- ما يحس النار إلا اللي عافس فيها..

- ومرت الأيام وتوالت..

ذات يوم صدر قرار فجائي من الحكومة..

تغيير العملة المتداولة.. وكل من لم يأت بأوراق العملة قبل 48 ساعة تكون ملغاة باطلة لا تساوي حتى وزنها ورقا.. وكل إنسان بادر بالذهاب إلى اقرب مصرف يعطي ما عنده من السوائل المالية والأوراق النقدية مخافة ضياع الفرصة.. وانتهاء الوقت المحدد..

طوابير ازدحمت أمام أبواب المصارف التي ظلت تعمل وتستغل الجمهور ليل نهار.. قبل حلول الموعد.

وخرجت رزم كانت مكدسة وحدثت طرائف وتكشفت أشياء ما خطرت على البال.. عجائز كانت تمد يدها على الأرصفة أو شحاذون كانوا يطوفون على المنازل والمقاهي والأسواق لديهم عشرات الآلاف من العملة وقفوا في الطابور من انبلاج الفجر ليبدلوها.. ليضعوها في المصرف.. وذلك الشيخ زري الثياب.. والذي جاء يحمل زكيبة عملات.. يرتعش.. يزاحم.. مخافة ضياع الفرصة هذا الذي كان ينتظر موسم عاشوراء ليمد يده للصدقة والزكاة.. أو يتلهف على زكاة الفطر..

وهذا الأحدب مرتعش اليد رأسه كبندول لا يهدأ.. يقرأ في المآتم يلتصق بالجبابين.. يرتزق من مناسبات الموتى.. ومناسبات الأحزان.. يكركر قفة بها عشرات الآلاف من العملات كان يجمعها يكدسها.. تحويشة عمر لا يستمتع بها..

وهناك من فوارق ما وقع كرام من القوم من خيـــرة النـــاس تكشف الحال أنهم لا يملكون ألف جنيه ليقفوا في طابور العملة وتسجيل ما لديهم.. أهل عفاف وكفاف من أهل الستر.. يصدق عليهم "تحسبهم أغنياء من التعفف".. أصـــحاب ملابـــس رثـــة ونفوس كزة.. أشحاء ظهرت لديهم حمولات من العملات تبلـــغ الملايين.. وكان يردد ذلك العفيف النظيف "العريان في القافلـــة مطمان".

يبدلوا.. أو لا يبدلوا.. اللهم نسألك العافية والشرف والســـتر للإنسان جوف واحد.. ومخرج واحد.. وينـــام تكفيـــه وســـادة وسرير وغطاء.. لماذا الهلع يا أهل الشره والبلع..؟!

كانت المدة المحددة 48 ساعة.. يومان ظهرت فيهما ألـــوان من العجائب والاستغباط..

هناك من ضاق عليه الوقت.. وأزفت الساعة المحددة فبـــادر بتوزيع أكياس من العملة على الناس لتسجيلها في المصرف إما مقابل عمولة أو مشاركة بسند يكتب أو صـــنع معـــروف.. أو بشكل من أشكال التفاهم المهم وضعها في المصـــرف قبـــل أن تصبح ورقا لا معنى لها.. لا يسقي شربة ماء..

المهم أن تنام العملة الليلة فـــي المصـــرف وتضـــاف إلـــى الرصيد.. لن تكون لها فائدة تحت السدة أو تحت البلاط..

رزق الدنيا حار..

تلهفوا.. ارتبكوا.. تسارعوا.. بعضهم أخرج عملة كأنما هو كان من أهل الكهف قد يبحث عنها هواة العملة القديمة أو أهل المتاحف أو أصحاب الدراسات "النمينمات" كيف كانت طيلة هذه الآماد مدسوسة مخبأه!..

وتبين أن التكديس والتخبئة مرض من الأمراض مستفحل أو موروث عند بعض العائلات والنفوس الهلعة الخرعة..

- دق الباب دقا متواصلا.. في الدق المتواصل دلالة على العجلة أو اللّهفة والتوجس..

وقام متثاقلاً نحو الباب.. وقال عبد الله عبد المتوكل:

- سبحان الله من الطارق بابه في منتصف الليل..

قالوا له:

- أبوك مات.

وطرق الباب بعد فترة ليلا.. قالوا له:

- أمك ماتت.

ومرة ثالثة طرق الباب في الهزيع الأخير من الليل تبيَّن أنها الشرطة والمباحث للقبض عليه ليلاً وزجّه إلى "سيدي عيسى" ثم ترحيله إلى سجن "بورتابينيتو" بحجة المساهمة في المظاهرة ضد الإدارة البريطانية.. ومكث مدة في السجن ومرة أخرى بعد سنوات طرق الباب في منتصف الليل قالوا له أنت ضيف..

- ضيف من!!

- الحكومة..

- لماذا..

- أنت ضد المعاهدة الأجنبية.. ومتهم بتوزيع منشور وطني..

بعد هذه الطرقة الليلية مكث مع شباب من الزملاء فترة في السجن.. لم يكن لصاً.. ولا مجرماً.. ولا مهرباً.. ولا متشاجراً.. ولا مقطراً للخمور.. ولا بالعاً للحبوب.. ولا مزيفاً للنقود ولا وزيراً سابقاً.. إنما كان من شباب ينادون آنذاك بالحرية والوحدة وكانت موجة عاتية من الطرق ليلاً لفحته بنارها..

وحمد الله على سلامة رأسه.. والخروج بحواسه وحسه..

الطرق على الباب يتواصل..

أترى دعوة للاستضافة الرسمية؟! أم موت أحد من أقاربه أو أهل بيته..؟

اللهم اجعله خيراً هذا الطرق المتواصل المزعج.. ولماذا لا يستعمل الجرس الكهربائي عند الباب بدل الخبط باليد أو بالرجل بصورة مزعجة..

تعوذ بالله عبد الله عبد المتوكل..

قالت له زوجته.. متوجسة:

- لا ترد.. لا تفتح الباب.. دعه يطرق ثم يذهب ينتلف..

- لكن الدق أو الخبط العنيف تواصل حتى كاد الباب الخشبي تتطقطق عروقه.. وينخلع احتجاجاً على هــذه اليــد الهمجيــة، طرقات فوضوية أشبه بطرقات المفزوع المرتعب.. أو المطارد الذي يريد التجاء ونجدة أو خبطة المعول الذي فقد التوازن

والانضباط أو دق البوليس.. وقبل أن تصبح الكلمة شــرطة "تغيير المصطلحات والكلمات" على باب مطلوب من الســلطات وتواصل الدق على نداء بصوت مسموع حتى من وراء جدر..

- يا أستاذ.. يا أستاذ.. يا عبد المتوكل يا عرب الحوش أنتم نايمين والا ميتين؟!.. يا هو..!

الصوت ليس غريباً.. إنما الغريب أن يأتي صاحب الصوت في هذا الوقت ولعلها المرة الأولى التي يأتي فيها الى هذا البيت.

- يا أستاذ افتح.. يا سيدي بان عليك الأمان..

وفتح عبد الله عبد المتوكل وصاح الطارق وهو يحمل شكارة ويصيح:

- جاك الخير..

- لم تكن بينهما علاقة منزلية ولا صــداقة تــزاور لا فــي مناسبة فرح ولا مناسبة ترح وحــزن.. تــزوج ولــم يبــارك زواجه.. ولد له ولم يهنئه..

في امتحان الجامعة شاهده في الشارع ولم يقل لــه مبــروك عقبال الدكتوراه.. وان كانت الدكتوراه ما عادت تستحق التهنئة

لكثرة حامليها.. ولكثرة ادعاء حامليها إلا ما ندر من أهل الفضل والعلم والأكاديمية، لكن هذا ما له وما للعلم، الحاج النهم المهلوع على المال..

عاد من سفر.. خرج من سجن.. فلت من اعتقال لم يهنئه.. وهنّأته بائعة الزهر وماء الورد تلك السيدة الفاضلة التي تطوف على بعض البيوت لبيع ما تقطره من زهر وماء ورد.. ولما شاهدته زغردت وكادت ترقص حتى مالت زجاجات العطر والورد وكادت تسقط - أي الزجاجات - على عتبة البيت..

هذه المرأة الفقيرة الوطنية الواعية أرق شعوراً وإحساساً من هذا الجلف الذي لو فلقت دماغه ربما وجدت فيه صورة نوع من العملات لحلمه بها ليل نهار..

المهم.. ماذا يريد بهذا الشوال الذي يحمله..

- خير إن شاء الله..

- خير وأنت فيه..

أريدك في شيء عاجل وضروري.

- تفضل..

- خدمة بسيطة..

- أهلاً وسهلاً.. هل أنا في مقدوري أن أؤدي لك خدمة..؟

- بسيطة.. وأنت رجل شهم وفزاع وصاحب صاحبك..

وأشار بأصبعه

- هذه القفة لك..

قفة شنو؟! موسم كرموس "تين" في الحوازة عندك؟

- لا.. ما هو كرموس.. ولا مشماش.. هذا شيء ساقه الله ليك.

- إيش فيه..؟

- أنت ابن أصول.. ونحن أصدقاء.. إيه من زمان.. وأعرف وأنا متأكد يا سي عبد الله عبد المتوكل أنك من أصحاب الذمة والأمانة والعفة والنظافة وأنت رجل تصلي وتخشى الله وتصوم رمضان وتطلق على الناس السلام..

وبهت الأستاذ عبد الله عبد المتوكل من هذه المدائح والأوصاف والنعوت كإنسان يداخله شيء من النفخة والغرور.. ولكنه تمالك نفسه وتعقل..

- ولماذا هذه المقدمات.. أستغفر الله ولا يصح أن يمدح الإنسان في وجهه.. وفي بيته ما هي المناسبة يا حاج وآش حكاية هالققة وأخشى أن يكون فيها شيء من الممنوعات..

فكثير من التجار ولا أقول الكل- وخاصة أصحاب الثراء المفاجئ لهم أساليب في التعارف والتقريب.

- آش فيه - بضاعة مهربة!!.. اعمل معروف أنا بعيد عن هذه الأشياء..

- لأن هناك ولعلك تعرف أنواعاً من البضائع تبحث عنها مؤسسة الاقتصاد والرقابة على السلع.

وتغاضى عن هذه الإشارة وقال:

- يا أستاذ عبد الله عبد المتوكل نحن أصحاب.. بل أقارب كيف حال خالتك مريومة..

- مريومة من..؟

- بنت عمك الحاج المعلول هي قريبة بنت عم جدي من العجوز.

- الله يرحمها مريومة.

- ماتت سامحنى لم أسمع.. لم أعزك.. البقاء لله.. صحيح دنيا فانية.

- امتى ماتت.

- عشرين عام..

- لم اسمع.. لم تقل لي.. الله يرحمها..

- وكيف حال أمك.. العجوز

- ماتت قبل مريومة

- ولم تقل لي.. الله يرحمها.. كانت تعزني وتضحك معي وترقصني.. ولما كنت صغير نسرق منها حاجة تسميني الشويطين..

لا.. ما هي بضاعة.. إنما هذه القفة لك.. وتخدمني ولا بأس حاجة بسيطة تساعدني.. أمانة عندك ثم قال من بين كلامه المتداخل المضطرب:

- يا سي الأستاذ عبد الله المتوكل بالله كيف حال البنت؟

- أي بنت؟!

- التي كانت مريضة بتكح.. وعندها قلت سخانة.. ولا برودة.. نسيت!!

كيف حالها.. ربما تريد مساعدة.. آهو جاك الخير.. يا وجه الخير.. يا ولد الخير..

وسكت عبد الله عبد المتوكل وهو ينظر إلى الرجل يستمع إليه وهو تائه.. ترى هل هو سكران.. أم تناول حبوباً.. أو أصيب بلوثة أم ماذا وراء هذا الكلام.. وفوجئ به يقول وهو يزيح الغطاء عن القفة:

- هذا نصف مليون جنيه بالتمام والكمال ستفة على ستفة معدودات أكثر من مرة حتى الأرقام متسلسلة.. جديدة نظيفة ورقها يطقطق.. الورقة جنيه حاد لالوية.. لا تنبيه من المصرف ما تتناولها يد إلا يدي..

تذبح الطير مثل الموس..

من المصرف لتحت السدة..

وضحك أو تضاحك وهو يقول:

- يا ما زَيطت عليها خالتك سدينة

- سدينة من!

امرأتي.. وكنت داسها تحت السدة ومغطيها ببضاعة وتحاسبها بضاعة..

وقهقه التافه المرتبك وهو يقول:

- نصف مليون يا أستاذ عبد الله عبد المتوكل لك أمانة.

- آش نعمل بيها؟

- في الصبح تحطه في المصرف باسمك في حسابك.. وإن كانت تأخذ عشرة في الميه.. عشرين في المية حتى خمسين في المية.. يفضلك ربع مليون بعد تردلي باسمي.. ربع مليون لك وربع مليون ليه.. الوقت زر ولم يعد فيه متسع ولو ما نضعه في المصرف في الغد.. فسيصبح لاشيء.. نبله ونشرب ميته

حتى وزنهم ما يولوش شيء.. يا صاحبي خـذ منـي النـاس لبعضها.. والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه..

وسكت عبد الله عبد المتوكل ليرى أين يرسو كلامه ومتـى يكف عن الثرثرة ولكنه قال:

- بالله.. كيف حال البنية؟

ربما تريد علاجاً.. ولاّ تمشي بها للخـارج عنـدنا طبيـب نعرفوه في سويسرا يعالجها.. ربما تحتاج لعملية.. اصرف من ربع المليون متاعك لما نضعه في المصرف والربع لي حولـه باسمي فيما بعد.

- ولماذا لا تضع عملتك أنت باسمك وفي حسابك ورصيدك بالمصرف..

- إيه أنت رجل طيب.. تحسابه مليون ولاّ عشرة حاجة مـا تقدر تحسبها.. وزعت على الأقارب أمس ووضعت باسـمي.. والوقت حان.. الصبح حضرتك تمشي للمصرف وتضع المليون باسمك كما وضحت..

- لكن أنا عمري ما أعرف هالمبلغ..

هل هو عرق جبيني.. خدمتي.. ميراث آش نعمل بهالمبلغ؟!

- لعازة الزمان يا هفك.. الزمن غدار.. لا أمان له آهو أنت محظوظ طاحت عليك قفة من السماء لكن لاباس ورقة تمضـي عليها أنها أمانة عندك.. ربع أنت وربع أنا..

- البنية المريضة كيف حالها.. ومزاجها إن شاء الله خفت الكحة.. وهبطت الحرارة إيه عاد موسم المرض.

- نسيت انجيب لها زربوط.. لبوس..

- وها هو اليوم أنا مشغول من الصبح وأنا أحّول العملة إلى المصرف.. والوقت يجري.. الله يلعن أبو الفلوس تضيع العقل وتذهب الشيرة.. كيف حال البنية.. إن شاء الله لا بأس.. لا سو ولا سوية.. حتى أنا أمس قعدت انكح خفت روحى تطلع من غبرة الفلوس كحيت كح شين والمرا كحت طلعت منها ريح عافنة وشهقت شهقة.. نحسابها بتودع وربي بياخذ وديعته لكن ربي ستر لو طلعت روحها في ذلك الوقت كنا نتعطل عن تسليم الفلوس في المصرف.. والوقت ضيق والحالة مربكة..

والوزير الهرواك الشموتي طلع قرار - الله يطلع عيونه - المدة نهار ونصف للمصرف لو خلى المدة أسبوعين.. ثلاثة.. شهر.. قول يا سيدي حتى أسبوع لكن ولد.. يريد يفضح أولاد الثروة..

هي الفلوس تسوس لو كانت تحت السدة ولاّ البلاط لكن ولاد.. غلبونا بتبديلة العملة وإلغاء المتداول

- يا صاحبي أمور الفلوس لا أعرفها

- إيه.. ما هو أنت من أصحاب الكلام والبقّي واستشهد صاحب القفة ببيت من الشعر متداول على أفواه التجار والسماسرة..

إن الدراهم في الأماكن كلها

تكسو الرجال مهابة وجمالا..

كان قد حفظ هذا الشعر من أيام الدراسة الأولية من مدرس كان مدقعا نتف الزمن ريشه حتى سرواله كان مرقعاً وحذاؤه كان مفتقاً مثقوباً من تحت مرقعاً من فوق وخيط الحذاء طائر استبدله بخيط دبارة.. سباولو..

- لازم راسه منقوب..

- كيف عرفت راسه منقوب؟!

- ما عنده فلوس.. ولا عرف طريق المصارف..

- وتتطاير فرص الثروة عن يمينه وشماله والذي ما عنده فلوس نقولو عليه متعوس.. ونقولو في وصفه.. راسه منقوب.. توا أنت - إن شاء الله - لما تحط وتضع نصف مليون في المصرف راسك ما عاد يولّي منقوب.. أو تصبح وتمسى تفكر في عشاك وغداك..

- قوللي كيف حال البنية إن شاء الله الكحة خفت عليها.. اعمل معروف خذ القفة وخليني امشي لأني مستعجل.. وعمك خليفة ولد خليّف بنعطيه نصف مليون يسجله في المصرف..

- تُرى هل هو ديّن مثلك ويخشى الله.. ولا ينصب عليّ..

ثم فاجأه باقتراح..

- الانسان يا سي عبد الله عبد المتوكل بين حياة وموت لا بأس تعطيني امضاك حتى الشرع ينص ويفضل المكاتبة بالسند البيّن وصاحب الأمانات.. تقدم وصل عند الأمانات والرهونات..

بالك ربي يأخذ أمانته وتطلع روحى والاّ تطلع روحك.. لا بأس وصل وامضاء.. ربي يستر..

وهمهم عبدالله المتوكل وهو ينظر إلى القفة المكدسة والمرصوصة بها أوراق العملة.. التي تسقط - بعد يوم أو نصف إذا لم توضع في المصرف..

وهو في دخيلة نفسه شك في أمثال هذا الحلوف المرتعب المرتبك.. وقال صاحب القفة..

- يا سي عبد الله المتوكل.. المبلغ إن كان ما تقدر تحمله أو تتحمله بروحك أطلب من المرا تساعدك الحرمة المحترمة تأخذ النصف وتسجله في المصرف باسماها وبعدين تتفاهمو هي بسلامتها أم البنية تعرف تمضي والاّ عندها ختم.. وتبصم مثل المرا اللي عندي؟

وأجابه عبد الله المتوكل:

- تو المرا عندي مسكينة لم تصر في حياتها على خمسين جنيه تأخذ ربع مليون.. منين جابتهم؟.. من أين لها هذا..؟

- تقول ورث من جدتها.. باعت سانية.. باعت أرض.. ورثت كرمة.. كسبت في اليانصيب.. من مال جدها لقتها في الوصية جاءتها هدية من أقاربها..

ثم علاش متوسوس خايف.. قريب تركبك الرعيدة هم لا يسألون من أين جاءت الفلوس..

كل فول لاهي بنواره..

لكن الجيران لو سألوا.. تقول من توفيرها أو علاوة عمل.. أوفرتايم

- علاوة عمل!.. امراتى عندها علاوة عمل ربع مليون.. وهى مسكينة.. مرات تغزل فى الجداد وتقردش في الصوف..

ورفع عبد الله عبد المتوكل صوته في نبرات واضحة:

- ياسى التراس.. أما أنا فلا أدخل في هذه الأمور ولا أعرف هذا التلاعب والتحايل

- قوللى كيف حال البنية إن شاء الله الكحة خفت عليها لابأس ربع مليون آخر نحطه باسمها وقبل ما تكبر نسجوها من حسابها.. وتأخذ 10 في الميه لا باس مكسب 10% باعتبارها بنية..

هاك القفة.. تعدّ معاى والاّ هي معدودة ونكت ما فى القفـــة أمامه لكى يغريه بها

- تعرف السلطان عبد الحميد - الله يرحمه - والله عمره ما ملك هذا المبلغ وافتروا عليه شوّه تاريخه اليهـــود بعــض مـــن النصارى العرب.. مسكين لم يملك قفة مثل هذه..

الناس كفرت بالنعمة.. أو بعضهم لم يستمتع بالنعمة بحجـــج حب الفلوس التهافت على الفلوس مرض وضحك صاحب القفة وقال:

- عقول مرضى.. إيه أليس هذا أحسن مـــن حـــب الفقـــر والضياع والعازة.. يا منتف.. يا مريّش؟

- توا أنت جئت تشتمنى.. تعايرني في بيتي!

- لا.. لا تأخذ على خاطرك إنما جئت لأنقذك.

- أنقذ روحك.

- ما عاد هناك وقت يا أستاذ عبد الله المتوكل الصبح قبـــل الأذان سأقف في الطابور، هناك من بات على الرصيف أمـــام المصرف متوسد إما يريد تقديمه للمصرف وعندي مليون آخر غير ما وضعته فى المصرف.

وتهدج صوت عبد الله المتوكل وهو يقول:

اسمع.. من فضلك.. ارفع رأسك.. واحفظ ناموسك.. وخلينا أصحاب أحسن امشي مع السلامة..

- كيف حال البنية!!

شفاها الله.. مع السلامة خذ قفتك ودب.

- أما أنا اللي مريض..

- شفاك الله..

خرج بقفته بعد أن احكم إغلاقها وهو يفكر والوقت ليس في صالحه.

خرج للسوق ودفع بمبالغ كبيرة لبعض الخدم ومن يجده في طريقه ليسجل مبلغاً باسمه في المصرف مناصفة.. أو مرابعة.. أو مجازفة ربما يتملص وينكره، وأخيراً شوهد الرجل المتأزم المرتبك عندما حان موعد إغلاق باب المصرف.. يحمل شكائر ملأى بالعملة التي تلغى بعد دقائق.. يوزعها على المقابر ويقول فى صوت جنوني هائج:

- خوذو سجلوها - خذوها.. أنتم أولى ونثرها على القبور.. وفى طريق الجبانة واحتضن رزمة منها وهو يجهش بالبكاء والصراخ وأصابته لوثة وهو يركل الرزم المليئة وسقط هناك مغشيا عليه.

* * *

محسن يوسف الموشي

ودفع الغرامة من جيبه ...

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

- مثل أمام حضرة المحقق المدقق أكثر من مرة بتهمة العربدة والشرب، وشمه الجلواز المسؤول عن تدعدع الشاريين وتسكع المدمنين وكاد المساق أن يدوخ لا من الشرب بل من صنان اباط الجلواز الشام له، عندما قرب خياشيمه منه، وقال الجلواز مؤكدا وقوع الضحية متلبسا.

- تعلمصت وتوعكرت. وتلعوصت رجلاه. وتنطرت وكان يتطوح حتى انشكح، وانبطح، وتفلطح.. يقصد تعثر.

كان يطرطر على الحائط ويسب الحكومة بكلام شين وساقوه الى المحاكمة لدفع الغرامة مجرد غرامة والا بات ليلتين أو ثلاث بحكم المادة القانونية آنذاك ولوائح الحفاظ على الآداب العامة في السير وأزيلت وعدلت بقانون آخر..

وكان آونتها حسب اللوائح تدفع الغرامة فورا. مثل غرامة المرور فورا.. يساق فورا يدفع أحيانا قبل ان تتبخر المادة التي احتساها وتقرطعها.. قبل أن تطير السكرة..

وبطريق الملاحظة لخطواته وكلماته وبالتأكيد عن طريق الشم يؤكد الجلواز انه شرب.. وكان بعضهم يلجأ إلى حيلة مضمضة فمه بمادة تزيل الرائحة مثل المادة التي تزيل رائحة الاباط. أو ما بين أصابع الأقدام من اثر الجوارب.. مادة سائلة أو نوع من العلك يأخذونه من صيدلية السعادة، لكن لكثرة

الإقبال على هذه المادة فقدت من السوق بسرعة.. اختفت وأمست تباع في الأسواق السوداء.

كان بعضهم يفضل دفع الغرامة على بذل الجهد وتضييع الوقت في البحث عن المادة تلك او السائل الذي يتمضمض به عند العودة إلى المنزل أو أثناء مواجهة شمشمة خياشيم الجلواز المتربص بعينه وانفه آخر الليل.

- لكن المشكلة ليست في دفع الغرامة فهي يسيرة سهلة لكن البهدلة والجرجرة الى المحاكمة وسؤال المحقق والفرجة عليه من زبائن وهواة التفرج على الناس وقد يكون المحقق مطنابا مطماطا في السؤال عن المكان والزمان ونوع الشراب.. واثبات فوح الرائحة والتعلثم والادهى التطرطر.. وخاصة على جدار الحكومة يتشفى باطالة الاسئلة وتنوعها.. ويفش غله كقط شرس يدوخ ويلاعب فأرا قبل الانقضاض عليه وإذا تكررت الجرجرة ستكون العقوبة مضاعفة.

وكان عندهم في دائرة التحقيق من حاسته وموهبته التشمشم.. وسبحان واهب المواهب.. قوي الحاسة حتى انه بحكم ممارسته لعملية التشمشم يميز بين صنة البوخة وصنة المقطر المحلي او المستورد من شراب الحارة او منطقة الماية اوجنزور أو قرقارش حاسة شم اقوى من كلب متمرس.. أو أكثر من "شَال

مثل شلشل شول". علـــى رأى النحـــاة وأصـــحاب الشـــواهد والتشبيهات..

هل هو "جن" أو "فودكا" والاعراقي زحـــلاوي والاعراقـــي مغشوش مقلد "وسكى" من وراء الحدود او تسلل مـــن إحـــدى السفارات والقنصليات يتعرف على سائر المقطرات والمدوخات.

وذات مرة أصيب الجلواز الشمام صاحب الحاســـة المميـــزة بوعكة انفية لزم الفراش رغم انفه وتعطل التحقيق مع الشاربين المساقين ثلاثة ايام في الانتظار حتى يشفى من وعكته، وفـــرح بعضهم فقد طارت سكرته وتبخرت رائحته، قبل ان تذهب زكمة حضرته، والمرشح للترقية لنشاطه الانفي.. وقد يبيـــت هـــؤلاء المساقون في ضيافة المركز ليلة او ليلتين حسب الحظ والنصيب ومزاج من استضافهم ولا تدري نفس من هؤلاء بـــأي مركـــز تبيت على بلاط ليس به فراش ولا غطاء الا عباءته او معطفه.. أو رشوة احد الخدم ليقدم علبة كرتون -ورق مقـــوى-.. ثـــم يخرج لا تائبا إنما يرتاد المشرب ويتردد على المركز مادام هو قادر على دفع الغرامة.

ولم يتب احد.. ولم يقلع احد بسبب دفع الغرامة ما دام هو في استطاعته دفع الغرامة الخفيفة على الجيب والنفس المعتادة.. أو بسبب ليلة المبيت التي كانوا يطلقون عليها تمازحـــا.. وتفكهـــا

وتملحا يطلقون عليها نعوتا وأوصافا عرفت في قاموس المتسكعين من الزبائن المترددين من الظرفاء وأشباه الظرفاء.

دار الضيافة - غرفة الضيافة - دار خالتك - الصالون الحكومي - الاستراحة المؤقتة - "ترنزست" الشاربين - غرفة الانتظار - صالون الاستقبال - الحفظ والصون - الرعاية والعناية - الانعاش - المحطة - الدورة التهذيبية - الخ.

- المشرب خمارة قديمة شاهدت حوائطها الكالحة أنواعا من جنود الاحتلال كانت في العهد الإيطالي الغابر مزدحمة مكتظة بروادها.. وتغيرت وظلت أثرا من آثار الاحتلال البغيض.. هناك قرب الميناء في زقاق ملتو ضيق عند قوس منحدر وشجرات تحطبت يؤدي الى مسرب أضيق كان يطلق على الخمارة روادها - طبرنة الحلوفة - وقبلا كانت المجموعة تطلق عليها "طبرنة السنيورة" تهدمت مثل ما تهدم الحائط المائل.

كان روادها من أشكال وأنواع مختلفة من عمّال الميناء وموظفين صغار.. وباعة.. وبعض من العاطلين المتبطلين.

وفي ركن معين بعض من الرواد من السلك الاداري يدخلون خلسة، ويشربون خلسة.. تتلصلص عيونهم عند الدخول.. وعند الخروج يتسللون في خطوات لا يظهر عليها ثقل الشراب.. لكن الصخب واللغب في الركن

الآخر من الخمارة العتيقة.

والمزة لديهم ما تقدمه الحلفوفة أو السنيورة سابقا مزة خالدة لا تتبدل ولا تتجدد. أطباق من لفت مقدد وقطع خيار مملح وشرائح طماطم مهبزة.. وزيتون يصعب قضمه وحبات ترمس عصية حتى ثور لا يستطيع ان يلوكها لم يؤثر فيها نقع المـاء تخلخل بقايا أسنانهم إن قضموها.. ونوع من نبـات يـابس لا تعرف له اسما ولا وصفاً.

وإصرار على -الجرجير- الذي يبس حتـى غـدا كأعواد البرسيم المـادة الرئيسية فـي الطبـق المزي.

وأكد عميد الشاربين في الحانة العتيقة فوائـد الجرجير في زعمه كمـا ان الشراب يهيج الدماغ فـإن الجرجير له فوائده وفاعليته في التهييج.. ورغم انه قرأ هذا في كتاب يهتم بالجنس ضاع غلافه وطارت أكثر أوراقه واستعاره منه احد الجيران ولم يرده.

ولكنه لكثرة قراءاته له احتفظ في رأسه بأكثر مواده ويقـول عميد الشاربين وهو يتمزمز:

- لو عرفت فوائد الجرجير لغرسته تحت السرير..

ويا ويل الحلوفة المشرفة على راحة الزبائن ومحاسبتهم يـا ويلها اذا لم تضع الجرجير في أطباق المزة.

إلا أن بعضا من أصحابه يؤكد أن هذا المتحمس للجرجير.. عاجز.. وإن كانت هذه أمور خاصة.

وهنا خبط احدهم كأسه أو كوزة قال:

- آه عرفنا السر في التهافت على الجرجير.

- عميد الشاربين رتبة شرفية في خمارة الحلوفة باعتباره أقدم الشاربين أو أقدم شلته بالخمارة..

وان احمرت عيناه وتقرمزتا إلا أن قدميه لا تتلعثمان علـى الرصيف المترب يعرف طريق بيته ولا يسـتند إلـى الجـدار المائل..

وهو بالنسبة إلى زبائن الخمارة مؤدب لا يطرطر في الشارع ولا يصيبه رذاذ عندما يجلس في الكنيـف ولا يرتفـع صـوته بأغنية بذيئة آخر الليل مهما عب من اكواز ولا أقـول أكـواب تسقط كما يقولون جملا أو فيلا كأن قدميه بوصلة توصله إلـى بيته يتقلب في سريره بلا ضجة وان تمتم بهدوء خافت بـبعض الكلمات لعله حوار مع نفسه أو تسرب واستلال طفى من عقلـه

الباطن أيام تجنيد الطلاينة له لقد جنى المستعمرون على زهرة شبابه.. أضاعوه أيام الحرب ولفظوه أيام السلم وتصور ما عبه من كيزان وكؤوس يملأ براميل لو تجمعت لا أحــدثت ســيلا يغرق عشر قرى.

تصور له خياله ما عب من براميل يشكل بحيرة ومســتنقعاً وتصور انه غارق في هذه البحيرة قد اشترى له احد معارفه من سور الازبكية ديوان "عمر الخيام" بقرشين تمزقت بعض مــن أوراقه وضعها في جيبه وحفظ منها مقاطع.. ومن الطريف أن الورقة الممزقة أبى أن يطوح بها في الشارع مخافة ان تدوسها الأقدام فالحروف لديه مقدسة.. وضعها في ثقب حــائط قــرب الحانة.. لا يصح ان يدوسوا على ورق مكتوب.. حرام حفظ من الأوراق مقاطع شعرية لينتشى بها بصوته إلا بح الافــح وقــد يحمي وطيس دماغه يردد مقطع..

- اشرب على وجه صبوح.

ويشير إلى وجه الشيشليانية:

- هذا وجه قبوح. ويذكر شيئا من النواسيات فــي الشــعر القديم ويهز احدهم رأسه ويقارن الشارب بين الخيام والحسن بن هانئ ويردد احدهم دعى أدب وتظرف مــن طلاطــيش ورذاذ. المسموعات.

- إيه.. أبو نواس كان موش ولابد.

ويذكر أمثال الخيام في خمرياته واصطياد اللحظة وانتهاز الفرصة فرصة العمر الضائع.. والزمن التائه فالعمر سراب يمر وسحاب يتلاشى.

ويظل الحديث متشعبا متناثرا بين غزليات النواس وخمريات الخيام بأسلوب لو سمعه سيبويه في حياته لطلق النحو وعاد إلى عجمته ولو سمعه نفطويه لحرق نفسه ولو سمعه الشيخ "شملول" مدرس النحو لتفلفصت رقبته.. ويلعق احدهم شفتيه وهو يمسح بطرف كمه.. تلك الشفاه المتورمة..

وعيناه حمراوان مثل اللك ولا يريد أن يفوته الإسهام في الحديث عن الأدب والفن والوجه الصبوح يريد ان يثبت انه راوية للشعر ذواقه للأدب لا مجرد شارب ومستمع وذكر مقطوعة لشاعر زجال من أبناء الحومة.

كان أيضا شريبا ويمر على الخمارة كان له مقعد هناك ويغطس غطسة في مالطا أو اليونان ثم يعود كان يقول زجلا متداولا بين الثمالى والمتطوحين.

عندما تعثرت قدما وجه صبوح عند الجانة وأراد صاحب الوجه الصبوح أن يتلافى سقطته وعثرته فلم يرتطم بالرصيف وصاح الزجال الثمل وعيناه تبصان وهو في خريف العمر:

- بسم الله.. مرود عيني طاح.. تلقوه الصلاح.

وردّ احدهم قائلا:

- هذا كلام بذيء.. أسخف وأردأ من مزتكم.. هــذا كــلام تافه.. ليس من الأدب في شيء وانسحب لا يريد أن يجاريهم في ثرثرتهم.

في ذلك الركن المعتم قليلا إلا من بصيص خافــت وضـــوء شاحب.. لكن ملامحهم تظهــر.. فــيهم الأصـــلع والأشـــيب.. والأحدب وذو الغضون والخريطة المجعدة التي رسمها الــزمن في الجبين.. ومن احتفظ ببقايا وجاهة ووسامة ومنهم من يحمل جراحات أو آثار تبقت في جسمه وأغوار نفسه ومــن أراد أن يستمع إلى ذكريات الحرب العالمية ومن فم شهود عيــان أيــام حصار طبرق والأسر في المعتقلات في التل الكبيــر ومنطقــة "هاكستب" والوقائع بين الكر والفر في السلوم وســيدي برانـــي ومطروح والعلمين يجد المتصنت لديهم مادة خصبة وذكريـــات أو عناوين ذكريات مهمة مشوقة في روايتها رغم أنهــا كانـــت دامية في وقائعها.

بعض من أصحاب هذا الركن شــفاههم مفــاتيح لصــفحات وجوانب من التاريخ المخفي المطوي. صدورهم صناديق مغلقة مفاتيحها هذه الشفاه المزمومة.. هؤلاء التائهون في خضم الحياة ينحتون من أعمارهم ويدفعون ثمنا لا يذكره احد أيام الكر والفر والقنابل والألغام وحصار الدبابات وصـــراع الإمبراطوريـــات وتسابق الجنرالات.

إذا أتيح لهم أن يتكلموا بعد صمت طويل يتمسكون بخيــوط الذكريات يتفننون في سرد مشــاهداتهم يســتمرؤونها ليثبتــوا لأنفسهم - بعد كل هذه الأخطار والمجازفات - مازالوا أحيــاء يرزقون وان كان رزقا مقترا ذكريات يستلونها من أغوار الزمن السحيق عندما كانوا في مطلع العمر فتيانا وشبابا وعندما يسخن الرأس.. تتوالى الصور يجددون إطارها قبل أن يهرئها النسيان وتراكم الإهمال.

عندما يذكر احدهم حادثة وهو يــزيح بــأطراف أصــابعه المرتعشة الكوز الذي عب ما فيه ولم يكتف ولم يرتو وكأن مــا أشار إليه خيط يستل خيوطا.. يجر بعضه بعضا خيوط من كبة ولملمة كبيرة متداخلة الأنسال والخيــوط.. متعــددة الألــوان.. ويستشهد باسم احدهم من رفاق الأيام الصعاب واماسي الخطــر المحدقة بقنابل الأرض.. والسماء والخنادق والألغــام يستشــهد بعوض.. وحميدة وسالم.. وناجي ومبروك بعضهم راح ولم يعد وانزاح من طريق الحياة غار به الزمن حتى شاهد قبر لم يحزه لم ينله.. ظل اسما في دفتر باهت في قائمة المفقــودين وحــاز رئيسه صاحب اللكنة رتبة وشهادة إيه.. أيها الراوي في ركــن معتم.. يذكر سالم وسويلم الاسيرين هربا من الأسر وأطاح بهم لغم. وقد يصحح له احدهم اسما أو لقبا أو يوما أو يضيف جانبا من تفاصيل ما حدث من نصف قرن عند بردى سليمان ونجــع

حبون.. ومضى صحابه في قبور بلا شاهد طوتها رمال الأعاصير لم توضع على قبرهم زهرة.. ولم يقرا على رفاتهم فاتحة.. مع انهم رجال صناديد أبرياء ساقوهم للحرب بالتجنيد الإجباري وسلطة كانت تتحكم في الشعوب لتحوز انتصارا بأشلاء الآخرين.

ويتأوه. اللهم اختم بخير لازال يذكر الرصاصة التي طنت ومرت قرب أذنه لازال زنينها في سمعه إلى الآن وكيف لا.. وقد أطارت إحدى أذنيه ملصته، وحمد الله على أنها لم تدخل في رأسه والا لما استمتع بهذه الجلسة في حانة الحلوفة ونعم بحديث الذكريات ولما استمتعوا بطرائف حكاياته التي يرويها ويتفنن في رواياتها..

- هات كوز يا حلوفة.. ولا يقول كأسا.

صفات تتميز بها حياة هذه الثلة من أصحاب الركن الهادئ المعتم.. خافت الضوء.

الكرم.. مع بعضهم إلى حد لا يعرفه الآخرون.

إمساك اللسان عن اغتياب بعضهم.. لا يغتاب احد زميله في الجلسة إذا غاب أو توارى.

عكس ما يصنع جلوس احلاس في التراكين والمرابيع والمجامع الأخرى.

حسن أبو يوسف الموسي

• والليالي الوحيدة التي لا يجتمعون فيها للشراب والتحلق في هذه الحلقة ليالي شهر رمضان المعظم المكـرم لـه هالتـه وحرمته وقدسيته بكامل أيامه ولياليـه لا يقتربـون مـن هـذه الأكواب.. بل يحرصون على صلاة التراويح والتسابيح.. بـل من منتصف شهر شعبان على حد تعبيرهم - يرفعون الصـقالة وان كان بعضهم يحتفل بشعبانية وهي عادة قديمة لدى الشاربين يبدو أنها من تقاليد وتراث الندامى القدامى.. إذا العشرون مـن شعبان ولت.. الخ..

أما بعد رؤية الهلال من شوال شعارهم بيت شوقي رمضان ولي الخ.. يبدو أنهم لم يحفظوا من شـعر شـوقي إلا هـذا.. سامحهم الله.

يكفون ويقلعون في الشهر الفضيل الحرام.

وأيضا ليلة التعازى والتاليف عندما يواري القـدر المحتـوم أحدا من الثلة يصرون على السير في موكب الوداع.. ويسهمون في القراءة والترتيل ورفع الأيدي بالأدعيـة.. ويتقبلـون فـي زميلهم المواساة والتعازي، أما إن كـان المتـواري مـن ثلـة الآخرين أو مجرد جيرة عامة، ومعرفة عابرة فهـم بطبيعـتهم يجاملون.. ويواسون لكن لا يفرطون في كوب وكوز من اجله.. مات.. الله يرحمه بعكس زميل القعدة والثلة فراقه له هزة فـي النفس وله حرمة على الأقل.. ليلة أو ليلتين ثم يعـودون إلـى

الثرثرة والهدرزة.. وفش الغل.. ودق الحنك.. وتجرع ما يجود به شيطان الشراب.

- وخيم الشبح المخيف.. وبدأت الحلقة في التناقص فمنجل عزرائيل طويل.. مرهف.. حاد.. جاد لا نقض ولا إبرام فيه.. ولا يعرف تراجعا.. ولا تسويفا وتأجيلا.

إذا حان الموعد والأجل لا يعرف التراخي في واجبه الأبدي ولا يسقط اسما من القوائم التي يحملها.. وقاموس القدر لا مجاملة ولا استثناء.

ومن رواد هذا الركن الدائمين ذلك الذي كان يعد بالتوبة والإقلاع عن الشراب كلما اقترب موسم الحج يهزه الشوق إلى الأماكن المقدسة.. يبدو انه سيوفر ثمن التذكرة للباخرة - إذ كان السفر بالبحر أكثر من السفر بالطائرة - ويؤكد انه بعد عودته لن يروا هنا وجهه ولن يرى وجوههم بعد الموسم القادم ويقول:

- إن شاء الله نادت.

ولكن في كل مرة يماطل نفسه وتماطله.. ويؤجل إلى موسم آخر - سنوات وهو يعد نفسه ولا يفي- ويقول لهم مؤكدا:

- لن أكون مثل الحاج "بغل الحومة" - هكذا لقبه عندهم - ولا احد يعرف هل لقب وراثي.. أم ارتجالي أضافه إليه زملاء السهرة.. لن أكون مثله لم يتب بعد أن غسل ذنبه. وعاد كيوم ولدته أمه ثم أغراه الشيطان وعاد بعد أسابيع إلى كأسه وطاسته

أو كوزه وبرميله، وأكد لهم انه صمم ألا يعود.. ويؤكد لهم انه بدأ في توفير ثمن رحلة التوبة والأوبة وانه سيحمل لهم بعض الهدايا على سبيل البركة والتذكار مسبحة، طاقية، سواكا، سجادة صغيرة، شوية تمر أو عطور وبخور.. أو قليلا من ماء زمزم.

وفعلا سخر الله له وذهب للطواف والوقوف على عرفات واحرم وأدى شعائر الفرض.

ولكنه لم يعد.. فقد مات في الزحام وهو يرمي الشيطان بالجمرات وكسب لقب حاج بعد وفاته المرحوم الحاج يذكرون اسمه هكذا.

وقال احدهم وشاهده في المنام سعيدا خرج من الدنيا كيوم ولدته أمه.. ورآه يشرب من السلسبيل ورد احدهم:

- كلنا سنخرج كيوم ولدتنا أمهاتنا عرايا.

- لكن بدل القماط.. بالكفن.. القماط لا يصنعه المولود القادم للدنيا كذلك الكفن يصنع للخارج من الدنيا.. نأتي عرايا.. ونذهب عرايا.. كلنا.

أجابه.. شارحا.. موضحا:

- يا راس الكيلة.. يقصد طاهرا بلا ذنوب كيوم ولدته أمه طاهرا.. مجاز وكناية وكلام لا شك فيه يا بلعوط اللهم اختم بخير.

- وكيف عرفت أنه سعيد؟

- رأيت وجهه كالقمر وهو يسأل عنكم فردا.. فردا ويتمنى لكم قصر العمر ليراكم.

وهنا تزحزح.. ك.. ك.. وقال للمتحدث صاحب الرؤيا المنامية.

- فال الله ولا فالك.. الله يرحمه.. يا ملعون، وقال:

- سعيد يا بخته.. مات يوم الجمعة لن يحاسب يا بخته.

وتساءل آخر:

- الحساب للجميع لكل العباد.. مات الجمعة والا الخميس.. الحساب شيء مقدر..

ونظر الآخر إليه وقال:

- مات يوم الجمعة.. لكن يوم السبت في انتظاره.

وأراد احد هواة الانتخابات من المرشحين أنفسهم في المنطقة من المتربصين للمناسبات الترشيحية كسب الأصوات من المصلين الورعين فوعدهم بأنه سيزيل هذه الخمارة الملعونة.. التي هي من بقايا الغابرين.. وصلى الجمعة معهم.. وأدى النوافل أيضا وأكد انه سيذهب للوزير المسؤول ويطلب إزاحة هذه الخمارة.. وهنا همس له احدهم من المطلعين على بعض الخفايا والأسرار:

- معالي الوزير يشرب

وتدخل آخر يبدو انه أكثر إطلاعا وتقصيا وتشمشما للأمور:

- لا علاقة له بهذا.. بل لا يهم الوزير أمرها فهو ليس في حاجة إلى الخمارة الرديئة.. خمارة الحلوفة ان له ثلته الخاصة.. عنده جماعته، في فندق مادي وفندق حسان.. زنقة بوك حد مدم وجماعة السراية.. يشرب برميل وما يسده ومرات يأخذ بايه من السفارة وأصدقائه الدبلوماسيين وبعض الهدايا من الروامة.

قال آخر وهو يساقط حبات مسبحته:

- الله يتوب عليه.

وتدخل آخر قائلا:

- ولا تنسى قريب الوزير في الجمرك.

ونشط المرشح وشمر عن ساعديه وساقيه واعد الملصقات ونثر الوعود وطبع صورته وابرز بوزه منها ملصقات الصقها عند باب الجامع وملصقات عند باب الخمارة.. وملصقات عند باب المراحيض العامة والزناقي وكما وعد المصلين الطيبين الأتقياء يوم الجمعة بأنه سيعمل على إزالة الخمارة.. فانه بحكم طبيعة المرشح طماع في نيل الأصوات من أي جهة وبأي شكل.

دخل الخمارة في التيار الدعائي. وهناك وعدهم سرا بالاهتمام بأمرها.. وأمرهم. وانه سيعمل على تخفيف العقوبات على الشاربين وإنزال قيمة الغرامة من مبلغ إلى مبلغ.. ومراقبة

الحلوفة في غشها حتى يكون من نوع غير رديء وسيضمن زملاءه الأعضاء إن نجح ودخل تحت القبة قال له احد الثمالى

- أي قبة بتولي شيخ؟!

- لا.. بل قبة البرلمان.. نعدلوا القانون.

وكان المرشح شرب معهم نخبه من كوز صدئ تجرع وتقرع وان كان عف عن طبق المزة مخافة إرباك معدته.

- في صحتك!

- في صحتك.. وقرع كوزا بكوز حتى كاد من صدمة الكيزان أن يندلق سائلا على ثيابه..

واخذ منهم - كلمة رجالة - تريس محصحص.

وزعم عميد الشاربين في الحلقة انه ليس جديدا في هذا الميدان فقد عمل على إنجاح النائب السابق لكن الملعون - على حد تعبيره - زاغ وتهرب منه ولم يتوسط له عندما جرجروه في سكرته وبات ليلتين في المركز في دار خالته وأكد لهم المرشح الجديد انه سيقف معهم إن وقفوا معه وتبرع لهم بشراب ليلة كاملة.

وذكرهم بلون الصندوق.. وصورته الملصقة على الحائط واقترب من صاحبة الحانة المشرفة على الزبائن متحدثا معها في تواضع مصطنع وقالت بلكنتها المتعثرة:

- ديما انتكاب

- قال لها:

- موش انتكاب الله ينكبك..

انتخاب وضغط على حرف الخاء.. انتخاب يا حلوفة

قالت:

- هل أصوت لك؟! سنيور أنت انتكاب!

- لا.. بل المطلوب منك تذكيرهم يوم الانتخاب.. وقدم لها رزمة من المناشير الدعائية وصورته الملونة البهية ونقدها سرا بقشيشا وهي من سنوات طوال لم ترشكل البقشيش... وضع السنارة عندهم وطوح بالشبكة يريد صيد أصواتهم وقد شرب من كوزهم - ولو صفعوه أو شتموه أو قرصوه لاعتبرها مزاحا ودعابة ورفع الكلفة بينهم انه في حاجة إلى أصواتهم.

- وهؤلاء الرواد لهذا المشرب عند عودتهم إلى منازلهم بعد ثقل رأسهم وتلعثم أقدامهم.. واحتراما لزاوية سيد يعقوب لا يمرون أمامها.. إنما من ناحية أخرى ورصيف بعيد كذلك احتراما وتقديسا لسيدي عبد الوهاب القيسى وسيدي الهدار سيدي سالم المشاط لا يمرون أمامه في العودة إنما من بعيد على الرصيف الآخر وهم سكارى لا يمرون أمام هذه المزارات يتجنبون الطريق احتراما لهؤلاء من المرابطين حماة الثغر المحروس..

• وهناك جانب خاص أو ركن هادئ يأتي إليه نوع من المترددين.. منهم عابد الدندان وشكيربان.. ودندان يشرب صامتا ويخرج متسللا صامتا وهو من موظفي الإدارة.. لم يتخرج من كلية الحقوق ولم يكمل دراسته لظروف الحرب العالمية آنذاك انضم إلى السلك الوظيفي والإداري لحاجته.. أو لحاجة الإدارة آنذاك لبعض الموظفين.

عديد من المحامين آنذاك ومن المدرسين والإداريين بلا دراسة منظمة ولا شهادة.. ولكن بعضهم أدوا واجبا وسدوا فراغا.. واثبت بعضهم كفاءته وجدارته.. عانوا في سبيل العيش ما عانوا..

وعابد الدندان مع انه "افندى" لباسه الطربوش قبل انحساره وزوال عصره وانقراضه.

يلبس الطربوش في الشارع والعمل لكن عندما يتوجه للطبرنة ليلا يذهب متخفيا يرتدي العباءة أو الجرد ويتكمكم.. ويعمل النقاب أي يسدل طرف العباءة على جانب من وجهه حتى لا يشاهده من على الرصيف القريب ويتحاشى ان يراه أصحاب الركن الصاخب من تلك الشلة ذات العيون النهمة.. والألسنة الطويلة وتقييد أحوال الزبائن الركن الذي تعود عليه.. هادئ به عدد من الموظفين والإداريين ولم يترك عادته في الشراب الى درجة ان هناك زجاجة صغيرة في جيبه على ما

يحكى عارفوه.. وشكت زوجته لأهلها. ولكن بعد أن خلفت منه صبرت على مضض.

وفي قضية سُكْر مثل الشارب المقبوض عليه أمام المحقق المدقق "عابد الدندان" لتهمة العربدة وتفحص المتهم المساق ذلك الجالس على المنصة بلباسه الرسمي.. وطربوشه وشريطه الذي يتزين به كما تفحص الجالس على المنصة أيضا المتهم الماثل أمامه كلاهما تبادل التفحص للتأكد والتعجب الصامت.. والاستغراب المحير!..

وبحكم الواجب أو شغل المهنة وأسلوبها الروتيني.. وجه الأستاذ "عابد الدندان" الجالس على المنصة سؤالا للماثل أمامه:

- اسمك.. ما هو اسمك.. اسمك؟

وكانت المفاجأة أن أجاب وهو يمط شفته وتتراقص حواجبه.. ويلوح بيده.

- إيه.. والله عجب.. حتى اسمي نسيته؟!.. ما أسرع!!..

- اسكت

- سكتنا

- تكلم.. انطق.. ما هو اسمك؟.

- ماهو قلت اسكت..

- اهو تبلغمنا.. سكرنا فمنا.

- اسكت عن التعليق جاوب على قدر السؤال وبس.

كان قد فرح عندما شاهد وجـه المحقـق الأسـتاذ "عابـد الدندان".. اطمئن.. ارتاحت نفسه.. انه زبـون وزميـل فـي الخمارة.. وان كان الدندان من جماعة الركن الهادئ المتسـللين خفية.. أو جماعة "حس مس".

وظن في نفسه انه لن يوبخه.. سيطلق سراحه وربما اعتذر له.. بأنهم جاؤوا به خطأ أو غير ذلك من لباقة الاعتذار أو ربما دعاه لشرب فنجان من القهوة فهو مـن أولاد الحومـة.. إيـه معارف.. ولو لم يكن بينهم في المشرب حديث متبـادل.. أولاد كيف.

واطمأن وقال في دخيلة نفسه:

- حظ طيب لقد تفاءل في هذا الصباح بوجـه صـبوح رآه صدفة وزاده تفاؤلا انه سمع صدفة كلمة "مربوحة.. مربوحة"

وهو سارح في تصوراته خبط "عابد الدندان" المنضـدة مـا أسهل الخبط عند هؤلاء:

- اجب باقتضاب، لماذا جئت إلى هنا؟

ورد قائلا:

- إيه والله عجب!!.. جئت.. أنا آت بنفسي.. جاؤوا بـي.. كركروني.

- إذاً لماذا ساقوك.. وكركروك؟!

- سقوني.. لم يسقوني.. سقوني في النهار.. أنا لا اشرب في النهار.

- ساقوك.. لا سقوك.. أنت لا تعرف اللغة.

- توا هاذا امتحان.. نعرف لغة والا ما نعرف!.. نتكلم بالنحوي؟!

- اسكت.. جاوب على قدر السؤال.. الأوراق وشهادة الشهود تقول انك شربت زطلت..

أنت شارب.. لماذا تزعج الناس والأمن العام و(جندرمة).

- يا سلام إلى هذا الحد - يظهر كلمة جندرمة ما زال يستعملها مع أنها انقرضت في الاستعمال وأزالتها كلمة بوليس، ثم أزاحتها كلمة شرطة وكلمة جندرمة يظهر عبارة ورثها من والده أو جده.

- أزعجت!.. طول عمري لم أزعج هابوشة ولا ناموسة.

- إيه.. أمن عام. هو في نظره مستقيم من عتبة لعتبة عتبة الوظيفة وعتبة المشرب.. وعتبة البيت وبقيت العتبة الأخيرة بعد عمر يأمل أن يكون طويلا عتبة المنزل والمقر الأبدي والصمت الأبدي.. يجمع الكل حيث لا شر ولا ضر ولا خطورة على احد سلامة الحكومة..

- كيف أزعجتها بسكرتي.

دار رأس المائل أمام عابد الدندان بهذه الخـــواطر قبـــل أن يجيب.. وسرح كأنما شرب كوزا أو كوزين وهو يستعمل كلمة كوز بدل كأس.

- أزعجت الناس والأمن العام!..

هل صحيح هذا.. كم من ضحايا.. عنقاء مغرب.. إلى هـــذا الحد أصبحت في نظره خطيرا.

هل يختّد يزبّل معه! وتلفت.. هل هناك احد مـــن أصـــحابه، وتلفت مرة أخرى وهو يحك أرنبة انفه وعثنونه وعدل مـــرارا من طاقيته - لباس رأسه- وهي عادة عندما كان أبـــوه يتحيـــر وكرر عابد الدندان كلامه:

- أنت شارب ثمل.. أزعجت الناس والأمن العام.

- كم رواد المشارب لماذا لا تجرجروهم؟.. أم هي صدفة!

ما أعجب الصدف كان زميله الذي شرب إلى درجة التدعدع كان يترنح ويتطوح.. صدفة تعثرت قدماه بشيء عثر على كيس به مبلغ لا بأس به يسكره أكثر من عام وهو صدفة لم يجـــد إلا أصابع هذا العسكري "الماد نسنوسته" صدفة.. لماذا لـــم يختـــر سواه؟!

لو كان من نوع المشاكس المعـــاكس لظـــن أن أحـــدا مـــن خصومه ومناوئيه سلط عليه هذا.. لكن في سجله. حسن السيرة

والسلوك.. لا خصومة ولا عداوة.. ولا مناقرة ولا مشاكسة.. إنه مستقيم في سير قدميه من عتبة لعتبة..

هل يقول له.

"تشرب وتضع الزجاجة الصغيرة في جيبك عرفك زملاؤك" لكن، سيتخبل الخيط أكثر.. نظرته الجافة وسؤاله المكرر زادته حيرة.

- ما اسمك.. لماذا أتوا بك؟!

هل يقول له ساخرا للتعارف والسلام والتحية ولو شموه هو لوجدوا رائحته تفوح.. تبوخ، لكن يظهر الموظفين الصغار ينزكمون عند رائحَة الكبار حتى فكتوريا بوالينو - عجوز النحس - تعرف من شرب عندها في الخمارة.. بل هي المنافقة الجبانة.. أو الطماعة سمّها ما شئت تخفض له ثمن الشراب وتهيء له ولزملاء الجلسة.. مزة خاصة ويغالطها أو يتغاضى عند الحساب.. وتسكت وتقول:

- صحيح حسابك كما ترى..

وعندما سأله عن اسمه.

قال في نفسه..

- إيه سرعان ما نسيت قالت حناي في كلامها:

- من حبي فيك نسيت سماك.. صحيح الدنيا منازل أصحاب الكتوف الصحاح ما يجوش هنا..

وصاح الأستاذ "عابد دندان" متكلفا تقطيبة وتكشيرة يحاول أن يتغلب بها على ابتسامة أو ضحكة والانتقال في الانفعال السريع مربك لمن يمارس مهنة التمثيل.. قال:

- اجب باختصار.

وضحك وقال:

- إيه باختصار.. هل هو امتحان.. إيه ما ابرك أيام الامتحان والا هذه مسابقة.. اجب باختصار

وأجاب:

- أنت عارف. وأنا عارف والا عامل نفسك موش عارف..

واستغرب هواة الاستماع ومشاهدة الجلسات هذا الأسلوب هل تسقط الحواجز مع المحقق إلى هذه الدرجة؟!

وكان كاتب الجلسة الشاب "وناس مؤنس" ترك القلم على الملف.. واستغرب هل يكتب هذا الكلام الخارج عن

الموضوع؟! لأول مرة يشاهد متهما يخاطب المحقق بهذه البساطة.. واللامبالاة يظهر انه مازال شاربا أو على حد مصطلح الشمالى "بايته في رأسه".

واخذ الشاب "وناس ونيس" ينظر ويستمع ولم يقيد هذه المحاورة والمداورة لأنها خارج روتين "س. ج".

واخذ يقضم أظافره بأسنانه.. عادة لم يستطع أن يتغلب عليها وطالما نهره الأستاذ "عابد دندان" عنها لكنه مشغول بسؤال الذي أمامه.

- اجب على السؤال: أين شربت؟!

هنا.. حدث ما لا ينتظره الأستاذ "عابد دندان"..

فقد انفجر الرجل في وجهه بصوت عال راداً على سؤاله:

- إيه ياسي الدندان شربنا مع بعض في خمارة الحلوفة ليلة البارحة وحتى ماريا وفكتوريا بوالينو تعرف من شرب معانا..

وصاح حتى تكاد تنفجر عروق رقبته:

- عليه الطلاق أنت شربت معنا.

- اسكت.. اسكت.

وتلعثم دندان المحقق واحمر وجهه، وخبط يده وقام متربعا.. وخاف أن تتزحلق الزجاجة الصغيرة من حقيبته..

وستطير هذه الشهادة مركزه وسمعته وأسرع برفع الجلسة.. وأحال الموضوع إلى محقق آخر تلافياً للأمر.. وحصراً لما

أشعل.. وضماً للموقف عندما صدرت همهمة ثم غمغمـــة مـــن القاعة كأنها شماتة أو دفاعا عن المجرور المحاصر بالأســئلة وصاح:

- رفعت الجلسة.

• وهو خارج نادى على المتهم، وهمس له مشيرا بيده في أسلوب رقيق لطيف قائلا:

- نحن ولاد حومة هذه عشر جنيهات للغرامة أحلناها علـــى قاض آخر.. ادفعها للمحضر غرامة وبعد خطوات.. همس له.. وعيناه تمسحان المكان مخافة أن يــراه أو يســمعه احــد مـــن البصاصة أو العساسة أو الموظفين:

- هذه عشرة أخرى اشرب وهيص بعيد يا بن الـــ.... لكن في غير هذه الحانة.. درق وجهك ملعونة الساعة التي رأيتـــك فيها اغرب عن وجهي..

وانطلق مهرولا في طريقه.

سويسرا ــ جنيف

1997 ــ 7 ــ 25

□ □ □

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

صندوق التفاح ...

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

• حمل "عبيد القنبوعي" صندوق التفاح بين يديه وأصرّ في تهيئته واختياره على أن يكون من أجود الأنواع في صندوق فاخر.. الهدية على قدر مهديها وعلى قدر المُهدى إليه أيضًا..

"وعبيد القنبوعي" ذاهب إلى تلك البلدة الثرية، حيث سيقابل حضرة معالي الوزير وسمع أنه من أهل الحل والعقد والفك والربط.. وهناك توصية ووساطة- والدنيا مصالح.. ومن اجل تشحيم الخيط وتزييت الخيط. لا بأس من حمل هدية صغيرة.. هي رمز وجسر، والحياة كلها رموز وخيوط.. لكن منها الخيوط الرهيفة الدقيقة كالحرير. والخيوط الواهية كخيوط العنكبوت والخيوط الغليظة كحبال الليف إلى أن تصل في غلظها وبشاعتها إلى حبال المشنقة -والعياذ بالله- وكلها مصالح، خيوط، وجسور، ورموز.

وأصر "عبيد القنبوعي" على أن يكون صندوق الهدية بين يديه أثناء سفره، لا أمان لشحن في قسم البضائع في البواخر أو الطيران.

ولا أمان لإرساله مع الغير لزيادة الطمأنينة والحذر، ولو قام بشحن الصندوق في نفس الطائرة مع الحقائب لفسد

وعطب.. ربما هبده موظف المطار، أو امتدت إليه يد سارق، أو أصابع جشع نهم.. في أحد المطارات عند التحول من طائرة إلى طائرة.. أو أثناء الاستراحة وما أكثر الذين اتسعت بطونهم وضاقت عقولهم، وربما تشوه منظر الصندوق من الخارج- وهو هدية - لابد أن يكون في إطار وشكل أنيق بخيوط زاهية وورق شفاف ولمّاع يليق بصاحب المقام الكبير والحيثية الفعالة. وكتب عليه بخط منمق بارز عبارة:

"**إلى معالي الوزير... فلان**"

وهذا حجاب ووقاية، لن يتعرض للبهدلة في جمرك البلدة، ولن يقف في الطابور طويلاً لن يتشنج ويتعذب من طول الملل والانتظار مع أن لديه تأشيرة دخول وليس مدرجاً في القائمة السوداء، أو القائمة الرمادية.. لن يقف في طابور التململ والتنمّل عند باب الخروج أي الدخول قد يمكث عادة أكثر من مسافة الطيران.. لن يجلس على كرسي خشبي أكثر من ساعتين لاستلام جواز سفره من أجل ختم لا يستغرق في بلدان متحضرة أكثر من رمشة عين.. لكنه قد يلطع ساعتين لاستلام جواز سفره تحت لافتة- مرحبا- زورونا تجدوا ما يسركم.. بلاد العرب أوطاني- لن يتململ ولا يعبّر عن استيائه، فإن كلمة لا تعجب الجمركي أو الحارس أو الشرطي المبّوز تجعله بإشارة من

إصبعه يعود إلى ذيل الطابور.. سادية غريبة يلاحظها القادمون والمسافرون.

.وعند التأكد من الخروج والدخول يتندر هؤلاء الزوار والضيوف وتتكاثر التعاليق الهامسة والغامزة.

ولكن لدى "عبيد القنبوعي" هذا الصندوق جواز مرور وتسهيل عبور خاصة إذا لمح بخط واضح على الصندوق عبارة- إلى معالي الوزير.

والوزراء في ذلك البلد المتسربل في البحبوحة والسعادة شرائح وأذواق وفصائل..

هناك من يحب الهدايا التذكارية، أو الهدايا المعوّية، أو هدايا ذات بريق ووهج وثمن. ذهب وما شابه.. وقلما يهتم وزير أو مدير أو مسؤول بهدايا ذات طابع فني أو شكل جمالي أو إبداع.

ذات مرة.. من المرات.. وأكاد أقول من المرائر أهدي أحدهم صورة زيتية نادرة جلبها من أحد المعارض العالمية..

هرع بها إلى معالي الوزير.. فعلق عليها ساخراً متعجباً

- قدم لي تصويرة أجد مثلها في سوق الثلاث أو الروبابكيا أو باعة الأثاث، ولم يقدر قيمتها وشكلها الفني وندرتها.

- وأحسن الهدايا -في أعراف أهل الهدايا- ما خف حمله وغلا في خاتم صغير، أو عقد لحضرة المصونة هانم.

لكن هذا وزير معوي يحب الفاكهـــة الناضـــجة الطازجـــة خاصة عندما تكون في أول الموسم عَينه.. يحب أكـــل التفـــاح والسهرات اللطيفة خارج البلد.. وسمعه عبيد القنبوعي ذات مرة يقارن بين أنواع التفاح وأن أجوده هذا الذى اختـــاره صـــاحب الصندوق..

سيبادر به قبل أن يسعي ويهرول آخر من المترددين علـــى البلد والعارفين والمتحمسين لأمزجة الحكام والـــوزراء وكبـــار المسؤولين من أهل الحل والعقد والفك والربط.. من هواة صيد الغزلان، أو صيد العصاري والمصاري..

والمبادرة هي باب النجاح والمغنم.. خير البر عاجله، وخير الهدايا أسرعها وأعجلها قبل فوات الأوان..

واهتبل الفرصة والحياة فرص، والاهتبال أنواع..

وعند الوزن في المطار لشركة الخطوط للبلد الذاهب إليـــه قال لهم مشيراً إلي الصندوق المحمول: أنه لمعـــالي الـــوزير، وعند الهبوط لدى دائرة الجمرك.. وهو من صراط العذاب.. في التلكؤ والتحرش والتهرش، قال لهم مشيراً إلى الصندوق بـــين يديه وعرقه يتصبب وهو يلهث ويحاول ربط الخيط الذي فُـــك وتدلى وتجرجر.. وأنفاسه تكاد تُخنق:

- صندوق معالي الوزير.

وما لفظ بكلمة وزير حتى بادر ضابط الجمرك كَشِــر الوجــه وأزاح مشيراً بيده حضرات الوقــوف والمنتظــرين وأفســحوا لحامل الصندوق المجال.. وأشر الجمركي على حقائبه بسرعة.. ولم تخضع لعملية التفتيش لا حقائبه ولا جيوبــه ولا ســراويله ببركة الصندوق.. مع أنه في مرة فائتة لم يحمل لمعالي الوزير شيئاً فتش حتى التفتيش الداخلي. وظل في ورقة التــوت.. فــي سيقانه التي تشبه مومسّا عجوزا تركها قطار الزمن.. أو سيقان مدلك حمام مصاب بهزال وسعال وسوء تغذية، ولم تشفع له في تلك المرة كلمة.. سائح.. أو زائر.. أو عابر، ولا كلمة ضــيف أنت وبختك يا بوبخيت.. قد تقع بين يدي إنسان ابن حــلال أو رجل يتحشم تنجو من إزعاج الإهانات.

- وفي تلك المرة "عبيد القنبوعي" ضحك على نفسه وهــو ينظر نفسه في المرآة المقعورة المعكوســة.. وجهــه المقلــوب ومؤخرته العجفاء كعنزة جرباء.. واستحوا أن يفتشوا مبعــره لأن المفتش الدركي كان يرى العورة مغلظة وغير مغلظة.
- بارك الله في صندوق التفاح، اجتاز "عبيــد القنبــوعي" المنطقة التجريدية بسلام واحترام.. وكله تمام و"اتفضل يا أستاذ شرفتنا".
- في الفندق لم يجد مكاناً.. البلاد مليئة بالنزلاء لا عبــور ولا سيّاح، إنما تكاثرت الوفود والمؤتمرات وأصبحت العواصم

الأفريقية والآسيوية تتنافس في جلب المؤتمرات إليهـا. وشـد الوفود وقص الأشرطة وكلمات الافتتاح وشرب الأنخاب وإقامة الموائد وطوابير الشرف، وقرقولات الاستقبال وطوابير التوديع وحجرات وأجنحة محجوزة طوال السنة (سرِّيك مرَيك).. أهلا.. ومع السلامة.. الفنادق الممتازة مشغولة محجوزة، وفي فنـدق عادي أو رخيص لا يصح لحامل صندوق معـالي الـوزير أن ينزل.. لابد من طراز ممتاز.. ولأجل صندوق يكـرم حاملـه، وجد الفندق ذا النجوم بلا نجوم مشغولا بمؤتمر هام من طـراز عالمي وإقليمي.. وعلمي وعملـي، وتطبيقـي واسـتراتيجي.. وتريَقي.. مؤتمر لدراسة عصّى المكانس وأثرها فـي النظافـة المنزلية وأثر أكداس القمامة في الاقتصاد الوطني.. واثر تقوس ظهور الخادمات دون الثانية والعشرين، ودراسة تبدد الزيت عند امتلاء البراميل.. ومؤتمر لدراسة هش الذباب والهـابوش بـلا سائل حساس.. وثبت علمياً أن بعض السوائل تزيد في خصوبة الذباب.. وبعض السوائل تزيد الحاسة الجنسية وتدفع إلي التهيج وتحريك الراقد من الغرائز.. خاصة عند الذباب فيتولد في جوها كما جاء في محاضرة الدكتور هانش.. هش.. اش.. دش..

- لم يجد مكاناً في فندق ممتاز هل يليق أن ينزل في فندق صغير أو متوسط والدنيا مظاهر.. ومباهر..

وأوصاه أحد المجربين في سوق المعاملات أن ينـزل في مكان فخم حتى ينظر إليه بعين الاعتبار ولو وفر الغذاء والعشاء واكتفي بكوب ماء وفطور الفندق وكسرة خبز عند المساء.. لم يجد مكاناً شاغراً.. كامل العدد.

- هل حجزت؟
- البرقية لم تصل؟
- لا توجد جهة رسمية حجزت لك؟
- هل عندك توصية؟
- الموظف المسؤول غير موجود؟
- وقال "عبيد القنبوعي":
- أنا عندي مهمة.
- وما هي؟.. وما أكثر المهمات حين تعدها..
- أحمل أمانة لمعالي الوزير.. وعندي معه لقاء وموعد هام.
- اسمك غير موجود في قائمة المحجوز لهم.

وقال "عبيد القنبوعي" وهو يتظاهر بالنفخة والأبهة:

- يبدو أن سكرتيرتي أهملت في إرسال الإشارة..
- وتظاهر بأن عنده مكتباً وسكرتيرة وجهازاً إدارياً.. ثم أشار إلى الصندوق الذي وضعه برفق على مكتب الاستقبال وأشار إلى العبارة "أسم معالي الوزير".

- أنا أنام على الرصيف لا يهم، في الصالة والردهة إلى الصباح لا يهم.. فوق السطوح لو عندكم حجرة سطوح لا يهم.. حجرة الخادمات أو مخزن الأدوات والملاعق والشراشيف والأحذية لا يهم.. لكن هذه الأمانة ماذا أصنع بها، أين أضعها، كيف أتحمل مسؤوليتها؟!

بنبرة تهديد أو وعيد..

- وقد تعطب أو بها سر هام يريده معالي الوزير غداً.. هي من التوصيات ، جئت بها من قطر بعيد من آخر القارة.

وسكت حامل الصندوق هنيهة.. كأنه يريد أن يرى مردود وأثر التفاعل والتجاوب.

فما كان من حضرة المدير إلا أن هرع مفزعاً.. مرتبكاً وأفسح له المجال.. وسّجله في صمت، وحشره في قائمة النزلاء المحجوز لهم.. وقال وهو يمد يده مصافحاً وعنقه متأرجح:

- بلغ معالي الوزير إكراماً لمنزلته عندنا سجلناك هنا واحتراما له واحتراما لك ولعيونك..

وكان الموظف المسجل قانونياً شكلاً مرحباً من ناحية ومن ناحية أخرى من أعماقه يكره السلطان والحكومة وحتى ضيوف الحكومة من التنابلة والإمعات والنصابين والدجالين، ومن ناحية أخرى في نفسه أشياء فقد سجنت الحكومة أحد أقاربه وتفاعلات أحاسيسه قد تظهر في كلماته وتعليقاته أو في تصرفاته.

وعندما طلبوا منه تسجيل هذا الضيف الحكومي بادر بوضعه في حجرة ضيقة فوق السطوح ينز سقفها وترشح أرضها.. وتصطفق أضلاع شبابيكها، ويظهر أنها كانت مخزنا لفوارغ مبيد الحشرات.. أراد أن يضعه هو وصندوقه في هذه الحجرة.. بحجة سبقه السابقون إلى الحجرات الفخمة المكيفة والأجنحة المريحة. ولابد أن يتحمل، "أهي ليلة وفراقها صبح".

لكن حضرة حامل الصندوق ما شاهد هذه الحجرة حتى ثار.. وفار.. وتشاجر مع الموظف المسجل قائلاً:

- المدير أعطاني حجرة.. معقول تحشرني في عشة دجاج؟!.. معقول صندوق معالي الوزير في حجرة حقيرة فوق السطوح.. كانت منشر صابون، أو للعلب الفارغة وامدسة قديمة..

وردّ عليه كاتب السجل الذي كان يريد أن ينتقم من مثل هذه النماذج التي يتمنى أن يشفي غليله بصفعها على قفاها وركلها في مؤخرتها.

- أزمة سكن.. ثم سيادتكم لم تبرق لنا.. وعندنا زحمة ضيوف محترمين.. وضغط على كلمة محترمين كأنه يشير من طرف خفي إلى أنه دون مستوي الضيوف المحترمين.

- وهل هناك ضيوف غير محترمين.. ماذا تقصد؟!

- أقصد، رسمي.

- وأنا غير رسمي؟! عندي أمانة لمعالي الوزير.

هناك تمالك موظف السجل أعصابه.. وكاد يقول له كلمة بذيئة تتناوله هو والوزير وصندوقه.. لكن لمح أحد الموظفين الوصوليين.

الوصالين فزمّ.. وسكت.. ثم دمدم بمقطع أغنية ظاهرها الأغنية وباطنها الهمز والغمز لهذا المتصعلك المتسلق.. ولاحظ أحد النمامين المتنمنمين القافزين من اليسار إلى اليمن.. ومن اليمين إلى اليسار.. حتى تفحّجت رجلاه من كثرة القفز.

وقال أحد الموظفين من أصحاب الحس والإدراك لصاحبه:

- الإنسان مثل صندوق التفاح يبدأ جيدا، ورائحته طيبة.. ثم يعطب.. يعفن.

قال له صاحبه:

- اسكت يا صاحب اللسان المفلوت.. احذر لئلا يسمعك ويلتقط الكلام من غرسوا لك.

أجاب الشاب:

- غرسوا لنا صنَيتة. لماذا لا تغرس من يبث الوعي نغرس الكلمة، والإحساس، نغرس الجرأة.

وهنا تململ موظف قديم عجوز وضرب فصّا. وأصدر من شفتيه حركة ازدراء وسخرية وقال:

- يا بني خليك في شغلك أحسن.

ولكن النزيل قال ليدعم كلامه:

- صندوق التفاح.. الوزير ينتظر.. التفاح عطب.

ومرة أخرى لمح المدير صاحب الصندوق وهرع إليه عندما سمعه يقول نبرة ونغمة يشم منها التهديد.

- هل عندكم رقم معالي الوزير؟!

فما كان منه إلا أن أعطاه جناحا بحمام وردهة استقبال وإذاعة مرئية، وكان الجناح مطلا على البحر.. وكان النزلاء وشاغلو الغرف سواء الطارئون أو الدائمون من أصحاب المصالح التي لا يعرف الناس ما هي..

هؤلاء كان لكل منهم اسم ولقب وكنية وصفة عند موظفي الفندق والسعاة.. نعوت وصفات يطلقونها سخرية وهمسا.. هو أطلقوا عليه لأول وهلة لقب.. صندوق معالي الوزير.. ثم اختصروها لكثرة الاستعمال إلى كلمة - (صندوق)، فالنادل- الجرسون- يقول لصاحبه:

- فوطة.. لصندوق معالي الوزير.

- صابون لصندوق صاحب المعالي.

- نظفوا غرفة صندوق الوزير.

- ضموا أوساخ صاحب الوزير.

وفجأة وهو جالس منفوشا في الصالون منتظر التشريف بمقابلة معالي الوزير.. يذهب إليه في مكتبه في زيارة تمهيدية

ودية - وهل هناك مقابلة غير ودية إلا في ساحة الخصومات- إنه ينتظر تسليم الصندوق.

فجأة والأحوال الطقسية تتبدل بين حر وبرد وصقيع وزوابع وعدم استقرار، وهو يستمع لنشرة الطقس وأحوال الجو.

ولم يستمع ولا يحب أن يستمع لنشرات الأخبار، لمح من بعيد إشارة إليه.. ولم يعرها التفاتا، لكن أحد الجالسين من قرب.. كان يتهامس مع زميله ويشير إليه.

- ماذا به؟.. هل جلس معوجاً؟.. هل سرواله مفتوح؟.. هل سلح عليه عصفور؟.. هل هو مطارد؟.. هل أصبح شخصية مرموقة يشار إليه بالأصابع؟

وقال له الموظف كاتب السجلات في نبرة تحمل لوناً من الشماتة والانتقام:

- يا أستاذ (ولم يكن أستاذاً ولا شبه أستاذ، إنما هو لقب متداول.. مثل حاج.. ودكتور.. وسيدي.. وما أشبه من كلمات النداء المتداخلة).. هل سمعت النشرة؟!

- نعم سمعت الطقس غداً حار أرجو أن تهتموا بمكيف الحجرة.

وضحك الموظف قائلاً:

- لا.. بل هو طقس بارد.

- عجيب.. هل هناك نشرتان.. أنا سمعت نشرة الطقس.

- أقصد هل سمعت نشرة الأخبار؟

- لا.. أنا لا أسمع ولا أهتم بنشرات الأخبار.

- شخصية هامة مهمة مثلك يجب أن تهتم وتلاحق الأخبار.

- أنا لا أحب السياسة.. وأخبار الدول والأزمات الدولية، وجع دماغ.

- لكن هذا أمر يهمك، - وألقى الخبر القنبلة - معالي الوزير طار.. تعديل وزاري.. سقطت الوزارة.

وغطس الكاتب الشمتان في دفتره.. وهو يتظاهر بأنه يبحث عن بعض الأسماء.. وكأنه لم يلق بمتفجرة في وجه صاحب صندوق معالي الوزير! وارتبك ووقف مشدوهاً.. جامداً.. العرق ينزل منه.

ماذا يصنع.. الركن الذي يستند إليه.. انهار فجأة.. والإقامة ستكون بلا شك على حسابه.. والصندوق سيتعفّن لو طال به المكث.

وقال له المدير في أسلوب خال من أي ذوق.. عبارة جافة:

- حضرتك ستدفع الحساب الآن أم غداً؟

أجاب صاحب الصندوق:

- سيدي أنا أنتظر إشارة.. من هو الوزير الجديد؟

أجاب المدير في لقطة موجزة جافة:

- القائمة لم تنشر.

قال صاحب الصندوق- وهو يتشبث بخيط الأمل:

- من هو الوزير المرشح؟! أو الوزير المنتظر؟

- لا أحد يستطيع أن يتنبأ أو يتكهن بالأسماء.

وهنا تدخل شاب سليط اللسان، حاد الكلمات وقال موضحاً الأمر.. متدخلاً لتوضيح الطقس السياسي:

- يا أستاذ، دلاء تذهب.. ودلاء تأتي.. تكاد الآبار تنزح من هذه الدلاء..

وضحك الهامس الثالث وهو يقول:

- لكن الدلو يكون مربوطاً بخيط ظاهري.. وهذه دلاء خيوطها غير ظاهرة.. دلاء تذهب.. ودلاء تأتي.. وهناك دلاء مثقوبة.. ودلاء صدئة.. ودلاء دهكت من كثرة الاستعمال.. دلاء وخيوط لابد أنها خيوط سحرية.

ثم دندن بأغنية:

الليل عند اللي تهنّي ساعة ∴ ويطوال باللي كاثرات أوجاعه

اقترح أحد الخبثاء أن يجعل من الصندوق رأس مال بدل أن يقدمه لمعالي الوزير الطائر.. ينزل إلى سوق الفاكهة ويبيعه بالقطاعي.. سيكوّن منه رأس مال..

قرأ في تاريخ أحد العصاميين أن سبب ثروته صندوق صغير أظن أنه صندوق تفاح أو مشمش أو كرافس.

- بعضهم ثروته ونعمته من الأحذية والنعال

- بعضهم من الفوط.. والقفف.. حسب السوق

- لا بأس فلينس حكاية معالي الوزير الطائر

وقال الموظف حافظ الأمثال.. ولكل حادثة وحكايـة مثـل سائر.. وقول مأثور:

- طار الحمام.. صفقي يا وزة.

قال جاره وقد تربّى في المشرق:

- وز.. ياوز.

لكن لا يصح بعد أن كتب على الصـندوق اسـم معـالي الوزير ينزل به إلى الأسواق.. ولو قبض عليه أنـه بضـاعة مهربة أو شخص يشتغل بلا رخصة.. أو يعتبرونه سمساراً من الباطن أو مسافراً وسائحاً يشتغل، وممنـوع اشـتغال السـيّاح والزوار.

وبادر صاحب الصندوق بسؤال موظف كان يبـدو عليـه الصمت والاتزان:

- من هو في ظنك وتصورك أو حسب معلوماتك الـوزير الجديد؟

وانتفض الصامت المتقوقع قائلاً وهو يبلع ريقه اليابس:

- أنا لا أشتغل بالسياسية.. لا أعرف ولا أود أن أعـرف. وزاد فمه إطباقا.. وغطس.. أو فطس في أوراقـه، وصـاحب الصندوق أرّقه السؤال باحثاً عن جواب وسأل عامل الهـاتف..

لأنه لابد أن يتصنت لمكالمات الناس والتقاط ثرثرة المتحـــدثين من داخل الفندق وخارج الفندق:

- متى تعيين وتشكيل الوزارة الجديدة؟!

ورد عليه رداً غير منتظر:

- أنا لا أستمع للأخبار إلا أخبار الوفيات.

- لماذا؟ هل عندك فرقة لتشييع الموتى؟

- لا.. بل لأنها أصدق الأخبار وأوثق الأنباء، عزرائيـــل منجله لا يُخطئ.

- أعوذ بالله أنت ذوقك جنائزي.. وسوداوي كيف جعلوك في مكان به علاقات عامة؟!

وتوجه بالسؤال إلى مدير العلاقات لابد أنه بحكم منصـــبه على صلة بالكثير من الجهات:

- من تعتقد يكون الوزير الجديد في التشكيل الجديد؟

- سمعت أنها وزيرة.

- أحسن هذا يدل على التفتح والتقدم وقفزة حضارية، ومن هذه السعيدة المسعودة؟

- لا أعرف.. وهي مفاجأة كبرى، وماذا تريد بالاسم؟

وقال محدودب دائماً يفاجئ جلاسه بالأخبار الغريبة:

- لا وزير ولا نائبه.. أظن في التعديل الجديد ألغوا منصب هذه الوزارة بالمرة.. بتاتاً.. مبتوتة.

لا وزير ولا نائبه.. وقال في سره.. شامتا:

- نقّع صندوقك.. بلَه واشرب ميته..

وطفق محدودب الظهر يعلق ويتحدث ولا يكاد يظهر من مقعده وكأنه يتكلم من قعر جوفه..

- هل تعرف اسم الوزراء الجدد؟

- كلهم جدد إلا وزير المالية له صلة بالقصر، ولهذا تركوه لحاجتهم إلى خبرته في بعض الشؤون واطلاعه على كثير من الأسرار.. والصرائر والصرر.

جلس صاحب الصندوق في حجرته ينفث دخانه.. وينفث غيظه، هل يكتب اسم وزير المالية على الصندوق.. مادام هو الموجود، يشطب اسم الوزير السابق وأبقي على عبارة - إلى معالي الوزير - وهل يكتفي بذكر المنصب والوزارة.. أو لابد من الاسم؟

طبعاً الهدية في قيمتها بالاسم لئلا يُعتقد أنها صالحة لكل وزير.. الاسم له بريق ووقع في نفس الإنسان المُهدى إليه.

وقال مدير الصالة وهو ينصح صاحب الصندوق:

- درسنا في علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم العلاقات أن الإشارة إلى الاسم واللقب له وقع أكثر من الإشارة إلى المركز و اللقب العام.. أنت تهدي الصندوق لشخصية محددة.. أم مجرد المنصب.. التأثير والتأثر ثم التجاوب للاسم.. الفاعلية

للاسم.. هذه أمور معروفة في المعـــاملات.. هـــل المقصـــود شخصية اعتبارية أم شخص بعينه؟

وجاع حامل الصندوق آخر الليل لأن العشاء قُدم له بـــاردا بائتا وبطريقة فقدت العناية والاهتمام..

وظل ساعة في الحجرة مشغولاً مرتبكاً في عمليـــة ربـــط الخيوط.. فقد ارتبك في إعادة وترتيب الخيوط الحريرية بعد أن شطب اسم الوزير.. وانقطع خيط من متشعبات الخيوط وحاول فك بعض العقد الملتوية واستعان بأظفاره وأسنانه.. حتى كادت تطير سن من أسنانه المتخلخلة ودميت أظفاره.. وأخيـــرا لعـــن الظروف التي أتعبته بهذا الصندوق الهدية.. وهـــو فـــي فنـــدق المفروض فيه أنه ممتاز ومن خمسة نجوم كمـــا هـــو ترتيـــب الفنادق العالمية.. ولا بأس أن يستعين بحضرة المســـؤول عـــن الجناح.

- ألو.. أريد خيطاً بسرعة.

- خيط أزرار. هل طارت منك أزرار..؟ أزرار قميص.. أم أزرار سروال؟

وكاد يقول طار وزير.. أو طاح زير من الأزيـــار ولكـــن سكت.. يخشى أن يكون الحديث عبر الأسلاك مسجلا أو مقيـــدا رغم تفاهة الأحاديث وثرثرة العجائز والصبيان.. وسكت

- أريد خيطاً للربط.

- تربط حذاء؟!

- بل أريد أن تسعفني بخيط طوله قامة أو نصف متر على الأقل..

وهنا خشي مسؤول الجناح أن يكون النزيل على حافة اليأس ومُقدماً على الانتحار.. فقد سبق أن انتحر أحد النزلاء عندما قدموا له حبلاً، ولم يسألوا عندما طلبه ماذا يصنع به..

فهل تتكرر المأساة والكارثة فيقع في مسألة وجرجرة التحقيق.. ثم سمعة الفندق إذا انتشرت الشائعات قد يتطير الزبائن.. ويطيرون منه وينفرون:

- اعمل معروفاً لا تقدم عليها (ما تعملهاش)

- ما هي؟!

- حكاية الحبل الذي طلبته.. الدنيا حلوة يا أخي.. لماذا تتشاءم؟!

- إيه.. ماذا تقصد؟!

- حكاية الحبل الذي تريده لماذا؟!.. اتّق الله لا تجرنا إلى مشاكل..

- يا أخي افهمني أنا أطلب ربط الصندوق بخيط حرير مناسب.

- إيه.. تقصد صندوق معالي الوزير.. يا أخي قل من الأول ريحنا.. الله يريحك.

• وهرع إليه أحد المطلعين علي الأسرار في زعمه:

- سمعت أن الوزير صاحبك في التعديل الجديد نقل إلى وزارة الأشغال، معناها بقي في السلك الوزاري على حد تعبيرهم.. حفظوا له ماء وجهه.. وإن كان وجهه صفيقاً لا ماء ولا حتى عرق.

• وهنا وطلب صاحب الصندوق حبراً داكناً.. وكتب بحبر وخط غليظ يقرؤه حتى الأعمش والأكوز.

- إلى معالي وزير الأشغال مع كامل الاحترام..

* * *

• على مائدة الطعام عند العشاء في المطعم جاء أحد المطلعين من الصحفيين وقال وهو يتحدث معه:

- الوزارة التي كان يشغلها الوزير ألغوها، صحيح، ولكن إشاعة كاذبة أنهم وضعوه في الأشغال.. لكن من المؤكد أنه سيعين سفيراً.

قال متسائلاً بلهفة صاحب الصندوق:

- أي بلد سيسافر إليه.. حقيقة أنه مركز يستحقه، هو دبلوماسي من بطن أمه..

- ليس المهم نوع البلد والجهة، قد لا نعرف لغتها وتاريخها ووضعها.. المهم إن النظام لا يفرط فيه مادام قد استخدمه، المهم

عند هؤلاء، الراتب مضمون ورد الاعتبار المعنوي مضمون، لن يكون في الشارع ولا متسكعا على الرصيف أو مجرد ثرثار في المقهى أو الخمارة أو السهرية.

لن يكون عرضة للمؤاخذة أو التحقيق والتوبيخ كما تدور الشائعات في الأوساط المتشفية والمتربصة بأمثال هؤلاء.

- إيه.. تحقيق.. متابعة.. ملاحقة كل هذه النماذج والفصائل عرضة للتدلّي.. عرضة للظهور.. عرضة للذبول والضمور.

ايه قالت جدتي في سردها للأمثال:

- نلحس مسني ونرقد متهني

- ليس على لسان جدتك بل على لسان فأر.. يا فيران المسنات

• وسأل صاحب الصندوق الشاب الصحفي الذى طرح هذه الشائعة.. قلت إن معاليه سيعين سفيرا.. الله يبشرك بالخير والله أنت وجهك وجه أخبار طيبة، على وجوهها تشرب لبنها.

وقال أحد الخبثاء المتصنتين:

- ده كان زمان تشرب على وجوهها اللبن أما في زمن التطور تشرب على وجوهها الويسكي ومن أرقى الأنواع.. جوني ووكر فما أغلي

- إيه يا خبير الخمارات غدوت حكيماً.

• وهزّ صاحب الصندوق رأسه وهو يحاول ابتلاع قطعة لحم عسرت على المضغ والهضم.

- سفير أي دولة (طمني الله يطمنك..) إن شاء الله من الدول المتحضرة المحترمة.. لا من الدول الكحيانة المفلسة الغلبانة.

- أظن، سفير، بلا سفارة.. رتبة شرف.. قاعد في بيته.

- سفير متجول.

- لا.. بل سفير مركون.. يحضر حفلات فقط ويرسل برقيات التأييد والتبريك في المناسبات.

- سفير مركون.

- يحمد الله.. ويبوس يده ظهراً وبطناً.. جاءته خفيفة.. مركون في بيته براتب ويدعى للحفلات الرسمية مرة في العام أو مرتين.. أحسن من مركون في دار خالته.

- من هي خالته.. هل لها مركز ومحترمة؟

- دار خالته يعني الحبس، الله لا يوريك دار الخالة.

- تعني سفير تحت الطلب.

- حلوة عبارة تحت الطلب.. كلنا تحت الطلب.

- بل من المؤكد عُين صاحبك مستشاراً.. نموذج وصولي لا يستغني عنه لأن لخبطاته كثيرة.. ولو قاضوه سيفضح الكثير.. ويجرجر الكثير.. لهذا من الأفضل في مقاييسهم الإبقاء

عليه ولو صورياً وشكلياً.. جعلوه في البرزخ السياسي.. لا هو ظاهر لا هو غاطس.. وفوجئ أو انزعج صاحب صندوق التفاح عندما صارحه المتحدث قائلاً:

- راحت على صاحبك كلمته غير مسموعة..

وبادر صاحب الصندوق بشطب الاسم وكتب صاحب المعالي المستشار السفير.. وأعاد كتابة اسمه بخط واضح وأصبحت الشطبات والمحو والإضافة.. والتعريجات والمستطيلات مثل الخط الصيني والياباني والهيروغليفي..

وفي صباح يوم آخر وصاحب الصندوق على مائدة الإفطار في الفندق يتجرع القهوة.. ومقدّم الخدمات يرمقه وكان يحمل خبراً لأنه طلب منهم أن يوافوه بأخبار التعديلات والهزات.. وحتى الشائعات والاحتمالات.. من ذهب.. ومن سيبقي.. ومن سيذهب ويطير.

- هل قرأت جريدة اليوم؟

- لم أقرأ.. هل هناك جديد؟

- كل يوم عندنا جديد.. أعضاء الوزارة السابقة يقدمون للمحاكمة والتطهير.

وارتجت أعصاب "عبيد القنبوعي" صاحب الصندوق وتقدم أحدهم.. وكأنه يهمس ناصحاً:

- حضرة الوزير الذي كتبت اسمه على الصندوق مرشح.

وفرح عبيد القنبوعي بكلمة مرشح وقال:

- بارك الله فيك.. مرشح.. لماذا؟ رئاسة الوزارة.. إنه كُفء.

- لا.. بل مرشح أيضاً للمحاكمة.

والتفت "عبيد القنبوعي" وهو يتأخر خطوتين فقد انزعج لهذا الخبر الصباحي المفاجئ.

ولاك إفطاره بسرعة.. وهرع إلى الحجرة باحثا عن قلم الخطاط الذي لوث أطراف أصابعه، ولطخت قميصه بقعات شوهته.. لم يعد في أناقته

وشطب الاسم والعنوان.. لأن مجرد ذكر الاسم على الصندوق يثبت أن له صلة به.. وإذا أدركت جهة التحري هذا ربما جرّوه شاهداً، وأتوا به دليلا متحركاً مادياً على صلته بالتهريب، والتنهيب، والارتشاء وخيط يجر إلى خيط.. وكبّه وكمكمة الخيوط كبيرة.. وقال لصاحبه وهو يخمن كل الاحتمالات:

- معاذ الله، وحاشا لله أن يكون لي بهؤلاء المشبوهين صلة.. وأنا رجل غريب.. زائر.. أعتبر ضيفاً.. ومسافر مار..

هذا الصندوق في الحقيقة ليس لي.. إنما أنا فاعل خير.. حامل أنة.. عامل جميلاً.. طلب مني أن أوصله إلى معالي الوزير السابق الله يلعن الكل..

قال له محدثه:

- صحيح كما قال المثل (الطمع وقطع الرقبة متحاذيين).. أنصحك.. اختف أياما حتى تنفش هذه الأزمة.. خير لك أن تتواري.. هم سيطهرون.. وقد يطهرونك

ورغم ارتعابه ضحك من العبارة وقال:

- يطهرونني أنا.. هل يطهرون الكبار؟

- أنصحك هذه الفترة لا تكلم أحداً.. لا تنزل من الغرفة ولا تذهب إلى السوق.. ولا تدخل مقهى ولا ملهى.. ولا تتبول في مبولة عامة.. ولا تذكر صاحبك معالي الوزير، لأن القضية كبيرة، وقد تتهم وتجرك الخيوط.. والصندوق غمّة.. غطيه.. داريه.. حطّه في الكناسة.

- يفسد..

- يفسد الصندوق خير من أن يفسد مستقبلك، قد توضع في القائمة السوداء، وتمنع من دخول البلد.

• قرقرت بطن "عبيد القنبوعي" وهو يسمع هذه الاقتراحات وسرد الاحتمالات التي ما عاد يتحملها.

وأخذ يفكر ما الذي أدخله هذا المأزق.. إنه الصندوق الهدية.. وقال:

- أنا رجل مسالم في حالي مستقيم لا أعرف إلا البيت والخمارة والعمل..

- لكن الصندوق صوروه.. أخذوا له صورة وأنت بجانبه

- كيف، هل هو إعلان عن تجارة؟ عن بضاعة؟!

لا.. بل إعلان سياسي!

- وأنا زائر.. ضيف.. ما دخلي في السياسة!

- عندما كنت حضرتك في الفندق، وتتحدث عن معالي الوزير بصوت عال التقط خصوم الوزير هذا.. وخصوم الوزارة واعتبروها دليلاً مادياً على فساد الوزارة السابقة.

وقام "عبيد القنبوعي" مسرعاً بشطب الاسم بحبر داكن لكن أبقى عبارة- إلى معالي الوزير.. تحسباً لمن سيأتي.

* * *

وجاءه مدير الفندق راجياً منه أن ينتقل إلى حجرة في "البدروم" أو فوق السطوح، لأن هناك حفلاً سيقام.

- ما هي المناسبة، الإطاحة بالوزارة السابقة.

- وشاهد وزيرا في الصورة قال:

- هذا صاحب الصندوق؟

أجاب:

- كيف؟!

- قلنا لك إن صاحبك الوزير أطيح به والهدية كما تعلم للمنصب والمركز لا للاسم. أي للشخصية الاعتبارية كما

قال علماء القانون، وأهل الفتاوى، وأصحاب الشأن والشنشانات.

- وما صلتك بهذه الوزارة ، هي للفنون والبتروكيماويات وزارتان مدموجتان.

- قلت لك لابد أن أسلم الهدية الصندوق للوزارة الوزير السابق أو اللاحق الماحق لايهم.

- اسمع أنت ابن حلال ورجل طيب وأمس فطرنا مع بعض في الفندق على منضدة واحدة وأكلنا عيشاً وملحا أو خبزا وزبدة وأحب أن أنصحك قبل أن تكبر الحكاية.. تعال أقول لك في أذنك بيني وبينك، لأن هذا الموظف المتربص بنا بأذنه وعينه هو منشار كبير.

- كيف؟!.. عندكم مصنع نجارة؟!

- لا.. بل مصنع شائعات ونكايات.. وصندوقك أصبح مصدرا خطرا.. وأنت ماشي في حقل من الألغام أو تطفح على تبن من تحت ميّه..

يا أخي. أربكتني.. حيرتني.. كم يدوخ الواحد عندكم في الفندق.. رخام وزليز.. وأنت تقول ألغام.. وتبن تحته ميّه

- أنت أين قرأت؟

- في الجامعة.

- في الجامعة أو الجامع ولا تعرف راسك من رجليك وصندوق التفاح يهزّك.. أنا أنصحك تغادر البلاد في 24 ساعة

- لماذا؟

وما خرجت كلمة لماذا؟ إلاّ بعد جهد جهيد، فقد زاغت عينه ويبس ريقه.

- الصندوق اشتبهوا أن فيه مواداً مشبوهة.

واصطكت ركبتا "عبيد القنبوعي" قد تكون يد خبيثة امتدت إلى الصندوق الهدية شكّوا أن فيه ممنوعات أو مهربات.

- من قال هذا؟

- تقرير رسمي من جهات الاختصاص، لاحظوا اهتمامك بهذا الصندوق، وشدة حرصك عليه، جاء في تقرير سري أنك تنام وهو عند رأسك.. وذات مرة طلبت خيطاً لربطه، وذات مرة طلبت لصقة للصقه، وذات مرة أبدلت الخط عليه..

كل هذا لاحظوه.. هل تعتقد أن الحكومة تنعس.. أو عيونها عمشاء.. وذات مرة كشّيت على الخادمة ونهرتها عندما نظفت الحجرة أزاحته من مكانه، وحذرتها من العبث به أو الاقتراب منه، وجاء في تقرير رسمي من العيون المتابعة أنك استعملت ثلاثة ألوان من الحبر وشطبت وأبدلت الاسم الذي عليه أكثر من مرة.. وفي تقرير آخر أنك كتبت عليه رموزاً هي شفرة غير معروفة بالحبر الأسود.. ثم الداكن ثم الأزرق وشرطة ونقطة..

وكلمة معالي الوزير عليها خط وتحتها شرطة مستطيلة.. وصوروا كل هذا وأدخلوه معمل التحليل.

- أي تحليل وتحريم؟

- تحليل أي دراسة.

- التحليل السياسي.

- كيف هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟!

- وعند هؤلاء في الأجهزة الكثيرة.. ماذا تصنع وبأي شيء تشغل هذه الطوابير؟ لابد أن تشتغل وتصرف كل طاقاتها وتثبت وجودها وبراعتها.

- لم أفهم!

- هل لابد أن تفهم.. أريحَ لك ألا تفهم.. إن لم تفهم أنت فهم يفهمون.

- ماذا يفهمون؟!

- شغلهم عملهم.. لقد دخل الصندوق في المختبر.

- أي مختبر؟!

- قلنا التحليل، ومعرفة الخيوط التي وراء هذه - الحكاية صندوق تفاح.. هدية التفاح، قد يكون دليلا على صلتك بالوزير السابق الذي هو رهن الإقامة الجبرية بعد أن كان يصول ويجول، وثبت أن له رصيداً في مصارف أوروبا وعملات مشبوهة.

- وما لي أنا.. وما صلتي به؟
- هل تعرفه.. ولماذا تريد أن تقدم له صندوق التفاح هدية
- أبدا لا أعرفه الملعون لم أره في حياتي.
- ملعون إنما سمعت به.
- من هو؟
- الوزير
- هل هو طلب صندوق التفاح أو أنـــت الـــذي تبرعـــت وبادرت؟
- قلت لك أنا حامل أمانة.
- أنصحك أن تنشر ما في الصندوق وتعرضه للهواء لأنه سيتعفّن.

قال:

- لكن ليس لي الحق في التصرف بالأمانة والهدية.

* * *

ومرت أيام الأسبوع وبدأ يصرف.. عبيد القنبـــوعي، مـــن الاحتياطي ثم رهن ساعته الذهبية عند مدير الفندق الذي أخـــذ يساومه عليها، إنها ليست كلها من الذهب، وحاول أن ينقص من قيمتها.

- بل هي ذهب صاف مستورد من "هونج كونج".

- هناك فئات من اللصوص لابد أنهم غشوك.

- يغشون دولا وحكومات فما بالك بأفراد.

- اسمع يمكن أن أحوّل فاتورة حسابك إلى حساب الوزارة السابقة.

- لكن هذا قد يضعك في مأزق حرج ويضاف إلى معاملات الاستغلال وتبديد أموال الدولة.

- وكيف أسدد الحساب والساعة الذهبية لا تكفى؟

واقترح أحدهم باعثا روح الأمل في "عبيد القنبوعى"

- تنتظر قليلا.. قد يعين الوزير الذي يقبل هدية صندوق التفاح وتفض مشكلتك وأزمتك.

- لكن هذا بعد أداء اليمين.

- ومتى تؤدي الوزارة اليمين القانونية؟

وجاء فى الصباح من قال له:

- بشرى لك.. مفاجأة طيبة.. والتاريخ سلسلة من المفاجآت.. اليوم كنت أدندن قصيدة:

اشتدّى أزمة تنفرجى.. اليوم شاهدت وجها صبوحا.. وطلعة مليحة..

- ما هي البشرى.. بشرك الله بالخير؟

- صاحبك الذي تريد أن تقدم له صندوق التفاح هدية عين سفيرا.

وبادر ليكتب عبارة الإهداء والتبريك وسأل:

- أين عُيّن.. أين جاءت تطويحته؟!

- في الصين أو اليابان وأحمد الله على الفرصة الطيبة من وزير سيحاكم ويبهدل إلى سفير مرتاح يشمّ هواء ويلاعب فتيات الجيشا.. كان صندوق الهدية يجرك إلى (س.ج)..

ولكن جاء أحدهم قائلا:

- عفوا.. هناك التباس.. والمذيع غلط، والجريدة فيها خطأ في التقديمَ والتأخير للأسماء.. هناك تشابه في الأسماء هو.. ad لا Da.. زحلقة إذا ليس صاحبك الذي عُيّن بل غيره.

- من الوزير القادم؟

- من المؤكد وزير الكباري والجسور الوحيد الثابت في المركز، لأنه صهر معالي المستشار الكبير والمصاهرة تلعب دورا..

وبادر عبيد القنبوعى وكتب على الصندوق الهدية إلى معالي الطرق والجسور والكباري.. ونسى كلمة وزير

ونبّهه الشاب وهو يضحك، ثم كتب الاسم عبد الثابت المتجول عبد المطيع.

وقال له:

- أخطأت زدت نقطة – ليس "متجول" بل "متحول"

ويبدو أنه فضل أن يقدمه إلى منصب ثابت بدل هؤلاء المتحولين.. الزئبقيين.. المترجرجين.. وكتب

"**إلى حضرة مدير العلاقات العامة**"

وظن موظف الفندق وهو يمسح بعينه أن الصندوق مرسل إليه، وبادر بحمله وقدمه إلى مدير العلاقات العامة بمؤسسة الفنادق.. ولم يلحظ أن المقصود مدير العاقلات العامة بالوزارة.. ومنه إلى حضرة الوزير.. وحدثت ربكة وفتح الصندوق، بل وتطاولت عينه ويده وقضم واحدة من الصندوق ثم أعاد الصندوق مع الاعتذار.. وكتب في جانب منه؛ "حاول أن يكون بخط مقروء" مع الاعتذار.. فتح خطأ، وأحمّر وجهه خجلا وارتباكا، وأطلق عليه المشنعون المتربصون سموه فيما بينهم.. فتح خطأً.

- وأخذ "عبيد القنبوعى" يتململ من طول إقامته في الفندق وسأل:

- أين مدير العلاقات؟

وقد وقع عليه اختياره لتقديم الصندوق له.. بعد أن ضرب أخماسا في أسداس.

قالوا له:

- إنه في مهمة

وسأل في لهفة وتوجس:

- متى يعود؟!

كل من يذهب في مهمة قد يطول سفره

- لكن التفاح يعطب.

- أبدله بتفاح جديد.

- هو من نوع ممتاز جيد لا يوجد هنا.. الأحسن أن تكون الهدية من نوع لا يعطب..

- الجيد الممتاز لا يصيبه العطب.

وشعر أن الصندوق يترجرج..

- هل التفاح كشّ وتداخل والصندوق به فجوات؟

-لا.. بل قضم الخادم اللعين قضمات.

يا لها من فضيحة يقدم صندوقا ناقصا به تفاح مقضوم.. واقترح عليه أحدهم:

- اكتب عليه "ممنوع اللمس والاقتراب".

- هذا أدعى إلى حب الاستطلاع والتخوف واللمس والاقتراب.. الأحسن أن تأتى بصندوق تفاح جديد.. رائحة هذا وبنّته تكاد تذهب وتتبدل وتدوخ ولا يقضم ولا يهضم.

- يعنى أن أسافر لكن لن يسمح لي بتأشيرة دخول إلا بصعوبة.

- لكن التفاح ذهبت رائحته.

- ذهبت أم لم تذهب.. المهم أن تقدم له صندوقا ويتسلم الهدية منى.. المهم ربط العلاقات ورمز المودة والصداقة.

* * *

وجاء من يقترح عليه:

- الأحسن أن تقدمه للوزير الجديد.. ونحن على معرفة به.

- من هو؟!

- عبد النافع عبد المطيع.

وكتب على الصندوق الهدية بعد شطب الاسم السابق:

"**الأستاذ الفاضل عبد النافع عبد المطيع**"

وسأل عنه وقالوا إنه دكتور دولة.. وكتب إلى الدكتور عبد المطيع عبد النافع وغلط في رسم الاسم.. وقالوا له: إنه حساس من ناحية تصحيح الاسم، وقد يرفع عليك قضية أو يهمل الصندوق إن لم تذكر اسمه كاملا مكملا مصحوبا باللقب، قد يدرج اسمك فى القائمة السوداء من الممنوعين من التعامل معه وأنت صاحب مصالح ولا تتعامل مع هؤلاء لسواد عيونهم.

- أهو جاء يكحلها عماها ببركة هذا الصندوق

* * *

ورآه صاحب المقهى مهموما مغموما فقال له:

يا أستاذ أنت عندك حظ فأنا أعرف معالي الوزير الجديد.. صاحبي راس براس.

- هل رضعتم مع بعض؟!

- لا.. بل راس براس في شؤون الحياة لما كنا كبارا كنا نتبادل الكراسي.. وحمد الله على أن الأزمة حلت والمشكلة ستنتهي.

- وفرجت الأزمة وقال له:

- هل كنت تدرس معه.. تتبادلان الكراسي.

- لا.. لم أكمل الدراسة والحمد لله..

- ولماذا الحمد لله

- لأن الذين أتموا الدراسة وألهاهم العلم أكثر تعباً في الحياة ومشاغل السوق.

- إذاً كنتما تتبادلان الكراسي في لعبة استغماية الكراسي

- لا.. يظهر يا أستاذ أنك غريب عن البلاد.. وطيب مغفل..

قال:

- صدقت الكل والأخيرة أكثر.. وفوق كل ذي علم عليم.

قال:

- نحن يا أستاذ عائلة واحدة.

- لا.. ليس بالمعني الحرفي.. لكن بـــالمعني العمـــومي.. يعني معارف وأصحاب ونتلاقى في خط واحد.

- أي خط

- خط الاتوبوس.

- كيف؟!

- مثلا.. نتبادل الكراسي.. كنا نحلق عند حـــلاق واحـــد.. أحيانا أسبقه.. والموسى نازل على قفاي وهـــو ينتظـــر دوره.. وأحيانا يسبقني فانتظر دوري والموسى نازل على قفاه وزادت معرفتنا.. وعرفت نوع الدخان الذي يدخنه، ونوع المشـــروبات التي يتعاطاها.. وإن كان مشروبه خفيفا وسرا.. ولا يتدعـــدع.. وطريقة قص شعري وشعره واحدة.. نحن مـــن مـــنهج واحـــد وذوق واحد.

- إذا أستطيع أن أعتمد عليك في توصيل الصـــندوق إليـــه وتريحني من عنائه؟

- طبعا.. لا يليق أن يقدم الصندوق "حاف".

- ما معني حاف؟

- حاف.

عبد الواصل عبد المطيع من عائلة كبيرة وهو شبعان، وكل شبعان لهفان!

- وهل الوزراء الآخرون جوعي؟!

- أنا أتحدث عن ذوقه وهو يحب الذهب والجواهر والبساط العجمي.. وأحسن أغنية عنده الذهب يزداد حسنا.. إذا انتقش.. أيها الواشي

ومال إليه وهمس في أذنه:

- وسهرات خاصة.

- سهرات هنا؟!.. أنا يا رجل لي شهر كأني معتكف لم أر سهران إلا عساس الفندق.. أو من عليه الدورية الليلية.

- يمكن أن تهيئ له سهرة في أوروبا.

- يا سيدي مستعد أن أهيئ له ليلة حمراء، ليس ولابد أن تكون حمراء.. ولو صفراء.

- المهم كيف نتخلص من هذا الصندوق الهدية؟

- اعمل كيف بعض الدول الشبعانة والتي عندها فائض وأمريكا بالذات.

- كيف ندخل في مضايقات سياسية.. وأنا رجل عمري ما دخلت في هذه المآزق؟

- بل في عمليات التخلص من الفائض في المزروعات والفاكهة ترميه في البحر.

- بعد كل هذا العناء أرمي صندوق الهدية في البحر؟!

- على كل حال دع الأمر لي أنا.. بعد أن تسدد فاتورة الحساب والمتراكم من الأيام.

وبسرعة أخذ يجمع معلومات عن الوزير الجديد.. وقالوا له:

- ارجع من فضلك إلى وكالة الأنباء وقسم المعلومات والملفات.

- لماذا؟

- لأن عندها تاريخا ومعلومات عن الذي يهمك أمره.. أعتقد انه لم يبث في أمره إلى الآن.

* * *

ولكن فوجيء بمن يستدعي "عبيد القنبوعي" صاحب صندوق التفاح إلى مركز الاستنطاق!.

- اسمك.. عملك.. اختصاصك؟.. ولماذا تسأل عن الوزير الجديد، وتأخذ معلومات عنه وتتحرى بشكل مثير هل أنت كاتب؟

- لا..

- صحفي تعمل تحقيقاً؟

- لا.. أنا لا أقرأ ولا أكتب منذ أن عملت بالأعمال الحرة

- إذاً.. ما وراء هذه الأسئلة والتحريات؟

- من أجل أن أقدم له هدية.

- تقصد رشوة يا ملعون.

لا.. ليست رشوة.. وتلاحظ حروف الهدية غير حروف الرشوة..

- بل هي من واد متقارب.. إما أن تكون رشوة.. أو صدقة إن كان محتاجاً هي صدقة.. وإن كان مسؤولا ومنتفشاً.. منتعشاً مريشاً فهي رشوة.

- بل هدية.. ألا تعرفوا معني هدية.. أنا أحمل همها منذ مدة وكان حظي أن حدثت أزمة.. وتبدلت الكراسي واختلطت الحقائب، وأنا أريد أن أتخلص منها في عرضك وطولك.. هل تدلني على طريقة للتخلص منها، ولك من الله الأجر والثواب.. ومني الدعاء.

ونظر إلى الصندوق الهدية لو لم تتأخر شركة الطيران عن موعدها لكانت الهدية وصلت إلى الوزير في أوانها قبل التعديل الوزاري بيوم وليلة.. لقد كان معالي الوزير ينتظر صندوق التفاح. كان يمكن رفع قضية على شركة الطيران للتأخير المسبب بضياع مصالحك وارباك برنامجك.

- هل صندوق التفاح يصبر؟.. وكم صبره؟.. أخشى أن يتعفن.

- تسأل الخبير الزراعي.. عندنا خبير زراعي من السويد استدعته وزارة الزراعة للعناية بالزراعة والاهتمام بنبات لا ينبت في بلادهم.

- هل عندهم تفاح؟!

- لكنه درس الزراعة وهو خبير جيد له ثلاثة أشهر في الفندق ولم يستلم عمله.. على الأقل نستفيد من معلوماته وخبرته ونعرض عليه صندوقك العزيز.. أم نضع الصندوق في ثلاجة الفندق؟

- ما رأيك تبيعه للمطعم.. الزبائن مشتاقون للتفاح؟

- إنه هدية لمعالي الوزير.

- أنت عنيد.

- بل ثابت على المبدأ.. علمونا الثبات على المبدأ والرأي.. والأمانة أمانة.

- كم له؟

- أكثر من أسبوعين.

- ياه.. أنت رجل متخلف.. نحن نأخذ الفاكهة من أوروبا طازة.. أنصحك تضعه في سلة المهملات.

- هل معقول.. إهانة ما بعدها إهانة.. لو ذكرت لهم إنه في الأصل هدية لمعالي الوزير الذي طار وغدا في سلة المهملات لشنّعوا عليّ وطيروني من البلد.

- ضعه في القمامة.

- هذه نعمة.

- لا عجب هنا يضعون الخبزة في القمامة.. أرغفة كاملة فهل التفاح أكرم من الخبزة؟

- وبعض من الناس لا يجد الخبز.

- إنه لوزير له قيمته وأهميته.

- كل وزير يدعي أنه له قيمة وأهمية.. وإذا عزل أو غضب عليه يكتبون ويقولون لا قيمة له يصبح لا وزن له إلا في "الاسنسير" المصعد.

* * *

وذهب إلى صاحبه الذي حدثه عن الوزير الجديد والمسؤول الذي له وزن:

- ألم تقل إنه كان معك في كرسي الحلاقة؟!

- إيه.. زلفوت "لبس كتان ونسي ما كان" الآن رفض حتى أن يقابلني.. فهل من المعقول أن يقابلك أنت من أجل صندوق تفاح؟

- ماذا أصنع؟

- ضعه في الثلاجة وأمرك لله.. إيه لكن الثلاجة عطبت ومن يصلحها موجود خارج البلد.

- هل أرسله إلى منزله أحسن طريقة بدل الدوخان والحيرة.

- لا نعرف عنوانه؟

- وزير وعنوانه غير معروف؟!

عادة بعد أن يُعين الشخص وزيرا.. يتغير.. ويغير رقم الهاتف والعنوان.. والأثاث ومكان السهرية، وحتى المرور في الشارع.. وتظل تشاهد طلعته على الشاشة في المناسبات أو صورته في الجرائد وهو يقابل شخصيات.. أو يمضي مشاريع على الورق أو يفرقع تصريحات..

- على فكرة.. عندي فكرة.. عندي قريب يسكن قرب قريبه نعطيه الصندوق يرسله إليه.. ونتخلص من هذه المسؤولية المرهقة الخطيرة.

- لكن الهدية أوقع عندما تقدم باليد.. ومعها هزة يد وابتسامة.. وانحناءة مثل علامة الاستفهام أو تحية اليابانيين.. أما عن طريق رسول أو مندوب أو خادم.. أو بريد.. فلا أعتقد أن لها ذلك الوقع النفسي.

* * *

- وتطوع أحدهم بالنصيحة والتوجيه:

- أرسل الصندوق هدية إلى المدير.

- من وزير إلى مدير.. هي لوزير مسؤول

- الموضوع مصالح أم أشخاص؟.. المدير عادة هو الفعال المؤثر أما الوزير في الأغلب فهو طاقية.

- طاقية.. بل طرطور.

- وكان أحدهم يسميه فوطة، وتطور إلى كلينكس يسمح به سد حاجة سريعة.. ويسمونه "خط ولوح".

- والمدير.

- هو عادة المتحكم الثابت، كل وزير يلبسه المدير ويطير الوزير ويبقى المدير.

- إذا وعلى رأيك الأولى بالهدية والاهتمام حضرة المدير لا الوزير.

- الحقيقة إن أردت بل أصغر من المدير يمكن أن يؤثر السكرتير مثلا.. بل أحيانا عامل الهاتف.. أو موظف بسيط مطلع على الأسرار الخاصة.. وفتح فمه دهشا:

- ماذا نقول في هذا التدرج الدوني والهبوط من وزير إلى مدير إلى عامل الهاتف؟!

- هؤلاء الذين لا يملأون عينك هم صناديق أسرار الحكومة، أو أزرار ومفاتيح الدولة.

- كيف هذه معلومات جديدة.. غريبة؟!

- بل قديمة لو كنت تتعرف على الخبايا والزوايا وتزيح الطراطير والطواقي.. هذا الذي لا يملأ عينك كل المكالمات بين

يديه مصبوبة في أذنه حتى الأسرار البيتية والزوجية.. وله صلات عميقة.

- هل أهدي صندوق التفاح لواحد من هؤلاء؟

- لا بأس سيقول لك مثلا.. ما هو مزاج المسؤول؟.. ما هو نوع طعامه؟.. ما هي حياته الداخلية؟.. يمكن عن طريق هؤلاء أن تدرس نفسيات من يتحكمون في البلد..

هل هو انفعالي.. عاقل.. مادي.. هوائي.. متدين.. تافه.. صعلوك.. هامشي.. متزمت.. واصل.. مغضوب عليه.. مقرب؟.. هل له صلة بالمصادر العليا هل يخشى إلهه وعنده ضمير أم هو مجرد باب على الكلاب؟.. هل ينام مبكرا.. أم يصحو مبكرا؟.. بخيل أم بحبوح..

- مالك ومال الوزراء الطائرين شد في الثابت المتمكن الأمكن، ولو من أصحاب الوظائف التي تراها صغيرة.

- إن بعض المؤسسات والشركات بل وبعض الحكومات تصنع هذا..

- لا بأس.. نرضي الطرفين.. ونطرق البابين.. ونضرب عصفورين بحجر أو بصندوق.

- تقصد نصف الصندوق للوزير.. ونصف لعامل الهاتف أو الموظف الصغير.. بهذا ربطنا العلاقات وشحمنا الخيط.. أليس كذلك.. أيها المجرب الخبير والمطلع الحصيف؟!.

- يجوز.. لكن دعني أفكر.. حتى أعرف من الذي يكـون جديرا بالصندوق الهديـة.. أو مناصـفة الصـندوق لأن هـذه الشرائح أيضا اتجاهات وأنواع.

* * *

لكن في اليوم التالي هرع إليه ليتلاقى الأمـر.. وحمـد لله على أنه لم يرسله.. فإن ذلك قبض عليه في جريمة إدارية متهما ومتلبسا بالرشوة والاختلاس وعقد الصفقات المشبوهة.

- هل كل إنسان مرتش ومختلس يقبض عليه؟!

- حسب الظروف والملابسـات والحظـوظ.. والحظـوة أنصحك ألا ترسل صندوق الهدية.

وشطب "عبيد القنبوعي" الاسم من الصندوق.

* * *

وطلب من المدير العام المقابلة في مكتبه

- لماذا؟!

- موضوع خاص.. ولكنه عام.. أمانة.

- هناك استمارة عند المدخل عبئها.

وبدأ في تعبئة الاستمارة.. الاسم.. والعنـوان.. والمهنـة. والموضوع.. الغرض من المقابلة

وقبل أن يسلم الاستمارة جاء صاحبه مهرولا إليه:

- أنصحك.. لا تتعب نفسك، وتقع تحت طائلة المسـؤولية، اكتشفوا أمراضا في صناديق الفاكهة.. وقرروا إعدام صـناديق التفاح المستورد من تاريخ رجعي.

- احْمد ربّك تخلصت من المساءلة والغرامة.

- ماذا أصنع؟

- عد إلى بلدك لتأتي بصندوق جديد.

- وهذا..

- طوح به إلى أقرب صندوق زبالة.

اليونان- أثينا-

ابريل/ 1985

□ □ □

قداش ها المعلاق ؟!

...

أوصى "عبد الصبور ثابت" منذ أيام جزار الحومة أن يحجز له معلاقاً، وألح في ذلك.. وكرر التوصية لأن زوجته كانت حاملا تتوحم، وجاءها الوحم على كرشة ومعلاق وعصبان. وهو أيضاً يرجو أن يأكل عصباناً ويشوي كبدة، ويتمزمز... يتوحم توحم الرجال.

ولكن جعل طلبه عذرا أو سببا إضافة إلى الحامل المتوحمة... والجزار كان قد وعده بأن يحجز له معلاقاً بحذافيره وملاحقه وتوابعه، من ذلك النوع المتميز الجيد، الذي يلعق وراءه أصابعه كما حكى له الجزار في أوصافه المعوية المثيرة لأهل البطنة، بعد أن حجز أكثر من معلاق لهطه كبار المسؤولين وعتاولة الموظفين... والزبائن المعتبرون.

هو من هواة المعاليق والكراعين ولعق المواعين، يتفنن أيضاً في صنعها... يتمزمز حتى بالحديث عنها... وتلاقت رغبته العارمة مع توحم زوجته، ومنّى نفسه بتلك العطلة التي سيقضيها في مشاهدة شاربه المتهدل الكث في المرآة... وأكلات هنية مرية من المعلاق... وأبي رديم الخروف المشوي على جمر هادئ... وأيضاً رشتة كسكاس... ولعب الكارتة... "سكمبيل" بوستة وغيرها ودق الحنك.

ترى هلا يملّ هؤلاء الخلايق من دق الحنك؟!

هو من ذلك النوع الذي يتربع أو يتحلق أو يتكئ ويتكوع في جلسة "القرمة"... وجلب سيرة الناس... ونتف ما تبقى من ريشهم سواء السيرة الظاهرة أو الخفية المطوية يقضون الساعات الطوال في تحلقات مليئة بالنكات.. والتشنيعات، وجبد

عباد الله الأقربين والأبعدين... وسرد مآثرهم ومعايبهم وأسرارهم.. لم يسلم منهم أحد سواء من المخلصين وغير المخلصين، تتفتح شهيتهم للمزمزة... والقرمة حتى ما بعد منتصف الليل.

* * *

"وعبد الصبور ثابت" بطبيعته من ذلك النوع عصبي المزاج حاد الطبع... يسكر من زبيبة وإن كان ليس من هواة أنواع الزبيب... إنما أنواع أخرى عرفتها شفتاه أيام أن كان يتردد على المشارب.

وقد عرف منه أصحابه وخلان الصفا حدة الطبع وسرعة الانفعال والتوتر إلى درجة قد تدفع به إلى رمي ما في يده... وانسياب ألفاظ غير لائقة قد يعرق عند سماعها الحيي الخجول... والمؤدب المهذب.. ثم سرعان ما يعود إلى هدوئه... وقد ينكمش لائذاً بصمته وكأنه يندم أو يحاسب نفسه ويعاقبها على ما بدر منه فيتحوقل... ويطرق برأسه.. ويستغفر الله... ويطلب من أصحابه... ومن أصابهم رذاذ شتائمه المسامحة

مقدماً لهم الاعتذار... ويستغفر الله... ولهذا يتركه أصحابه عند لحظات انفعاله.. وأوقات فلتة لسانه حتى يفش غلّه... أو ينفس عن كربه... ولكن يا ويل من يعانده في غضبته أو يقف في طريقه... عند إثارته... والتهاب حدته... وتقطيب جبينه.. واقتران حاجبيه وارتعاش شفتيه، كم من رذاذ طار.. كم من قميص تمزق تضطر الزوجة المسكينة إلى ترقيعه... لهذا أعدت للاحتياط - إبرة وخيوطاً - وقمصانا مغسولة مكواة... للطوارئ... وعند اللزوم.. وكم من كوب تكسر... وطبق تدحرج... وكرسي انقلب أو تفككت مفاصله... وقوائمه.. كم من مرآة شرخت في لحظة الانفعال وزوبعة التوتر... لكنه من نوع سريع الغضب... سريع الرضا والعكس بالعكس في الأمزجة والطباع، فإن بطيء الغضب ونادره وقليله يكون عادة عنيفا وحادا، إذا استثير وتحركت زوابعه.. من هنا جاءت العبارة المحذرة المنذرة.. "اتقوا غضبة الحليم".

أما هذا الانفعالي الفشوش هو من طراز عرفه أهل السوق.. وتعود عليه أصحابه وخلانه في العمل والوظيفة... وكثيراً ما يستفزونه ويحركونه دعابة ومزاحاً... وقد تنقلب الدعابة ويصبح المزاح شيئاً ثقيلاً..

* * *

وذهب إلى الجزّار يطلب معلاقاً سبق أن ألــح فــي طلبــه واعتذر الجزار بأن المعلاق حجزه عميد البلديــة وفــي اليــوم الثالث.. اعتذر... أخذه شيخ الطريقة العيساوية، ويوما آخر... تأسف له... فقد أخذه شيخ الطريقة النقشبندية أو المدنية.

بركتك يا سيدي المدني.. فقد كانــت أمه صالحة تقية من أتباع المدنية.. اللهم انفعنا ببركاتهم.

وكثر تردده على الجــزار... طالبــاً حجــز المعــلاق وعندما توجه إليــه بعد أيام أجاب عــن إلحاحه:

- انتظـــــــر الأسبوع القادم، فقد أخذ المعلاق صبيحة اليوم حضرة مدير العام للرقابة والمخالفات جاء بطوبته... (تعبير متداول وإن لم يكن في يده طوبة).

ولما مطّ عبد الصبور ثابت شفتيه احتجاجاً أو استهزاء... قال الجزار عندما شاهده مطرما مبوزاً:

- وهل تريدني أهمل طلب المراقب صاحب دفتر المخالفات... إن كان خدمنا شيخ الطريقة احتراماً ورجاء دعوة خير، فهذا المراقب صاحب دفتر مخالفات اتقاء لشره...

ثم أقسم أنه ببلاش أهو دفتر مؤاخذاته أكبر من دفتر مخالفاته ولد.. وذكر الجزار كلمة تليق بساطوره ووعده في الأسبوع القادم ونصحه.

- ولكن يا سيدي عبد الصبور تعال بدري.. قبل أن يمر سكرتير المتصرف..

وعندما جاءه قال: أخذه الواعظ وخطيب المسجد، ومرة أخرى تأسف له فقد سبقه البشكاتب ولا يستطيع أن يرده... يبدو أن عينه واسعة...أو أنفه له حاسة كلبية.. قططية.. فقد شعر بوجود المعلاق مع أنه كان متوارياً ليس معلقاً... وأتى بالمبررات لا يستطيع أن يرده فهو الذي يتطوع بكتابة رسائله التي يرسلها وحسابات المديونين له.

وقراءة ما يرد إليه من رسائل وجواباته.. وأحياناً يتطوع بقراءة الجريدة إن كان فيها شيء يتعلق بالمواشي... ويقابل هذا التطوع هدية من حضرة صاحب الساطور والمعاليق.

- فوت بعد يومين... عندنا حاجة معتبرة..

وهز عبد الصبور ثابت رأسه، ومهمه:

- إيه يوم الحكومة بسنة!.. إيه لكن يوم الجزار بكم يا ترى؟!... يظهر أن أكلة اللحوم تكاثروا... فوت غدوة...

وجاء الغد... وفاجأه بأن قال:

- يا سي عبد الصبور... بختك يا سيدي طار منك المعلاق.

- طار... عمل جوانح؟!.. خداه قطوس... كلاه كلب!

- لا سيدي... بل حاجة... أكبر..

- كيف... دبحتو حاجة مالقيتوش فيها معلاق.. إن الله على كل شيء قدير..

- حجزاته الحكومة.

- حجزاته لماذا؟! مرت عليك الصحة صادراته؟!.. مذبوح من غير سكين الحكومة! وجدوه من غير طابع رسمي؟.. مذبوح في منازلهم؟.. كيف اخذاته الحكومة؟!

- أنا بضاعتي نظيفة ورسمية... ذبح رسمي.

- أمّال كيف أخذوه منك؟!..

- أتى رئيس وزراء ما وراء السد!

- شنو... رئيس وزراء الصين؟!

- إيه..

- مر عليك رئيس وزراء الصين، أصبح من زبائنك؟!

- لا... ليس زبونا لم يشرف عندي أنا في الدكان بل هو سيادة أو فخامة رئيس الوزراء في زيارة للبلاد غداً...

- باهي... أهلا وسهلا.. ولكن ما دخل حضرة رئيس وزراء الصين في المعلاق؟!

- هو في زيارة للبلاد.

- تعرف اسماه...

- اهو اسم فيه ص.. ش.. أو س صاد شأن أسماء ما وراء السد.. ناس طيبين.. هو في زيارة للبلاد ما سمعت في الإذاعة والصحف!

- أنا لا أقرأ صحفا ولا أسمع إذاعة...

- إيه أخذتك الكارْتة والسهرية.

- المهم آش علاقة رئيس وزراء الصين بالمعلاق؟!، وهل الصين الشعبية أو الصين الوطنية؟!.. تيوان وإلاّ بكين..؟!

- كله واحد.. شعب واحد.. اهو رئيس وزراء صورته في الحيط عند الدكان نرحب به.. ضيف ويريد سيادة المحافظ أن يعزمه على أكلة شعبية عصبان وكبدة مشوية ومعلاق... حجز المعلاق.

وسمع حوار الجزار وعادل ثابت طالب المعلاق فتدخل قائلا ومظهراً معرفته بمجريات الأمور:

- صحيح أصبحت العلاقات السياسية والتجارية والمصـــالح الكبرى تبنى على الأكلات الشعبية والولائم، وفرقـــة الـــرقص الشعبي تلعب دورا.

وكان الجزار يطرد دبوراً شرساً بمذبته وهو يطن ويحـــوم يريد أن يدخل دكانه... وبعد أن نجح في هشه التفت إلى عادل ثابت قائلا كأنما يريد أن يزحزحه من وقفته:

- فوت علينا الأسبوع القادم تلقى المعلاق.

أجاب ملحا عادل ثابت قائلاً ومبرراً إلحاحه:

- لكن أخشى أن تلد المرا.

وقال الجزار:

- إن شاء الله سليمة.

قال عادل ثابت:

- لا... موش سليمة... ما اسمها سليمة.

- أقصد إن شاء الله تسلم ويسلم المزيود.. إن شاء الله يطلع كيف بوه.

ترى هل هي دعوة أم دعاء فيه من ساطوره خبث أو دعابة.

- آهي مازالت تتوحم على المعلاق.

وسمعه زبون واقف عند الجزار فشده الحـــديث والمحـــاورة فتدخل قائلا وهو من نوع يتطوع بتوزيع النصائح والتدخل في

أحاديث الناس ولو لم يكن يعرفهم أو يعرفونـــه.. هــل تســميه منبسط النفس أو منساب اللسان؟..

- اصبر.. يا صاحبي... [هكذا نعته بصاحبي مع أنه لم يلتق بخلقته إلا صدفة عند الجزار منذ عشر دقائق].

- يا صاحبي باين عليك رجل ثابت ومتنور ما يهزك توحم مرا... لو كل ما تتوحم عليه يكون فـــي إيـــدك شـــيء غيـــر معقول... أنا مرة مرتي توحمت على لبن عصفور... تصور لو نمشي للسوق ونطلبه يقولو عليا مهبـــول... والاّ يعطـــوني أي حاجة إن شاء الله شخاخ قطوس ويقولو هذا طلبك لبن عصفور.

وتدخل زبون آخر قائلا:

- باهي هذا ساهل خير ما تتوحم على حليب الغولة.

حليب العصفور ساهل هات قطرات من اللاقبـــي [عصـــير النخل].. وقول لها حليب عصفور والا كناري.

- أهي حكايتك سهلة لو تسمع عـــلاش توحمـــت مراتـــي.. وتمططت شفتاه لانسياب الذكريات العائلية، وهنا همس الجزّار لولده وأشار إليه فتقدم الولد نحو المنساب في حديثه وقال له:

- اسمع يا عمي.. أنت في القائمة؟

- نعم آش قلت؟

- أنت في القائمة؟

وارتعب وانخضّ وارتجّ عندما سمع كلمة قائمة.. وكاد ينساب ما بين رجليه..

- خير إن شاء الله..

فمنذ أشهر مضت كانت كلمة قائمة مرعبة، بعض الكلمات في بعض الظروف والحالات تخرج عن معناها. وتأخذ معنى الإرعاب... ويخيف معناها.. وهي من أسوأ الكنايات في اللغة والمصطلحات مع أن معناها الأصلي لا بأس به ولا غبار عليه.. مثل كلمة استعمار التي خرجت عن معناها الأصيل..

قائمة؟!.. ترى أقائمة المطاردين؟... قائمة المشبوهين.. قائمة المفقودين.. قائمة الملاحقين.. قائمة المنتظرين؟.. وجفّ ريقه... وجحظت عيناه... لكنه اطمأن عندما قال له الولد:

- اسمع.. - بوي قال إنك في قائمة المعلاق.. غدوة أو بعد غدوة مر على الدكان تلقى معلاقك.. اطمئن اسمك في القائمة.

وهنا تنفس الرجل الصعداء.. وزفر زفرة الاطمئنان وهو يقول:

- معلاق.. خضيت مصاريني يابن الكلب.

* * *

وتنوعت المعاذير والمماطلات من أجل الحصول على معلاق.

مرة قال له:

- يا سي عبد الصبور سامحني جماعة الشباب الهيبي عندهم زردة.. أخذوا السقيطة بمعلاقها.

ورد في نرفزة قائلا:

- ما شاء الله.. الله يزيد ويبارك من جماعة مشايخ الطـــرق إلى جماعة الهيبي... عندهم سكرة.. اسمع

- يا عبد الصبور زبايني من كل شكل ولون وملـــة.. أنـــا جزار عليّ نبيع السقيطة والمعلاق إن شـــاء الله مـــرابط... أو عالم... وابن بيت... وإلا زوفري.. عسكر سوسة، أنا ما اريـــد انّاسبه... الزباين على كل كاسم ولون.

- إيه صدقت.. لكن أنا موصيك.

- بالدور يا عبد الصبور وأنت مسجل في الدفتر عنـــدي... مثل قائمة المسافرين... وأنت وحظك ربما صدفة واحد ينســـى وإلا يتأخر وإلاّ بطل شيان اللحم... وعدل عن شراء المعـــلاق تعال مرة، مرة.. بيّن رأسك.. علاش مستعجل كول كرعين وإلاّ قديد...

- قلت لك المرأة تتوحم... قريب تولد.. تريد معلاق خروف موش جمل.... وخروف وطني موش مازقري... وخير البـــر عاجله..

- إيه... تتوحم.... وإلاّ دلال وبتّي... والاّ ســـبلة درتهـــا، بعض من الرجال مرات ازرط من المرأة الحامل..

- كل مرة تأتي بعذر... شيخ طريقة... شيخ محلة... باش كاتب... رئيس وزراء الصين... جماعة الهيبي يا سيدي خذ حقه مقدم..

- ما هي حكاية حق... عارفك تخلّص... أنت حقاني تكره الديون... والنصابة والقفاصة..

* * *

وأخيرا حصل على المعلاق... وانطلق به فرحاً جذلان وتصادف في الطريق أن شاهدته الحاجة زينة وهو يحمل المعلاق وهرعت إليه تسأله عن مصدر المعلاق!

والحاجة زينة يظهر أن اسمها من أسماء الأضداد واسمها المشهورة به في بعض الأوساط "يزة الزغرادة البلعوطة" اسم ترحيب... ولا يعرف أحد في المنطقة تاريخ ميلادها... وهي غير مسجلة في البلدية.. ولكن تعرف كل المسجلين في المنطقة... كباراً وصغاراً، ومستورين وغير مستورين... والطيبين والبلاعيط... وكانت زينة الزغرادة البلعوطة زمزامة في الأعراس وإحياء الليالي الملاح..

وفي ذلك اليوم نزلت للسوق لتشتري شيئاً من العطريات والمسك والنوافح... والفوايح..

وهي سمينة... بدينة من كثرة الأكل وكثرة الجلوس فضلا عن الوراثة من جدتها كانت من أضخم النساء في عهدها.. لهذا

هي تمشي مترطرطة.. مترجرجة في مشيتها مثل قفة مصارين..

وعندما هرعت في مشيتها نحو صاحب المعلاق اصطدمت بما كان يحمله في يده..

وشهقت:

- عفواً.. (احتراماً لها كإنسانة لا أقول نهقت)..

ونهرته... وزعم كلاهما أن الآخر هو الذي بدأ في الصدام والارتطام... شأن تصادم السيارات وارتطام أو ارتباك العربات.. شأن الاعتداء والصدام في مناطق الحدود كل يزعم خصمه هو البادئ.

وشوّه المعلاق من فراشيتها الناصعة البياض والتي عطرتها وبخرتها في هذه الصبيحة، التعطر الفواح الرائحة... والبخور لإزالة حسد العين... ووقاية لكاسمها وقدها.

وما تصادمت معه... وهي تسأل عن المعلاق حتى انهالت بالشتائم وذكر معايب ومثالب جنسية يعاقب عليها القانون التحريري ويمجها العرف الأخلاقي وإن كان في بعض الأوساط يسمح بتداولها الشفاهي... لغة السباب ولهجة المعايرة.. وفكر عبد الصبور ثابت والمعلاق يهتز ويترجرج في يده... هل يرد عليها بالتي هي أسوأ.. ويضيّع وقته وصاحبة البيت المتوحمة تنتظر قدومه.. مع المعلاق... وحاول أن يضبط أعصابه وقال في بلاهة أو مكر مبطن... أو اختصاراً للموضوع... وسداً لباب الذرائع:

- سامحيني يا ستي.. هاتي رأسك نبوسها..

واقترب عبد الصبور وصاحت بكل طاقة حنجرتها..

- آه.. تبوسني؟!... رجل براني يبوسني.. هذا اللي مازال.

واقترب عبد الصبور ثابت منها في خبث ليزيد ثوبها تشويها.. أو لتبتعد عنه نافرة، وقال مكرراً:

- هاتي نبوسك، الحق عليا سامحيني.

قالت:

- إيه والله.. تحسابني ساهلة يا..

[حذفنا الجملة والنعوت التي تكرمت بها حياء واحتراما للقارىء].

وهي تلك المترجرجة تحفظ قاموس الشتائم وألقاب المعايرة.. وكلمات التنابذ حتى في لهجات انقرضت، ولو عثر عليها عالم دارس لسانيات لوجد فيها مصدراً مهماً في دراسته.. حاول معها ذات مرة أستاذ فاضل فنفرت اعتقاداً منها أنه يريـد معاكسـتها والتقرب منها لأمر فسرته هي حسب مزاعمها.

وانتهز صاحب المعلاق فرصة الزحام حولها يسألونها وهي تجيب:

- الطحان صدمني ويريد يبوسني.. عينه زائغة.

وهرب بمعلاقه في زقاق من حسن حظه كان غير مسـدود وإن كان مترباً وقفر.. متحفـراً، لابـأس إن تغبّـر المعـلاق سيغسله.. وطبعا لابد من غسله قبل طهيه.

وصدفة عند رأس الزقاق المترب المغبّر كاد يتعثر ويتشقلب من حجر.. فينقلب بمعلاقه ويفقد توازنه.. وما شـد قامتـه إلا بحركة سريعة كادت تفلفص جسمه، وتهدد بالتالي غضروفه.

وفجأة في يوم مفجأته هذه.. كان وجها لوجـه مـع الشـيخ "حمدان البلعي".. [يقال إنه نسبة إلى قلعة بلعي ضاعت وغاصت في أحد الزلازل ولم يبق منها الآن شيء إلا النسبة إليها.. ويقال في أرجح الروايات نسبة إلى البلع والهلع..].

وصاح الشيخ حمدان البلعي كأنه طفل شاهد شيئاً غريباً:

- إيه معلاق.. إيه عصبان.. قداش شريته؟ وين لقيته؟!

وعيناه تبصان للمعلاق وكأنه منذ سنوات لم يتذوق طعم المعلاق، وفكر عبد الصبور ثابت في ومضة حائرة.

هل يدعوه كرماً.. أم إحراجا.. أم الأفضل أن يتغاضى ويتخلص منه وهو سي حمدان البلعي أجارك الله من لقياه من نوع اللصيقة.. يلصق على الطابونة الباردة كما يقولون.

وآثر عبد الصبور ثابت هنا الصمت.. والصمت والتريث قد يكون حكمة وخلاصاً من بعض الحالات والمآزق.

وانطلق بمعلاقه.. وما خطا خطوات حتى شاهده الشاويش الدائر في المنطقة.. يبرم شاربه ويتلصلص بعينيه وبادر بالسؤال.. ونحنحة اوتماتكية يثبت بها وجوده.. والمفروض أن النحنحة في الليل وسراديب الظلام لا في النهار والشمس طالعة.. والشارع يموج بالسابلة، وصاح:

- أين ذاهب..؟

واهتز عبد الصبور ثابت بمعلاقه وفاجأه هذا السؤال المباغت.

هل هذا سؤال:.. وكما يقول النحاة وأهل البلاغة: هل هو سؤال استفهام لمعلومية.. أم سؤال إنكاري للتعجب والاستغراب.. أين ذاهب؟! وتجرأ والحيرة قد تنتهي بجرأة:

- يا سيدي الشاويش.. رقّاك الله حتى تصبح عندك مركز.. في يدي معلاق ولابس طاقية فوق رأسي وشكلي واضح مواطن يدل عليه زيه وهيئته، غير خاف شكلا وموضوعا.

- قلت أين ذاهب؟

-- عجيب هل هناك منع تجول.. طوارئ مشتبه في.. تطارد شخصا شكلي!

وأعاد الشاويش سؤاله:

- قلت لك أين ذاهب؟

ولم يجد إلا السخرية ليجيبه:

- اسمع نقولك الحق.. - أنا ذاهب لاجتماع سري.. وذاهب لإلقاء محاضرة، بل ذاهب لموعد غرام.. بدل ما أحمل باقة ورد أو علبة شكولاته ها هي الهدية في يدي.. بل أنا آسف أنا ذاهب فوراً إلى المطار للسفر لا تعطلني أنا مستعجل.. بقيت على الطائرة دقائق.

وصاح الشاويش وهو يمد يده.

- هات البطاقة!

- نعم حضرتك شاكك في حضرتي!.. هل أنا لص ساط على جزار سارق منه معلاق؟!

- هل تخاطب الحكومة بهذا الأسلوب؟!

- هل نحن في حالة حرب أو طوارئ.. مواطن عنده معلاق في إيده في وسط النهار تسأله أين ذاهب؟!

وكرر السؤال والطلب:

- هات البطاقة.. ايش حيثيتك؟!

- لو كان عندي حيثية أكون عرضة للتوقيف والسؤال؟!

- قلت لك هات البطاقة.

- قل لي هل أتجول في ساعات ممنوعة؟.. هل هذه منطقة ممنوعة.. محرّمة.. أو تبحث عن مجرم هارب وفي أيده معلاق؟!

- أنا أسألك جاوب.. وإلا كنت تقع تحت طائلة القانون والتهرب أو التزوير في الإجابة وإهانة الحكومة.

- ذاهب بالمعلاق للمرأة تتوحم.

- ليه.

- عجب السؤال ليه.. تقصد ليه تتوحم.. ليه للمرا والاّ ليّ أنا؟.. عمرك ما سمعت امرأة تتوحم؟!

وقال عبد الصبور ثابت:

- تره.. يا حضرة الشاويش امسك المعلاق حتى انفتش لك على البطاقة في أحد الجيوب.

وفي لحظة بدون شعور مد يده كاد يمسك بالمعلاق لكن سرعان ما أدرك وتلافى الأمر.. كاد المعلاق يشوّه كسوته الرسمية.. ويا له من منظر عندما يمسك بالمعلاق.

وصاح بدون نحنحة:

- اذهب.. درّق وجهك أنت ومعلاقك.. تشوه الكسوة تأدب مع الحكومة.. تأدب مع الجهات الرسمية.

وشهق عبد الصبور ونخر وهو يسأل:

- أين هي الحكومة؟!

- متمثلة في كسوتي:

وانطلق عبد الصبور يهتز مع معلاقه المترجرج.

* * *

وما خطا خطوات حتى لقيه أحدهم وأصدر صوتا مشيرا إليه:

- س أس أس.

ولكن عبد الصبور ثابت لم يعره أذنا أو التفاتا.

هذا قليل أدب ناقص تربية.. وقال في نفسه:

- يا له من تافه.. ليس اسمي.. أس.. أس.. أس حتى يخاطبني بالأساسية، لست حصانا أو دابة يخاطبها الإنسان بأس.. أس.. أس!

ولكن المنادي المشير إليه ارتفع صوته قائلا:

- أنت يا جدع.. أنت يا محترم.

- إيه لابأس آهو قال يا محترم..

وظن أن هناك ما يستحق.. وخف خطوه قليلا.. والتفت إليه:

- لابأس.. خير إن شاء الله؟!..

ثم نقل المعلاق من اليد اليسرى إلى اليد اليمنى.. وتكاد أصابعه تتخدر وكتفه يتنمل من الإمالة.. ولا يستطيع أن يريح يده قليلا ويضع المعلاق على الأرض.. فينساب ويترجرج هاهو القدر يحاصره هذا اليوم.. ليته أجّر غلاما من سوق الحوت.. أو سوق الثلاثاء.. وأعطاه أجره والعنوان لكان وفر عليه هذا العبء المتعب والحمل المرهق.. وعندما تواجه الاثنان.. عبد الصبور وصاحب الأساسة.. قال الثاني للأول:

- اسمع يا جدع أنت!

- نعم..

ويبدو من لهجته أنه من خارج البلاد وسأله الرجل:

- أنت من هنا؟! ساكن هنا؟!

ويا له من سؤال باغته به ألم تدل سحنته على أنه من هنا؟ وجود المعلاق في يده أنه ساكن هنا.

- اللهم طولك يا روح.. خريطة العالم انصبت في الشوارع والأزقة، نعم يا سيدي أنا من سكان هنا.

- بقالك كم ساكن هنا؟

- أنا من أولاد الحومة.

- حومة يعني إيه؟!

- منطقة.. حي.. ناحية.. نعم.. إيه المقصود؟

- صلي عالنبي..

- اللهم صلي وسلم عليه وعلى آله وصحبه.

- زيد عالنبي صلي.

- اللهم صلي عليه.

- اهو كده كويس.. نقدر نسأل أنت باين عليك ابن حلال.

- ماذا تريد؟

- نهارك فل.

- إن شاء الله حتى عنصيل والاّ حرّيـق.. أنـت مـا هـو سؤالك؟!

- تعرف المعلم حنفي عكاشة سبع الليل.

وهنا هزّ صابر ثابت رأسه علامة عدم المعرفـة.. وزادهـ ثأثأة.. مكررة.. واستمر يهتز مع معلاقه ولكن السائل عن سبع الليل قال:

- ده ساكن هنا.

- وآش أوصافه أو عنوانه؟.. والأحسـن تسـأل صـاحب دكان.. أو الحلاق.. أو أحد الشيوخ الكبار.

اسمع يا جدع.. ده ساكن هنا وكان بيدخن سجائر معدن كوتارللي.. وبطّل السجائر ودلوقت بيشرب معسل وقعد في القهوة اللي في الركن.. وكان بيلبس كرافتة وبطّل لبس الكرافتة.. وكان بيلبس قميص نص كم في الصيف وفي الشتا كم طويل.. حضرتك تعرفه والا تعرف حد يعرفه؟

- إذا كنت لا أعرفه بتاتا.. كيف أعرف من يعرفه.

- أصل عنده حماته اسمها نعيمة كركللا... بنت حلال كانت ساكنة هنا...

- وايش كان يشتغل صاحبك اللي تدور عليه؟

- كان يشتغل مدرس إملاء وخط.. الأستاذ عكاشة سبع الليل.. ده رجل كويس.

وأجاب والمعلاق يهتز في يده:

- لا أعرف سبعاً ولا ذئبا.. وتركه.

ولكن السائل لاحقه قائلا:

- أزاي ما تعرف عكاشة ساكن هنا؟!.. من فضلك ساعدني في البحث عن العنوان...

وتركه يلهوث... ولولا مخافة أن يتعطل لاقترب منه لإغاظته

ولكنه... وقال:

- اعمل معروف أنا دايخ على بيت الأستاذ عكاشة السبع.. كان يشرب معسل في القهوة اللي هنا في الركن، وكان يلبس "كرفتة" وتركها أخيراً..

أخرج سيجارة وطلب إشعالها:

- عندك ولعه؟

- كيف اطلع لك الولعة من الجيب؟!

- أصل أنا خرمان.. خود سجارة.

- أنا لا أدخن.

- أنا أمسك الكرشة... وأنت تخرج الكبريت... أو الولاعة. صلي على النبي... هذا الذي في يدك تأخذ فيه لا مؤاخذة خلو يد اعني تبيعه... ولاّ أنت ناوي تاكله؟!

- أنا شايفك لا مؤاخذة سارح إما حضرتك شاعر والاّ بياع كرشة.. لا مؤاخذة.

وتململ عبد الصبور ثابت وتركه وهرول مسرعا لئلا يلاحقه.

* * *

وكان أيام مماطلة الجزار له فكّر في أن يشتري خروفا يذبحه بدل مماطلة الجزار له.. ولكن... ما عاد يحصل على خروف الضحية إلا بعد جهد وتقتير من مصروفه الخاص.. وخاصة أنه سمع من الشيخ طروشة العلاوني شروط الأضحية... لابد أن

يكون الكبش أقرن.. أملح.. سليم البنية، ولا يكون أملص الأذنين معوج الساقين ولا أحول العينين، ترى هل يريد أن يشترك به في ساحة النطاح أو مهرجان الكباش؟!

وقال خطيب الجامع.. طروشة العلواني إنه –أي المضحي- يجتاز به على الصراط، وأخذ يفكر أن ذلك الشيخ كان يصف الصراط أرق من الشعرة... وأحد من السيف.

ترى كيف يجري به الكبش على الصراط؟! ثم الإنسان الذي يضحي مثلا مدة ثلاثين عاماً كل عام بكبش أو كبشين وقد يعيش ثلاثين أخرى فهل كل الكباش المضحى بها تمر معه أو به على الصراط؟ أم للزحام يختارون كبشاً واحداً ينوب عن سائر الكباش التي ضحى بها يوم العيد؟!

كلام "طروشة" غير مفهوم.. ولا هو من الحقائق هو مجرد كلام عوام.. وقد تحير طروشة في الجواب على ملاحظات الأسئلة المحرجة المربكة، وعندما كان عبد الصبور ثابت يفكر في هذا والمعلاق في يده اصطدم بعتل يبدو أنه رياضي بطبيعته.. وصرخ فيه محتدا:

- أنت أعمى... وعندما شاهد ما يحمله في يده صاح..

ما شاء الله.. معلاق في أيدك وماشي في الشارع لا تراعي آداب المرور.

وما تخلص منه إلا بعد لأي، والصمت هنا حكمة.

* * *

وعلى الرصيف الآخر كان هناك عثمان دنقلي يتبختر وشاهد بعينيه الملاحظتين المتلصلصتين المعلاق في يد حامله... وفي لحظة قفز صائحا من الرصيف إلى الرصيف... وكاد يتكعبل في ثوبه الطويل الذي يخب على الأرض... وكادت عمامته الكبيرة تهوي من علوها الشاهق... ترى كم من الوقت أضاعه في لفلفة طياتها وبرمها؟.. أم تراه يصحو وينام بها وصاح عثمان دنقلي –وهو يشير بيده وكمه الواسع:

- يا زول.. يا زول...

مشيرا بيده وبه فص ازرق في الغالب بل المؤكد من فصوص غير حقيقية لكن لها لمعان.. وهو يرتدي أبيض في أبيض.. الثوب الرهيف الذي أبان عن خاصرته وضموره... وينتعل حذاء أبيض طويلا له بوز مثل قارب... هو خف لا حذاء.... ومظلة بيضاء... ومسبحة ذات شرايب بيضاء ومبسم للسجاير أبيض. وليس ولابد أن نقول السجارة بيضاء... لأنه لا يشرب السجار ولا يستعمل الغليون وعمامته أطول وأكبر من عمامة سماحة المفتي أو الشيخ النقشبندي أكبر من بلاص تتمايل به حاملات الجرار على شواطئ نهر النيل... طويل.. رهيف.. أطول من عود قصب.. نحيف.. لا وزن له.. من ناحية الميزان لا من ناحية القيمة.. أسنانه لامعة بيضاء... تصلح إعلانا

لمعجون الأسنان، ويبدو عنقه الرهيف كأنه حز أو فجوة بين العمامة الكبيرة... أو برج القماش، الثوب المسدل على كتفه... كيف حفظ توازنه بهذه الحملة والوزنة الثقيلة لا ترى إلا كثافة قماشية تتحرك ملفلفة بطريقة لولبية..

وما شاهد المعلاق يترجرج في يد عبد الصبور ثابت حتى ماء كقط... وقفز كالقط الذي شاهد حوتاً أو شمه.. أو مثل متسابق ماهر في النط والقفز:

- يازول كم فرش شريته؟... من ين؟!.. شنو قلت، ما شاء الله.. ما شاء الله... معلاق حقاني... ضاني... ما شاء الله.

واضطر حامل المعلاق إلى الوقوف لحظات:

- شنو عمرك ماريت معلاق.. والاَ قرمان؟

وفي لحظة ماكرة... اقترب منه واصطدم به المعلاق،

وصاح عثمان دنقلي:

- يخرب بيتك... وبيت معلاق بتاعك.. تشوّه الثوب النظيف كيف أصلي به الجمعة... شنو... يازول...

وصاح عبد الصبور ثابت في وجهه:

- وهل المعلاق هو الذي احتك بك... أنت بسلامتك قفزت من الرصيف إليه... واقتربت من المعلاق تشمشم مثل القطوس..

وصاح صاحبه قائلا:

- تعرف يا زول.. هذا الثوب أغلى من معلاق بتعاك.

- بله واشرب ميته.

- كيف أمشي أمام الناس بثوب ملغوص؟... ملغوص هو أنا قاتل قتيل... مسيّح دمه.. يخرب بيت معلاق... وصاحب معلاق أنت رجل شنو؟...

- واش دخلي تشتمني يا هرواك.

ويتضح من لهجة المنافرة والحوار أو الخوار أن كليهما عصبانة... نقرازة..

عثمان دنقلي وعبد الصبور ثابت.

وصاح كلاهما في وجه الآخر محتداً مشتداً ورفع دنقلي عصاه الرهيفة... أرهف من عصا العنصيل، وبادر عبد

الصبور ثابت برفع ما بيده والتلويح به وهو المعلاق الذي تناثر رذاذه في ثوب عثمان دنقلي.

- الله يخرب بيتك عوصتني يا ملعون.

- من قالك تنشد على المعلاق؟.. يا كلوفي

- الله يخرب بيتك وبيت اللي جابوك.. صحيح همار.. كيف اصلي الجمعة...

وهنا تدخل لفضّ الاشتباك وإعلان الهدنة من يعرفه أو ساكن معه:

- سيبه.. ده رجل فيه شيء لله... بركة.. كيف تشتمه وتشوه ملابسه...

- هذا رجل طيب... له أسبوع لم يشرب تاب وأدمت جبهته الحصيرة.. فيه شيْ لله.. أحسن ما يدعي عليك.

وقال آخر:

- يظهر أنه من سكان فندق الزوالية.

- صحيح هو تاب من أسبوع.. لكن هو يعمل معروف وخير في زملائه.. يظهر أنه يعمل لهم من الكبدة والكرشة مزة..

- وآش دخلي عطلتوني.. الله يعطلكم...

- اسمع يا زول أعطيه تعويض!

- تعويض عن أي شيْ.

وحاول أن ينطلق تاركاً الزول.. والزوالية

* * *

وشاهده ابن عم له أو من بلدياته يتشاجر علــى الرصــيف وتقدم منه على طريقة عرب الجاهلية...لا يسألون أخاهم حــين يندبهم... في النّائبات على ما قال برهانا.

وكان في يده مسواق له عشر فوائد.. للضرب.. والاتكاء... والزينة... والهرش.. والنكش في الأرض الخ:

- أنت ما تعرف عثمان دنقلي؟

- واش ولّي عنتر بن شداد ولاّ ابوزيد الهلالي؟!

- إيه.. ده ما شرب وتاب منذ أيام ودلوقيــت راح يصــلي الجمعة.. أنت عطلته..

- لازم تبوس رأسه.. ويسامحك.

وضحك أحدهم وهو ينظر إلى عمامته أطول مــن عشــرة أشبار وقال:

- ويبوس رأسه كيف.. توا يتخبل البرج القماشي؟!

وكان عثمان دنقلي قد رفع يديه قائلا:

- روح يا شيخ جتك نيلة.. سيدي مرغني ياخذ عينك بجــاه سيدي عبد القادر عمرك ما تاكل لحمه.. إن شاء الله...

وانطلق الرجل الطيب بساقيه الرهيفتين يجري ولا يســتطيع عبد الصبور ثابت أن يلاحقه واستغرب المشاهدون لهذا البــرج القماشي كيف لم يفقده توازنه؟!.. كيف لم يسقط من الجري؟!..

كأنما ركبت فرارة في رجليه!.. أو كأنما مجدافان في بحر الرياح!.. وضمه الأفق البعيد.

* * *

وشاهده أحد العمّال الذين يعملون في الميناء.. كان من بلده يأتون متصرفين وولاة.. وعلماء وقضاة وعندما ارتكبوا غلطتهم وقطعوا الحرف والصلة بالتراث أصبحوا يأتون عمّالاً، وحمّالين، وحراسة، وبحثا عن لقمة العيش الشريف..

شاهد المعلاق.. ونادى:

- اردكاش... اردكاش

وظنه حامل المعلاق عبد الصبور ثابت قال له "بوكشاش" وهي الحرباء في اللهجة فرد عليه قائلا:

- بو كشكاش في عينك.

ثم قال هذا العامل بلهجته:

- اردكاش.. كم تبيع هذا.. عفارم.. متشكر.. كم تبيع؟!

وظنه بائعا متجولا يبيع سقط الشياه..

- أنا لست بائع مصارين يا هذا..!

ولكن العامل ألح عليه.. مرددا:

- موش مشكل اردكاش كم هقه؟.. تأخذ نص دينار؟

وهنا عبد الصبور ثابت لم يتمالك نفسه فنهره، تبارت الشتائم بأكثر من لغة ولهجة، وختم العامل صفاته ونعوته

- خرسيس... نرسيس.. خلبوص.. واحد شيطان.

وعبارة أخرى يعاقب عليها القانون إن ترجمت وقال من عباراته:

- صاحب مهلاق.. حمار.

وهنا ضبط أعصابه حامل المعلاق.. ولعن هذه اللحظات التي أوقعته في مشادات على الرصيف.

* * *

وعانى من مشكلة حمل المعلاق لترهوط المصارين وتزلفط الكرشة، وترعرع التوابع ولم يكن معه قفة ولا سطل ولا ماعون يحفظ فيه المترطرط..

كانت مشكلة ما خطرت على باله.. فقد سلمه الجزار المعلاق في طرف جريدة وقطعة من "نايلون" طارت في الهواء.. عند شارع الأربع عرصات.. وعند زنقة الريح وهو يتحدر فرحا بهذه الغنيمة فقد تكرم الجزار وجعله يحصل على هذا.. وهو من عادته أن يسير خببا.. أو متمهلا..

ولكن إذا استبد به حماس السير وحرارة المشي لا بأس من الإسراع والهرولة.. لكن على هذه الهيئة مع مسك المعلاق باليد أو مراوحته بين اليدين.. مرة باليسار ومرة باليمين لا يمكن أن يهرول أو يتخبب..

والمشكلة في دقة التوازن.. حذر أن يشوهه ما أمسك به فأخذ في سيره يباعد اليد التي بها المعلاق عن جنبه.. لئلا يلتصق به ويشوهه فهو ينزّ ويسيل منه دم وتهطل منه قطرات وكادت يده تنفك أو تتفلفص من حركة إبعاد اليد بقدر الإمكان..

وهو في هذه الحالة مضطر إلى أن يقول صائحاً محذراً المارة مشفقاً على السابلة:

- خذ بالك... رد بالك.. أبعد.. حول..

ولو كان ركّب جرساً كأنه دراجة.. أو ركّب بوقاً ونفيراً لكان خيراً له.. ولوفّر على نفسه تعب التحذير والإنذار... ولما أصيب صوته بالبحة ويبوسة ونشفان الريق.

وشاهد صبياً صغيراً يبدو أنه عاطل من الذين يحومون حول الأسواق ويتسكعون على الأرصفة وناداه ليحمل له ما في يده.

لكن الصبي العفريت لما شاهد المعلاق في يده خاف من تشوهه.. ولم يكتف بالامتناع وعدم الموافقة على حمله مقابل أجرة... بل سخر منه وأخرج له لسانه... وانطلق على الرصيف وقال:

- يفتح الله. وفر عليك الأجرة واحمله أنت.

وزاد في نكاية أسلوبه إذ قال:

- إن شاء الله يا حاج بالهنا..

ونظر إليه كأنه شامت به.. وحجل الصبي قافزا متوثباً برجله في حركة إيقاعية ملحنا لحناً عفوياً ما جادت به قريحتـــه فـــي اللحظة.

- إيه.. في ايده معلاق.. يبي طريحة ومسواق.

ماذا يصنع هل يلاحقه ويجري وراءه ويملص أذنيه سيكون عند ذلك في نظر الناس أهوج أحمق..

وتصابر وهو يزوم، هطل وانساب شيء من العـــرق مـــن جبينه المتجعد كاد يدخل في عينيه وتسلل العرق وانسيابه فـــي العين مشكلة.. وأراد أن يمسح العرق أو يزيحه من قرب جفنيه فحاول أن يضع المعلاق على الرصيف ونسى أنه شيء ينزلق وليس بالشيء الثابت فما اقترب بالمعلاق من الرصـــيف حتـــى اندلقت كومة الكرشة والمصارين والكبدة، وصد بيديـــه عمليـــة الانزلاق والانسياب محاولاً أن يتلافى هذا... وهو منحنٍ تكـــاد سلسلة ظهره تطقطق، وبكل دقة وحذر وهو يتنهد وببقية الورقة التي تبللت وتمزقت حاول إمساك المعلاق لاعنـــاً فـــي ســـره الوحم.. والمتوحمات.. والجزار الخبيث الذي لم يسعفه بقفـــة أو سطل أو ماعون وسار خطوات.. مباعدا المعلاق عن جنبه قليلاً إذ لو باعده كثيرا ربما مال جنبه وفقـــد توازنـــه فـــي ســـيره وخطوه.. خاف أن يشوه الثياب وخاصة أن زوجته وهي حامل في هذه المرحلة الوحمية تريد الراحة التامة لا تريد تعبـــاً.. ولا

تنغيصاً بالغسيل والانحناء على أدوات الغسيل، طشت أو حوض أو ليان (لم تكن آنذاك آلات الغسيل الكهربائية دخلت البلاد ولا عرفت في هذه البيوت).

• وخيل إليه أن هذه الدقائق واللحظات غدت آماداً ودهراً..

مازال المعلاق يترجرج في يده ولا راقصة ملتاعة محترفة، لازال في سيره بمعلاقه عرضة للعيون المتطفلة والسؤال.. ترى هل هو أول انسان يسير بمثل هذه الاشياء... ترى لو غطاه ولم يكن مكشوفاً أكان يتعرض لكل هذه المتاعب؟!

ولازالت الأسئلة.. ها هو صاحب دكان يلقي نظرة ويسأل:

- بقداش هالمعلاق.. بقداش خديته؟!

وتصابر... وكتم غيظه.. وذكر له الثمن ولكن صاحب الدكان اللحوح لم يكتف بهذا.. بل رفع صوته صائحا مخافة أن يبتعد ويتوارى عنه قبل أن يلقي بسؤال آخر يتحشرج في حلقه.. صائحا:

- من أين شريته؟!

وأجابه عبد الصبور ثابت وهو يقف متململا:

- من الجزار شريته.

ترى هل هي إجابة تهكمية.. هل شراه من بائع الحليب أو من بائع العطرية والقماش.

- معلاق من أين يشتريه... هل هذا سؤال؟!

- ابن الكلب سؤال لا معنى له..

إلا إذا كان يقصد من هو الجزار الذي شريته منه وأي دكان.. ولكنه لم يجبه.. بل فوجئ بجاره الآخر:

- اسمع يا تراس.. من أين هالمعلاق؟

- من الحاج المهبوش.

- عنده معلاق آخر والا هادا آخر معلاق؟

- إنا كنت موصي عليه.

- ومضى خطوات وأوقفه آخر:

- قداش كلفك.. قوللي ضاني.. وإلاّ بقري؟.. مستورد والا آسيوي؟

وهنا اضطر إلى أن يقول له:

- لا.. هذا معلاق فيل..

- فيل.. عجيب!! الناس تاكل خرفان.. لا تاكل فيل!.

- إيه هذا معلاق فيل... تمشي تو والا نحط صوابعي في عيونك.

وقال صاحبه وهو يدوس بكل هدوء على عقب السجارة بقدمه.. ويقول:

- صحيح مهبول وفي ايده معلاق!.

ورد عليه من سمعه وقال:

- إيه يستاهل كف ومسواق.

وجرى من أمامه..

ومشى عبد الصبور ثابت في طريقه وشعر أن الطريق يطول.. هل حقاً هذه المسافة هي التي كان يقطعها قبلا في نصف ساعة أو أربعين دقيقة.

* * *

وفوجئ بمن يخرج رأسه من دكانه مثل سلحفاة تبرز رأسها من قوقعتها وسأل وهو يشير بيده المعروقة:

- بكم هذا المعلاق..؟!

وسكت عبد الصبور ثابت مخافة أن يجر الجواب إلى سؤال ولا تنتهي الحكاية... وهنا اعتبر صاحب الرأس السلحفائي عدم الرد ورفض الاجابة إهانة له وقرر أن يطالب بالديون التي كانت على حامل المعلاق.. عبد الصبور ثابت. وهو دين قديم.. فقد كان يتحاشى المرور من أمام دكانه منذ أشهر.. كانت بينهما حسبة ولكن لثقل ما يحمل بعد هذه المسافة رأى أن يختصر الطريق.. ومر من أمام الدكان وصدفة لمحه صاحب الدكان.. وهنا بادر بالسؤال وعندما لم يعره أذنا.. لاحقه بل وخرج من دكانه وقال:

- يا أخي بدل ما تأكل مشوي وكبدة ومعلاق وعصبان خلص ديونك.

وكانت بالطبع صدمة.. وإهانة.. دار لها رأسه ولا ضـــربة شمس.. ولا ركلة على مؤخرته ولا صفعة على وجهه أوقفاه.. بل هو خنجر في كبده.. ويا ليت المعايرة كانـــت فـــي الســـر بينهما.. أما على الرصيف وعلى مرأى ومســـمع.. فـــي يـــوم المعلاق.. شيء لا ينسى.. أمر صعب تحمله..

* * *

وعندما تكاثرت الأسئلة وارتفع "ترمومتر" الغضب لديه تذكر وصية الطبيب ابن عمه – وإن كان الطبيب أصيب من الغضب أيضا.. تذكر نصيحته ألاّ ينفعل لئلا يزداد عليه الضغط ويرتفع المؤشر ويحترق الدم.. وحاول أن يكظم غيظه ويتحامل.. وكظ على لسانه حتى كاد يقضم طرفا منه.

* * *

وفوجئ براكب سيارة فارهة من نوع ارتفع سعره واشـــتهر بين الأثرياء والمترفين.. ويبدو عليه انه من ذلك النوع.. حديث النعمة.. استعراضي غليظ القفا... وأثرى بعد فقـــر وإدعـــاق.. وإمـــلاق.. أو ترفـــه بعـــد حاجـــة وعـــوز وضـــرب يعلـــن النفيرويشير... أنا هنا..

ونادى على صاحب المعلاق بصوت الأثأثة.. والأسأسة: –

– اث.. اث.. اس.. اس.. أنت يا رافع الكرشة والمعلاق..

(أهكذا.يضيع اسمه ونعته) وفي فمه - أي صاحب السيارة الفخمة- العنجهى الشكل.. سجار من نوع "هافانا" لا أبوه ولا جده شاهده، بعد النفة والسعوط غدا سجار هافانا.. سبحان العاطي.

- قداش هالمعلاق.. تبيعه.. كم تأخذ فيه؟

* * *

وفي لحظة متوترة رعدة رمى ما في يده على وجهه:

- خود..

وطوّح به.. واندلقت المصارين وملاحقها على وجهه وعلى مقعد السيارة..

وانطلق إلى مسرب لا تدخله السيارة واختفى من مسرب إلى مسرب.. وهو يتنهد. ويتنفس الصعداء، وأثناء هربه وانطلاقه صدمه الحائط في الزقاق المتلعوص.. ذي الدوائر المتداخلة ولعن المعلاق ويومه.

* * *

وقد لا يعلم الكثير من أصحابه أن عبد الصبور ثابت أصبح وأمسى نباتيا.. لا يتناول اللحم من قريب ولا من بعيد.. لا مشويا.. ولا مطهيا.. ولا مسلوقا.. ولا محمرا.. ولا مجمرا..

لا لأنه اقتدى بأبي العلاء المعري.. ولا ببرنارد شو.. فهو لا يعرف هذا ولا سمع بذاك ولم يقرأ لهما بالطبع.. ولا يعرف أدبا ولا فلسفة، ويرى ذلك "دق حنك".

من يوم المعلاق كره اللحم ورائحة اللحم.. وأصبح يمتلك بطاقة تعرّف به "رئيس جمعية النباتيين فرع طرابلس".

وكان يتحاشى تهديدات الجزار وساطوره عندما يمر من أمامه.

جنيف 1998

□ □ □

عشوة ليلة وحوار أفلاطوني ...

• كان الناس آونتها لم يفقدوا الطيبة والأصالة. البلد يعرف بعضه بعضا.. إذا غاب أحد.. أو اختفى صديق أو جار أياما افتقدوه وبادروا بالسؤال عنه.

تجد المدينة كلها متجمعة في الأفراح والأتراح ومواكب العرس.. وكسر الجرة ليلة الدخلة، وتشييع العريس وزفه إلى عروسه بالتواشيح والألحان الجميلة التي انحدرت من غرناطة وقرطبة مازالت في ألحانها ونغمات أدائها.. وترانيم إيقاعها طربة على الشفاه.. تتمايل الرؤوس وتهتز النفوس طربا عند الإنشاد والاستماع إليها، واللباس التقليدي يأخذه الناس من سوق "الرباع" وسوق "اللفّة" والأماكن المحاذية للفنيدقة قرب الزاوية القادرية.

هناك فى هذه الأسواق التجار الطيبون المتربعون الذين تعودت أرجلهم على التنمل من كثرة الجلوس والقعود.

وإذا كان هناك محاضرة أو درس من شيخ عالم يتحلق حوله مجموعة من الناس تعطّشا للمعرفة ورغبة فى التثقيف.

يحافظون على تلك العادات والتقاليد المتوارثة في الأزياء. والملابس، في الطعام والشراب، في البناء والمعمار.. في الأسلوب واللهجة والشاي أو كما تنطق باللهجة "الشاهي" سواء الأخضر منه أو الأحمر يقدم في أكواب صغيرة على موقد الفحم الذي ينش عليه بمروحة من سعف تجود بها النخلة التي لم

يهجرها أصحابها ولم يهملها الفلاحون الجادون.. البلد صغير.. جميل هادئ، في هدوئه روعة لا يعكر صفوه ولا يزحمه إلا هؤلاء الطلاينة من بقايا المعمرين المستعمرين الذين سكنوا أحسن ألأماكن واستولوا على أحسن المغازات والدكاكين في أجمل وأفسح المواقع والشوارع.

وآنذاك.. في تلك الحقبة الانتقالية كانت الحركة الوطنية في أوجها.. المطالبة بالاستقلال والوحدة، الوحدة الوطنية، والإنكليز، في الإدارة البريطانية، يلعب لعبته ومحترفو المناصب.. من ضعاف الإيمان الوطني شعارهم.. أو منهجهم.. "اللي يأخذ أمنا هو بونا" ولكن رغم الأزلام وتوافه السطحيين كانت الحركة من قاعدة الشعب على أشدها في الخمسينيات.. آوانتها الهتاف بالحرية والمناداة بالاستقلال والوحدة والشباب من تلقاء نفسه يتطوع للعمل الوطني من بينهم هذا الشباب النحيل "زهدي عبد الكافي".. مولع بالأدب والفن وهواية الكتابة.

لكن أصابه رذاذ السياسة أو الانشغال بالقضايا الوطنية.. فهو خطيب وكاتب ومحاور وجريء جرأة حقيقة جرت عليه عديدا من المتاعب، كان يبث الوعي الوطني في الجماهير، واكتسب من هذا أو كان ربحه من هذا نوع من الشعبية..

• كان زهدي عبد الكافي يتمنى من أعماق نفسه أن يترك هذا المعترك الصاخب لولا أنه كان يرى ذلك ضريبة وطنية

لابد منها ولا محيص عنها وكان أحيانا.. بل وفي أحايين كثيرة، لا يجد ما يسد به رمقه فعلا لا قولا.. حقيقة لا مجازا.

ويبيت طاويا.. لكن في الصباح يقود المظاهرات في المدينة ويلقي الخطب الملتهبة.. مطالبا بالحرية والوحدة.. وحدة ليبيا وتطارده السلطة آنذاك، وتتابعه عيون وترصده ولا يأبه لها.. وله في جعبته ذكريات يمتصها وحده ويعرفها بعض من الناس.

رفض زهدي عبد الكافي أن يكون موظفا عند الإنكليز عندما كانت السلطة أو الإدارة البريطانية تستقطب الكثير، وفضل أن يسير في الطريق الوعر وهناك في ضاحية "قرقارش" عندما كان متر الأرض فيها بقروش قليلة، وحيث كانت مقاطع الحجر.. وأكداس "الهندي" التين الشوكي" وحيث جمال الطبيعة الرائع.. والهدوء.. وأصوات أمواج البحر.. الطريق المؤدي إلى "جنزور" وكانت المسافة بين المدينة والضاحية (6) ستة كيلومترات.. لم تكن هناك سيارات فارهة ولا فيلات.. ولا دبلكسات.. لم تجد طبقات الأرض بثروتها.

وكان الشاب زهدي عبد الكافي يعيش وحيدا في المدينة إذ مازال أهله في المهجر بعيدا لم يعودوا..

وحده كان.. حتى في المواسم وأيام الأعياد.

وقد دعاه إلى العشاء اليوم أحد الأجاويد من سكان الطــرف البعيد في الضاحية المشار إليها وعليــه إن أراد الوصــول أن يركب السيارة العامة خط ميدان الشهداء.. قرقارش..

تلك السيارات التي كانت تسيرها شركة النسر وكانت تســير بطيئة متلكئة متعثرة متلعثمة والتي كانــت تــزدحم بشــكل لا يتصور.. لاسيما في مشاويرها الأخيرة.. كانت المحطــة عنــد مبنى "الولاية".

وعند خمارة صغيرة هناك يروح ويتردد بعض من أصدقائه من الأدباء.. هواة النظم والنثر، لكن زهدي عبد الكــافي كــان آنذاك يتحاشى الجلوس على المقاعد الخارجية للخمارة الصغيرة رغم انه يبحلق بعيون نهمة وغزل صامت - من طرف واحــد طبعا- ينظر إلى تلك الفتاة الحلوة الإيطاليــة الجالســة علــى "الكيس" تعد القروش والكؤوس..

كان ينتظر قدوم السيارة عند المحطة في دوريتها ومشوارها الأخير في هذا اليوم.. فالساعة تقترب من التاسعة مساء، وكان آخر موعد لها.. وإن تكرمت وكان السائق بحبوحــا التاســعة وعشر دقائق وإلاّ فذنبك على جنبك حسب مزاج السائق المتعكر والمتنرفز دوما حسب الجو.. جو الطبيعة أو الجو النفسى.

وفى ذلك اليوم كان الشاب زهدي عبد الكافي لم يذق غذاء.. وفى الصباح لم يفطر إلا على جرعات شاي مع كســرة خبــز

يابسة.. لا بريوش.. ولا بسكويت أيها المترفون ومع ذلك ألقى ثلاث خطب.. إيه والله.. ولم يشعر به إنسان.. إنه لم يتناول غذاء.

واكتفى أولئك الناس الطيبون بالسلام والعناق والاحترام والثناء على مقدرته وموهبته الخطابية ولم يشك لهم حالته.. وتجامل.. وتحمل.. وقد عزمه ذلك الطيب الثري القاطن في آخر الضاحية دعوة عشاء.

واستحى الشاب زهدي عبد الكافي أن يذهب إلى ذلك الداعي باكراً.. وفضل أن يذهب بعد صلاة العشاء.

وكان الناس ما زالوا يحافظون على مواقيت الصلاة بدقة يقولون في ضرب المواعيد والتوقيت.

بعد الظهر.. عند صلاة العصر.. قبيل المغرب بعد العشاء.. عند الفجر.. الخ.

تواقيت قد لا تحتاج إلى ساعة يد.. ولا ساعة حائط.. بل مزاولة إيمان وارتباط بحس ديني طيب.. تكاد تنقرض ظاهرة التوقيت حسب مواعيد الصلاة.

وقف عند المحطة ينتظر قدوم السيارة الأخيرة.. وحرصا على أن يأتي إلى المحطة قبل توقيتها بقليل.

وصدفة.. والصدفة تأتى في الخير وتأتى في غيره- لمح

ذلك الأديب الفيلسوف.. أو المتفلسف.. متفلسف مثل شغال.. متأكل.. متنافر..الخ.. أهو الذي يتكلم مقدار ساعتين في ساعة.. وانفلت صنبور لسانه بالتدفق الكلامى، وخر وانساب في انسيابه - لا أقول مثل قربة مثقوبة- لأن القربة المثقوبة محدودة ينتهي ما بها.. أما هذا الصديق المتفلسف لا ضابط لانسيابه وتـداخل كلامه.. إذا لقيك في الطريق يجب أن تلغى جميع المواعيـد.. والمشاوير..

وسعيد المتعجل الذي لا يصادفه أو لا يعثر عليه في الطريق ونصح أحدهم أن يركب أصحابه ناظورا ليروه عن بعد حتـى يتحاشوا كلامه.. وتعاليقه وتشاعيبه.

- أهلا.. سلمات..

وخبط يده.. بكف ثقيلة.. ليتها على وجه الأعداء.. هل لابـد في التحية والسلام والترحاب من ضرب هذا الكف الثقيل، وهز اليد حتى كاد يصهرها ويدميها.

- أهلا.. أستاذ زهدي كنت رائعا في خطابك.. يـا سـلام صحيح جابت أمك.. ياليتها جابت عشرة.. ترى هل هي قطة أو جروة أو أرنب حتى تلد عشرة؟!

وقال زهدي في دخيلة نفسه:

- ألا يكفي واحد تعب جائع في وسطكم.. تريدون عشـرة.. لا قدر الله؟

وطفق يثنى ويرحب.. ويقول:

- أدميت أكفنا بالتصفيق.. رائع يا أستاذ.. تعلمت الخطاب أين؟!

وكان الشاب زهدي عبد الكافي مشغولا بمراقبة الطريق مخافة أن تأتي السيارة ويغلق بابها قبل أن يضع قدمه على سلمها.. وخاصة أنها آخر سيارة هذا اليوم.. وازدحمت المحطة بأشكال وألوان.. قبعات وأروام وعمائم وشيوخ وعمال مقطع الحجر.. وعجوز حملت "صايبة" قد تكون فى قفتها.. أو شمالتها ما تخاف على تكسيره أو جرة سمن أو زجاجة عسل تخاف حذرة أن تندلق ولا تخاف على ملابس الناس.. إنما تخاف على بضاعتها.

وأحدهم حمل عنزا صغيرة فى غمره ويهدهدها لتسكت ولو لحظات.. في غمره كصغير عند مربية أو أم.. ترى يخاطبها.. هل تفهم لغته أم هو الذي يفهم لغتها، والملاحظ أنه غطاها بطرف من عباءته ليداريها عن عيون السائق وقاطع التذاكر وعند ركوب وإقلاع السيارة يكشف عن وجه عنزه ويصبح أمراً واقعياً يتحمله على مضض قاطع التذاكر "الكمسري".

وعلى المحطة سكير.. مدمن.. مدندن يريد أن يروّح قبل أن تنفلت آخر سيارة..

وهذا صاحب المسبحة الذي يحوقل ويسبح ويستغفر بصوت مسموع.. ويخشى ألا يكمل ورده.. لماذا لا يسبح بصوت خافت خاشع أم يظن أن الملائكة لا تسمع الهمس.. أم الصوت المرتفع أثر من آثار حلقات الذكر، ألوان وأشكال.

وصاحبه مازال في حواره الذي فتحه:

- تعرف يا أستاذ زهدي.. مذهب أفلاطون والأفلاطونية.

- تقصد الحب الإفلاطوني.. أنت رومانسي يا أستاذ.

وهنا قهقه بلا داع للقهقهة.. وقال وهو يهزّ رأسه وكتفيه ويديه.. وطبعاً وشفتيه.. مادام قد هزّ رأسه:

- لا.. لا.. أنت يا أستاذ زهدي أديب خيالي.. أنت يصح أن يقولوا عليك حالم.. هايم.. شاطح رايح دائخ.. أنت دائما تتحدث عن الحب حتى عندما نجرك إلى حديث الفلسفة.. أنا درست أفلاطون وآراء أفلاطون لا يوجد شيء في الحياة اسمه حب أفلاطوني.

وتململ الشاب زهدي عبد الكافي وهو يراوح ما بين قدميه ويتطلع مخافة أن تفوته السيارة.. وتمنى أن يقطع.. أن ينهي هذا الحوار.. ولكن حضرة الأستاذ الأفلاطوني مد يده وأبرز سيجارة من نوع وصنف يسمّى "سبيريا".

- خذ دخنٍ.

قال الأستاذ زهدي عبد الكافي:

- شكراً أنا لا أدخن.

- لكن رأيتك تدخن.. النرجيلة شيشة.. هل هي أحسن.. هل تعزمني غداً أدخن معك نرجيلة.

- حسب الظروف..

ونفث الأستاذ الأفلاطوني الدخان في وجه صاحبه بدون أن يراعي الذوق.. وهل هناك طعم للدخان مع الجوع، وعصافير بطنه تكاد تنقر محتجة على عدم تقديم الغذاء لها.

- يا أستاذ زهدي.. التدخين ولوازم أخرى للأديب والفنان.

- كيف الحال يا أستاذ؟!

- أهو عايشين قوت على الموت.. لكن قولي يا زهدي - هذه المرة طيّر كلمة أستاذ ورفع التكلفة شأن الثرثارين- نحن كما نتحدث عن اتجاه أفلاطون.. والافلاطونية أقصد عالم المُثل.. يرى أفلاطون بعكس سقراط وأرسطو أن هناك عالم المثل فوق عالم الماديات والمحسوسات.. كل هيكل في عالم المحسوسات له نموذج يماثله في عالم الفوقيات..

وارتفع صوته كأنما هو أستاذ في مدرج مزدحم لا على رصيف محطة.. ولوّح بيده كاد يدوس قدم عجوز إيطالية واقفة بجانبه يبدو أنها تريد أن تطلع الرصيف، وصرخت من شدة قدمه واعتذر لها بلغة إيطالية ركيكة يبدو أنه تلقاها وتلقفها من

والده عندما كان مجنداً مع الطليان، عندما كان يسكن والده في كامبو باب عكارة.

ثم التفت إلى "زهدي عبد الكافي" وكاد فمه يقترب من خيشومه وعاود كلامه عن أفلاطون.

وزهدي كان ذهنه شارداً يرقب بعينيه الحائرتين قدوم السيارة.. لقد تأخرت قليلاً.. ستقدم في رحلتها من قرقارش ثم تقف بالقرب من جامع – سيدي حمودة – في ميدان الشهداء قرب المسجد في شارع عمر المختار.

وبعد خطوات من تلك الحانة الإيطالية.. طبعاً لأنه ليس هناك عربي يفتح حانة وإن كان أكثر زبائنه من العرب يبدو أن المحاور الافلاطوني كان يريد دخول الحانة لكنه عندما شاهد الأستاذ زهدي عبد الكافي أثار الحوار الفلسفي معه.. وهو من نوع تلك الأنماط التى تشوشت معلوماتها نُتفاً من الأدب ونتفاً من الفلسفة والتاريخ والفن.. كان يقول عنهم الأستاذ / زهدي عبد الكافي: "هؤلاء أدمغتهم مثل سلة مهملات بها أوراق مبعثرة منوعة من الدشت".. وتحمل على مضض استعراضه ونثر معلوماته بلا داع.. وهذا النوع يربكك عندما يحاصرك بثرثرته ولا يراعي ظروفك أو مزاجك وحالتك النفسية.

تأخرت السيارة قليلاً.. وحمد الله على أنها تأخرت ولم تـــأت في موعدها حتى يفرغ هذا الثقيل ويكمل حواره معه.. وسايره.. وتظاهر بأنه يستمع إليه.

وخشي أن يكون التأخر لعطب في السيارة العجوز المتهالكة إذا ماذا يصنع الليلة.. والعشوة في انتظاره أو في انتظارها.

وقال الأستاذ "زهدي عبد الكافي" ليتظاهر بالاهتمام:

- نعم أفلاطون يرى عالم المثل.

وقبل أن يكمل جملته قاطعه قائلاً:

- لكن أنا عكس اتجاه أفلاطون.. وأنا أؤيد أرسطو.. وحكاية الافلاطونية مثلما رسمها فـــي جمهوريتـــه أقرأتهـــا؟! مائـــدة أفلاطون.

وأجاب زهدي عبد الكافي قائلاً:

- طبعاً قرأتها زمان..

- زمان.. لابد أنك نسيتها.. ويرى أفلاطـــون أن المثقفـــين طبقة وحكاية الطبقات وصراعنا ليس جديداً في عالم الفكر.

وعندما نطق بكلمة مائدة.. تذكر الأستاذ "زهدي عبد الكافي" أنه جوعان، هذا اليوم من الصباح لم يتناول شيئاً سوى كســـرة خبز يابسة مع الشاي القاتم.. وها هو ينتظر السيارة العامة إلى حيث منزل ذلك الكريم الوجيه الذي دعاه إلى العشاء، ســـيكون بلا شك عشاءً ساخناً به شوربة وقطع لحم وفاكهـــة الموســـم..

وأكواب من الشاي، وجبة دسمة شهية تعوضه عن متاعب اليوم.

وطفق المحاور يحدثه عن عالم المثل.. عن أفلاطون ومائدة أفلاطون التي كتبها تلامذته لا هو.

وتأخر المتحدث قليلاً.. وهو من ذلك النوع المتحرك أثناء الكلام.. كأنما يتكلم بيديه ورجليه.. وحاجبيه فضلاً عن لسانه وشفتيه.

تحرك قليلاً ليضغط على بعض الكلمات حول أفلاطون وآراء أفلاطون.. وفى لحظة لكز كوعه رجلا آخر.. ولكن تراجع عندما نظر إليه ورآه عملاقاً ضخماً شمشونياً.. لو اتكأ عليه لسحقه، لو مال إليه بطحه وهرسه.. كما يهرس بابور زلط من المستعمل في إصلاح السكك علبة فارغة اعترضته في الطريق وبادر اتقاء الشرر من عينيه ويديه وقال:

- سيدي عفواً.. سامحني.. نشتك.. وابتعد عنه قليلاً خوفاً من رد الفعل اليدوي الذي لا تحمد عقباه.

وزم الشمشوني العملاق شفتيه المتدليتين ونظر إليه نظرة شزراء.. تحمل كل معاني الاستهزاء والسخرية، وهنا في حركة لاشعورية مد الأستاذ الافلاطوني يده إلى صاحبه.. وتأخر به قليلاً عن مكان المحطة أو علامة المحطة.. وأزاحه عن المكان الذي وقف فيه الأستاذ الشاب ليحجز مكانة في الصف الذي

سيتزاحم على باب السيارة.. باعتبارها آخر سيارة لهذا اليــوم وعددهم أكثر من المقاعد.. حتماً سيقف عديد مــنهم، لا بــأس بالوقوف والتمايل والتأرجح والخضخضة المهم الوصول.. المهم ألا تفوتهم السيارة.

جذب المحاور الأستاذ "زهدي" وهو يعــاود الحــديث عــن أفلاطون وعالم المثل.. وقضية تطبيق الفلسفة واقعياً والمقارنــة بين سقراط.. وأرسطو.. وأفلاطــون.. وبحركــة آليــة أو لا شعورية وجد "زهدي" نفسه بعيداً قليلاً عن المكان الذي سيكون في اتجاه وموازاة باب السيارة العامة عندما تتكرم.. أو يتكــرم سائقها بإيقافها عند علامة المحطة.

وطفق يتحدث مع الأستاذ عن فلاسفة الإغريق وقال:

- تصور سقراط لم يؤلف.

أجابه زهدي عبد الكافي:

- لكن صنع وألف تلامذته.. كثير من العلمــاء والفلاســفة صنعوا تلامذة وطلابا.. وخلقوا تيــاراً أو مــدارس فكريــة لا يوزنون بالمؤلفات.. إنما بالأثر وتكوين الأجيال.. لهم تلامذة.. حتى بعد أجيالهم بآماد.

كان زهدي يتكلم جاداً وموضوعياً.. وفوجئ بصاحبه يقــول له.. وهو على ما يبدو كان مدرساً متزمتاً فاشلاً:

- وأنا أيضا لم أؤلف وصنعت تلامذة وحواريين، وضحك ضحكة طويلة أو ضحكة قزمة بالنسبة لضحكاته المتواصلة، أستاذ "ذهني" هل تقارن بيني وبين سقراط.. هو درس وله تلامذة ولم يؤلف.

وأنا مدرس أكثر من ثلاثين عاما ولم أؤلف.

وهنا أسعفت القفشة أو النكتة الأستاذ "زهدي".. قال وهو يتململ:

- بقيت مسألة أخرى تجعلك مثل سقراط تماماً.

قال فرحاً.. بدخوله الدائرة السقراطية ماذا.. ما هي؟!

وضحك.. وهو يلبّي اقتراحه:

- اشرب كأس السم.

وبدل أن يغضب أو يتأثر أو يتململ أو يتأكد كما كان يتوقع الأستاذ إذ به يقول بكل صفاقة وبرودة.

- إيه والله.. حالة تجعلك تتجرع كأس السم.

وهزّ يد الأستاذ، وقال:

- لكن تصور لو شربت كأس سم لأكون شهيد فكر كسقراط فستقول عني الجرائد غدا "انتحار مجنون صعلوك في باب الحرية بطرابلس" وخلاص.

ونظر "زهدي عبد الكافي" إلى السيارة، ها هي قادمة في سير خطها من الشارع الرئيسي وستنعطف نحو ميدان الشهداء

قرب البحر.. وستقف قليلاً هنا.. وتنطلق إلى هذه المحطة حيث كان يقف في انتظارها على هذا الصف المتزايد ازدحاما.. وهو يكره الزحام ولكنْ للضرورة أحكام.. ليس له طريق للوصـــول إلى عشوته إلاّ هذا.

وقال مشيراً بإصبعه فرحاً بانفراج أزمة الوقوف والانتظـــار أو الخلاص من صاحب الحوار الافلاطوني.. واستحى أن يقول له – مع السلامة – لكن بطريقة أخرى مهذبة قال:

– ها هي سيارة قرقارش قادمة.

لكن صاحب الحوار الافلاطـــوني مـــازال متســـمراً علـــى الرصيف عند المحطة وقال في لكاعة وصحة بهت:

– لا يا أستاذ زهدي.. سلامة النظر هذه سيارة نقـــل نبـــات الحلفا وليست سيارة قرقارش.. أنت تعرف سيارة النقل لحركـــة النسر عليها علامة وتكبكب.

قال الشاب:

– أقصد التي وراءها.. هاديك.

– ولا هاديك.. سيارة نقل الموتى.. أرأيتها سوداء وزجاجها عليه ستاير..

وحاول أن يبتعد الأستاذ زهدي عنه خطوات.. ولكنه تقـــدم نحوه وقال.. وعيناه ترمشان وشفتاه ترعشان:

- مازال فيه وقت.. نكمل الحوار عن أفلاطون وفكرته عن عالم المثل.. هناك عالم آخر في الفوقانيات واضطر الشاب المثقف إلى أن يقول بعد تردد:

- يا أستاذ خلِّنا في مشاكل اليوم والعصر للإنسان، تحدث عما يعانيه الشعب.. عن الجوع.. عن الغلاء.. عن مستقبل الأسر.. عن الشباب.. عن مخططات الاستعمار.. عن ثروات الشعوب المبددة.. ما لك وما لسقراط.. وأفلاطون، وأساطير الميثالوجيا. وهنا تقدم بخنشوشه نحو الأستاذ "زهدي" وبكل صفافة قال: بعد أن خبط كتفه بقوة حتى كاد يوقعه على الأرض:

- آه.. الأستاذ "زهدي" أنت ابن حلال أنا لي رأي في مُثل أفلاطون وعالمه، لكنْ هناك تشابك بين أرسطو وأفلاطون.. وأفلوطين.. وأنا مثلك أجنح للفلسفة الواقعية.. الحياتية.. الذاتية تلقائيا.. ولهذا مدرسة قورينا وارستيبوس كان لها تيار، وكل إنسان يدب ويأكل ويشرب له فلسفة في حياته حتى هذا..

وكان يتكلم بصوت مسموع للواقفين في المحطة.. منتظرين قدوم السيارة.. وأشار إلى قزم.. مدموك الخلقة من الواقفين لانتظار السيارة العامة مقفع الصدر تنّز عيناه دمعاً من غير دموع.. بشع.. قصير يكاد يلامس الأرض.. يمكن أن تضعه في حقيبة أو شوال إذا سافرت وتهربه من دفع تذكرة السفر.

وقال وأصبعه ترصده:

- حتى هذا لابد له فلسفة في الحياة.

وهنا تقدم أو تدحرج نحوه هذا الشبر المتدرج وقال بصـــوت لا يوافق ولا يلائم حجمه وكأنه شعر أن هذا بإشارته إليه كأنما يريد إهانته:

- لا باس.. أش فيه؟!

ولكن "زهدي" بطبيعته ومسالمته حـــاول أن ينقـــذ الموقـــف المحرج الذي سبب فيه صاحبه وقال:

- الإشارة بالإصبع ليست إليك إنما هو يشير إلـــى الســـيارة القادمة.

وطمطم.. وبرطم..

- ناس ما عندها لا دين.. ولا خلق ألا تعجـــبكم خلقـــة الله سبحانه.. هازيين على الخالق.. وإلا المخلوق.. ورفع ذراعـــه وهو أصغر من مغزل جدّاد وقال:

- والله لو ما هو عيب كنت اعفجك عفجا لكن أنا مشـــغول ومستعجل.

وفكر "زهدي" في دعوته معه للعشاء عند صديقه بقرقارش.. كاد يقول له: "تفضل معي".. لكنه تلافى الأمر وألغى الفكرة من مساحة فكره، والعرف والأدب يؤكدان أنه لا يصح ولا يليق أن

تدعو إنسانا للعشاء والمبيت وقد لا يستضـــيفه أو لا يستســـيغه صاحب البيت.. ليس من الذوق أن يكركر طفيليا معه مفاجأة.

لازال يدير أسطوانة أفلاطون وها هو يسأل:

- هل ترى حكاية المُثُل.. بضم الميم والثاء - عند أفلاطون لها تأثير عند علماء الفلك والصوفية وأهل الكرامات فيما بعد؟

مزج الفلسفة بالتصـــوف.. ومـــا وراء الطبيعـــة بالطبيعـــة الميثالوجيا.. بالميتافيزقيا.

وإزاء هذا الخلط والمزج من صاحبه اضطر.. أو وجد نفسه - الأستاذ "زهدي" - يتحدث باختصار وعيناه ترقبـــان قـــدوم السيارة.. أشار إلى العلاقة بين عالم المُثل.. والمثـــل الأعلـــى وعن الصلة بين التصوف والفلسفة.

قال صاحبه -

- أمال.. انفتح هكذا.. يا أخي علمك من يستفيد به هل تأخذه معك إلى الرمس.. هل تنشره يوم النشور!.

سمعنا.. نفع الناس به.. جننت عليك الخطابة فـــي الشـــوارع والنوادي.

وكانا قد ابتعدا خطوات عن محطة السيارة وســـمع صـــوتها يزمجر.. هاهي قادمة.. وكانت تسير بوقود النافطة.. "المازوت" له رائحة تسد الأنف.. فضلاً عمّا تثيره خلفها من دخان.

جاءت ومد يده مسرعا لتوديع صاحبه.. وهرول وحاول أن يزاحم ويمد رجله نحو باب السيارة.. لكن زاحموه حتى أزاحوه عن بابها لم تطل وقفتها في المحطة واستوعبت من استطاع أن يقفز في جوفها.. وانطلقت في آخر مشوارها اليومي.. بدون أن يركب وجد نفسه على الرصيف والساعة التاسعة والنصف وبضع دقائق.. وقف ذاهلاً مشدوهاً.. الحيرة، والجوع، والتعب، ويبس الريق من حوار مع متعنت مشوش المعلومات.

وكان قد ودعه هذا الصاحب المناكف ظناً أنه سيلاحق السيارة.. متمنياً له مشواراً ميموناً وعشاءً طيباً.. وأوصاه أن يهضم جيداً لأن أكثر أمراض المعدة من عدم الهضم الجيد.. أو البلع من غير طحن الأسنان.

وكان زهدي عبد الكافي.. لا يملك مليماً واحداً في جيبه يزيد عن ثمن تذكرة السيارة العامة وإلا كان عند ترك السيارة العامة اكترى سيارة أجرة من تلك السيارات الواقفة أمام السراي الحمراء.. القلعة بميدان الشهداء.. قرب التمثال النحاسي لسبتيموس سفيروس.

وكان عددها آنذاك لا يزيد عن خمس أو ست سيارات..

- وتوكل على الله وقرر أن يقطع المسافة مشياً كأنما هو رياضي محترف.. أو كشاف نشيط.

ما أطول مشواره من محطة السيارات التي كان واقفاً عندها إلى آخر محطة لها في طرف ضاحية "قرقارش" عند مقطع الأحجار.. ثم بعدها مسافة حوالي محطتين أخريين.. حيث منزل داعيه إلى العشاء.

ومرّ في طريقه بهمة وحزم قاطعا الشارع الغربي - متجها صوب ناحية "الحمامي" وعند الحمام الكبريتي.. (ردمه المغفلون والمولعون بالهدم والردم).

ومضى في طريقه في الشارع المظلم حيث لم تكن هناك فوانيس ولا إضاءة آنذاك.. والحوازات والبساتين تغطيها أو تحجزها الطوابي المتربة العالية المليئة بنبات "الهندي" التين المشوك.. والكلاب الشرسة نابحة على الطريق المترب وتخوف.. والخوف غريزة لا يمكن نزعها من شجاع ومغامر مهما غلفته الشجاعة فما بالك بإنسان أعزل في ليل مظلم خاوي الوفاض.. لا رفيق يخفف وعثاء الطريق..

وحاول أن يدندن بأغنية.. والأغاني زاد يخفف متاعب الطريق.. ألم يكن هناك الحداء، وأغاني القوافل لعن في خاطره، ذلك الافلاطوني الذي أضاع عليه فرصة ركوب السيارة.. كان قد وصل الآن وتعشى وارتاح.. كم يضيع الثرثارون من أوقات.. كم يفوتون من فرص.

وزاد من تخوفه وتوجسه قلة المارة أو انعدامهم في هذا "الطريق".. الفلاحون القادمون إلى المدينة يعودون بعد أن يبضعوا قبل غروب الشمس.. (والترمومتر) النفسي بين صعود وهبوط في درجاته.. وعلام يخاف.. شجع نفسه لو طلع عليه لص لن يجد لديه ما يأخذه.. حقيقة كما عبر المثل الشعبي الدارج "العريان فى القافلة مطمان".

وتوكل على الله واستمر في مشيه.. الحذاء الملعون طار منه خيط الرباط.. وظل الحذاء يتلقلق في رجله كان هو يحمل الحذاء لا الحذاء يحمله.. يجره جراً.. لا يستطيع أن يسرع به ومن عادته الإسراع والهرولة في المشي.. خاصة إن كان الوقت ضيقاً..

الذي اخترع الخيوط للحذاء لابد أنه يريد أن يعاكس الناس ما أريح المداس أو البلغة أو الحذاء بلا خيوط..

وما زاده تنغيصا وتعكيراً وهو يمشي في الطريق المظلم الموحش والصمت الكئيب.. صمت إلا من عواء وهرير ونعيق الجنادب.. نغّص عليه.. انسلاخ كعب الحذاء وضياعه في حفرة.. كدمته.. وظل يعكز في مشيته..

وليس له إلا أن يواصل السير.. ولولا الحصباء والأشواك والطريق المترب لخلع حذاءه وسار ماشياً.. حافياً

متى يصل إلى بيت داعيه؟.. المسافة ستستغرق أكثـــر مـــن ساعة ونصف.. هل يجري.. لا أحد يسير في الطريق

لكن هذا الصمت.. والظلمة والريح القادمة من عنـــد البحـــر يبعث كل هذا الرعب في نفسه..

وشاهد بصيصاً يلمع ويبرق من بعيد.. لابد أنه شيء كائن.. أو يدل على كائن.. يبتعد.. يقترب.. يختفـــي لحظـــة ويظهـــر لحظات.. وخطر له أو تصور.. ربما يكون عفريتاً.. غولـــة أو من فصيلة الجن.. مكان خالٍ موحش.

قال الرواة.. والعارفون لهذه المنطقة: إن شخصاً قتـــل منـــذ سنوات هنا يظهر شخصه.. وينطقونها "شُخص" بضـــم الشـــين ويظهر بعد منتصف الليل وقبيل الفجر لكن طمأن نفســـه بـــأن منتصف الليل مازال لم يأت بعد، وقد يكون هذا الشعاع المتقطع والضوء البعيد إشارة من غطاس البحر أو من البـــاحثين عـــن الإسفنج في قاع البحر، أو لعل الضوء المتقطـــع مـــن عمـــلاء التجار الذين يهربون البضائع مـــن تـــونس.. وميـنـــاء زوارة.. ويصلون بها إلى شاطئ جنزور وقرقارش..

لكن ما له وما لهذا العذاب الافلاطوني الذي أضـــاع عليـــه فرصة ركوب السيارة.. وبالتالي أضاع العشوة.. وكانت النتيجة هذا المشوار الذي ما كان يخطر على البال، والذين لا يؤمنـــون

بالمقادير ليتهم يقعون في مثل هذا المأزق ويتكبدون عناء هـذا المطب.

وسرح به تصوره أو دفعه جوعه إلى التخيل.. لابـد أنهـا عشوة دسمة.. مبطن.. وشوربة.. وحرايمي ومشبهات.. الحوت موجود بكثرة.. ووفرة في منطقـة قرقـارش، أهـل المنطقـة ماهرون في صيده.. وأهل طرابلس مشهورون بالتفنن في صنع أكلات الحوت شأن أبناء السواحل والشواطئ.

والمائدة التركية لها أثر في المائدة الطرابلسية..

المائدة.. وقرقرت مصارين بطنه..

وربنا سبحانه أنزل في القرآن سورة المائدة..

ويقول بعض من أهل التفسير أوصافاً في المائدة التي هبطت من السماء.. أمعقول مائدة تهبط من السماء.. لابد أنها معجـزة والمعجزات فوق التصور العقلي أو المنطق العادي!.

هل هي أحلام يقظة.. أم خترفات جائع؟!

وهل أحلام اليقظة تحاصر الماشين المتعبين كمـا تحاصـر الجالسين والمنتظرين؟

ههه.. واستمر في سيره.. شـيء مـن الصـبر والعـزم.. وسيصل إلى منزل صاحب العشوة.

قال ماوتس تونج مأثورته "ألف ميل تبدأ بخطوة".. ومن قبله صاغ ابن الوردي وغيره مثل هذه المعاني "من سار على الدرب

وصل".. وذلك الماشي على قدمه أو على ظهور ابل آلاف الأميال "لابد من صنعاء وإن طال السفر".

وهذا طريق طرابلس قرقارش كم قطعه حجاج من أقصى المغرب متوجهين إلى مكة.. للحج.. سباسب قطعوها..

فليصبر ساعة ونصفا ويصل إلى مبتغاه..

لابد من العشوة وإن طال المسير.

وسيقدم له مع الأكل اللبن، مشهورة به قرقارش.. وجاء في تعابيرهم في خريطة المأكل "يا تمر سيوه.. يالبن قرقارش".

لكنْ لبن مع سمك.. ما يستساغ.. قال النحوي في شواهده وضوابطه "لا تأكل السمك وتشرب اللبن".. لكن هذا النحوي لم يكن طبيباً.. ولا دكتور تغذية.

وشاهد عند منحنى طريق جانبي قرب (حوازة) مورقة الأشجار شبحاً يقترب منه.. وتماسك نفسه.. وتبين أنه عسكري في يده مشعل يدوي (بطارية).. العسكري يتفرس فيه ويسأله عن وجهته.. وعندما أجابه تأمل في شخصه ثم قال له:

- مع السلامة.

نزلت هذه العبارة برداً وسلاماً فكان يستطيع أن يعطله أو يبهدله لكن يظهر أنه من دورية تطارد إنسانا أو مجموعة.. ماله يسأله.. لماذا تسألني وإلا وقع في حيص الشرطة وبيصها.

ما أطول الطريق.. أو ما أبعد العشوة.

وتذكر رسالة صغيرة عندما كان يقرأ التصوف ألفها شيخ يسمى الجهني عنوانها طريف يناسب مشواره هذا بالضبط هكذا "هم بطني عبطني".

ومرت سيارة فارهة.. في سرعة مذهلة.. لم يتكرم السائق بسؤاله.. وكيف يسأله وهو لم يشر إليه بيده.. يبدو أنه من الذين أثروا فجأة، باع أرضا أو استغل ثمار أرضه.. سيارة مجنونة في سيرها..

إيه السيارة تلملم المسافات في لحظات.. نعمة الحضارة هذه المخترعات نتاج الفكر والحضارة.

المدنية.. الحضارة تقرب المسافات تختزلها.. وقد تختزل حتى الأعمار.. هههه.

ومر على أطلال.. ركام وآثار.. قالوا قراقوش كان هنا..

طارد وطُورد.. وتسلطن وتحكم.. ذهب هو وبقيت الأطلال، وركام قصر.. هذا الذي ظلمه التاريخ أكثر مما ظلم الناس.. يحتاج إلى رد اعتبار..

وعند مدخل إحدى المزارع لاحظ مجموعة أمامهم موقد الشاي يظهر أنهم من سهرة الليل جالسين على أحجار اتخذوها بمنزلة مقاعد وبعضهم افترش حصيراً.. وأطلق عليهم السلام.. وكان ردهم في صوت جماعي.. كأنهم "كورس" ردادة رداً

ممطاً منغماً.. فيه ترحاب بهذا الماشي في الليل وحده.. وعلــى أقدامه.. لا حمار.. ولا كاليس.. لا دراجة.

وأقسموا.. والقسم هنا دليل الإصرار وعلامة الكرم:

- لابد تشرب طاسة شاهي.. هي جاهزة.

لكنها كانت مُرّة.. مربربة.. مُعقدة. مكشكشة.. وعلى الخواء تجرعها.. إن تقديمها إكرام له.. وإن رفضها إهانة لهم.

ليتهم قدموا له كسرة خبز.. واستحى أن يطلب ذلك.. وكــاد يقول لهم:

- أريد أرتاح أنام عندكم الليلة..

ولكن صمت متصابرا.

وعلى ضوء القنديل الخافت تفرسوا في وجهه.. وكان لابــد من سؤال لتكسير طوق الصمت.. ولمعرفــة أيــن مقصــده.. وعرفوا أنه ليس من سكان هذه المنطقة.. ولكنه على كل حــال مواطن.

- إلى أين...؟!

- ذاهب عند الحاج....

وذكر اسم داعيه للعشاء.

وأثنوا عليه... رجل معروف وطيب ومن الأعيان وحالته لا بأس بها بجانب المزرعة عنده مقطع حجر ومصبغة وعدد من الأنوال.

وقالوا:

- إن بيته ليس ببعيد مقدار نصف ساعة أخرى مشيا.

وقال:

- يا مسهل يا كريم.. هانت..

وأطلق السلام مرة أخرى لتوديعهم وشكرهم على كوب الشاي المر.. الذي قد يطيّر النوم لكن قد يقطع مصارينه وواصل مسيرته.. بعد ساعة كاملة لم يصل.

لكن الأمل راوده.. لقد ظهرت السانية.. المزرعة من بعيد.. لكن الساعة الآن الحادية عشرة.

هل معقول أن يكون الحاج الداعي في انتظاره؟!

إنه رجل محافظ.. دقيق منظم يتعشى ويتمطى وينام باكراً ويصحو باكراً.. قبيل الفجر يكون متهيئاً لوضوئه وصلاته..

هل من الأدب الذهاب إليه الآن؟!

ولكن أين يذهب بعد أن قطع زهاء ساعتين في هذه الرحلة المضنية.. وقارن بين دافع الذوق.. ودافع الجوع.

والجوع لا يرحم.. لا بأس ها هو يخطو نحو بيت الرجل الكريم المضياف.. ألم يكن هو في انتظاره لابد أنه أوصى أحد أولاده أو خدمه بالعناية بالضيف القادم.. هكذا تصور.. كما تصور لون الطعام ونوعه.. بل ورائحته.. وحاسة الجوع أو

الإحساس بالجوع تحيك كثيراً من التصورات.. إذا زادت عن حدها قد تصل إلى نوع من الهلوسة والخترفة.

وعند البيت أو القرب منه.. كانت وقفته.. وهناك صمتٌ.. إلا من كلاب تنبح من بعيد نباحاً متقطعاً ويجري بعضها وراء بعض..

كل شيء في المزرعة والبيت هادئ ودار حول البيت.. هل يخبط على الباب؟!

الساعة الآن الحادية عشرة والنصف، بقى على منتصف الليل نصف ساعة.. وهذا يعتبر وقتاً متأخراً في تلك المناطق.. وعند هؤلاء الناس.. ووقف مرتبكاً في صمته وتردده..

لكن لا يعقل أن يظل واقفاً هكذا، وخاصة أنه ليس من أبناء هذه الضاحية.

هل يخبط الباب؟.. هل ينادي؟.. هل يصفق معلناً عن وجوده.. كان البيت في وسط المزرعة.

أين الخادم، لعل عنده خبرا.. نصف الليل يقترب ولا أحد، آه لولا الحوار الافلاطوني لحملته السيارة باكرا وفي الموعد.. ألم يكن طعام وادام.. على الأقل يتمدد برجليه. ويريح رأسه على الوسادة. ولا شك أن الرجل سيعوض العشاء بفطور وغداء إذا رآه لن يتركه. وصدفة وجد الخادم في المزرعة، ها هو.. وأطلق عليه التحية..

- سلام عليكم يا حاج مرزوق.. وكان الخادم العنتلي من الذين يفهمون على السابع أو العاشر.. وهو جاف الأسلوب ونظرته كيديّة توجسية.

ولم يردد السلام ولم يجامل بالتحية، قال عبارة مقتضبة..

وكان قد شك فيه.. هذا الذي يطرق المكان في منتصف الليل.. هل هو لص.. أو خصم من خصوم الحاج؟!

- وأجاب عن تساؤله بأن اسمه (زهدي عبد الكافي).. ولم يقل له أهلاً ولا سهلاً.. بل قال :

- آيش فيه.. آيش تعمل هنا؟!

- أريد من الحاج...

واستحى أن يقول جئت للعشاء وأنه معزوم بل قال:

- عندي موعد..

- نص الليل.. خلّو الناس ترتاح.. تعال غدوة وعلى أحسن الفروض ظنه مشترياً أو سمسار خضرة، أو يريد شراء أحجار من مقطع الحجر "بلوك".. "رشاد ".

- أريد الحاج، قولّه وقدم بطاقة باسمه.. كانت مبللة من عرق المشوار.. ساعتان وهو يمشي.. حتى بدلته ممكن عصرها من العرق، خذ هذه أعطيها للحاج قولّه الأستاذ حضر حسب الموعد..

- وبكل برود قال الخادم.

- الورقة أعطيها له هو.. يد بيد خليها عندك!

- طيب.. كيف أعطيها له؟!

- تعال بكرة، غداً.. وأنا نبلغه الصبح فيه واحد سمسار جاي.

- أنا مش سمسار ولا تاجر..

- أمّال تخدم في السراي.. والا خدام نهار؟!

- يا أخي أين الحاج؟!

سيدي الحاج تعشّى هو وجماعته ورقد.. نام بكري ليه ساعتين راقد وأنت أش تكون؟!

ولم يجبه من يكون.. هل يقول له إنه معزوم على العشاء وفاته القطار.. أو فاتته السيارة.

- قلت لك.. الحاج راقد راهو في سابع حلمة.

والمشكلة أطلت منها مشكلة أخرى.. أين ينام..؟

هل يطلب من هذا الخادم أن يبيته عنده في كوخ بالمزرعة؟!

لا يليق.. وذهب إلى بعيد قليلاً حيث المسجد وساحته تظل مفتوحة.. متسعة.. لا تغلق.. كم آوت من بشر وغرباء لم يجدوا مأوى.. وتكوم عند سدة ساحة المسجد متوسداً يديه.. خاوي البطن.. لاعناً ضياع العشاء.. والحوار الافلاطوني.

□ □ □

محرر الصفحة

●●●

- ترى هل تضعه في قائمة المتفائلين جداً.. أم في دائـــرة المتشائمين جداً؟.. فهو من طراز في تحسسه.. وتوسوسه يلفت نظر الدارسين والمهتمين بالظواهر النفسية.

يكره الموت - وهل هناك من يحبه - لكن كراهيته بصورة مبالغة.. يكره الفناء.. وما يتصل بالرثاء والأحزان.. يتشاءم من بواعث الآلام.

فهو من ناحية متفائل.. يقبل على الاستمتاع بأطاييب الحيـــاة إلى حد النّهم.. شغوف بالمتعة واللـــذة.. واســـتطعام الحيـــاة.. لهوف.. شغوف.. يتمنى ألا يكبر.. ولا يهـــرم.. ولا يشـــيخ.. ويود ألا ينحني ظهره.. وألا يتجعّد جبينه.. أو يتخدّد وجهه.. أو تظهر عليه علامات المشيب. يتمنى ألا تقســـو عليـــه أصـــابع الزمن.

فهو لا يريد أن يحدودب ويتقوس مثل جاره "الحـــاج عـــامر العموري".. وألا يجر رجليه متفحجا كجـــاره "الحـــاج ســـلامة القنين".. وألا يصبح مثل ذلك الثري الزنقيل، فرغم ثرائه.. تراه مطرما.. مهموما بوزه يكاد يلامس الأرض وطرمة شـــفتيه لا تعرف الابتسام.. بعـــد أن كـــان مشـــدود القامـــة.. عنجهـــي الخطوات.. هلوع الرغبات رغم طوافه على مستشفيات العالم.. أصبح لا يتذوق شيئا من مطاعم الحياة ولا يستطعم لذائـــذها..

محروما مأزوما.. سيترك ماله للورثة ويغدو أثرا ولا أثر لـــه، حفنة من تراب تحت ركام من الأحجار.

عوامل الزمن أقسى.. وقانون الطبيعة لا استثناء ولا وساطة ولا محاباة.. الزمن أعتى.. ومهما قويـــت الشـــجرة وأينعـــت الثمرة.. وازدهرت في الربيع تتوالى الفصول. ويأتيها الخريف وتحاصرها وتجرفها عواصف الزمن.

كان يرعبه.. ويخوفه.. إذا خـــلا بنفســـه وتأمـــل.. قـــانون الزمن.. وعوامل الطبيعة.. فيحاول أن يسلي نفسه ويسري عن نفسه بالابتعاد عن التفرّس في مرآة الزمن يتسلّى.. يتهـــرب.. يغطس شغوفا بالحياة.. والاستمتاع ما أمكن له.

ماله ومال للمنغصات.. المشوشـــات.. المكـــدرات. يرتـــاح للكلمة الطيبة.. والأكلة الشهية.. والقعدة المريحـــة.. والوجـــه الصبوح.. ويرتاح للفأل الحســـن.. يشـــرق وجهـــه وتنبســـط أساريره.. وتلمع عيناه بوميض التفـــاؤل.. يتـــدفق الـــدم فـــي عروقه.. وكأنما بواعث الأمل إبرة مقوية.. أو حقنة ونوع مـــن المصل الحيوي.. شحنة معنوية مغذية.

لكنه عندما يسمع - ولو صدفة - كلمة أخرى فيهـــا ذكـــر للموت أو إشارة للفناء يتأثر ويتنغص، يتفاعل بالأسى واللوعة.. فتراه.. وتشعر من سلوكه أنه يتهرب من الـــتجهم والتقطيـــب والحكايات والمرويات المنكدة المنغصة.

يتطير.. يتململ يتنغص كأنما هو يمشى علـــى بســـاط مـــن الشوك أو يتقلب على فراش من الحسك والقتاد.

وكأنه ينسى أو يتناسى - أن الحياة لا يمكن أن تكـــون ذات وجه واحد في دائرة المرآة - بل هي صور الحياة فـــي مـــرآة الوجود ذات وجهين ومذاقها واستطعامها.. وكؤوس.. وفـــؤوس أيضا تراها من هنا. أو من هناك.. وتتذوق من هـــذا أو ذاك. لكن كبر معه الحس المؤرق.

إذا رأى حادثا أو شاهد موكب جنازة.. ولو من بعيد.. فضلا عن السير فيها تنغص وتململ.. أو لو سمع ولولة مـــن بعيـــد يتنغص ويكره أن تقع عيناه علـــى تلـــك الجوقـــة أو الســـرب بعكاكيزهم اللاصقين بالمنادب ينفر من إنشادهم وأصواتهم سواء في ذهابهم أو إيابهم.. أو تلصلص آذانهم المعرشـــة المطنشـــة لصوت صراخ.. أو ندبة عزاء.

هو يتمنى أن تكون الحيـــاة زهـــواً.. ولهـــواً.. وضـــياء.. وحبورا.. وهدايا.. وعطايا وطعاما حلو المذاق.. وشرابا مـــن حلو الشراب، وأين يجد هذا السرور الدائم.

ويكره شعر أبى الحسن التهامي القائل ضمن ما قـــال فـــي لوعاته وعصارة أحزانه:

ومكلِّف الأيام ضد طباعها ∴ متطلب في الماء جذوة نار

وهكذا كان من طبعه التهرب.. وكون له عالما خاصا بنفسه بعيداً عن المهلكات المنغصات ومزعجات الليالي الطاردة للطيور من أعشاشها، وأنكاد النهار المرهقات لبني الإنسان... الحياة هبة ثمينة لماذا يبعثرها في الأحزان.. ويبددها في التلوعات.. ويبخرها في أتون التحسرات والآهات والزفرات، ويطحنها تحت سنابك الآهات.

- يكره الآهات.. إلا آهة التطريب والغناء. وآهات النشوة والانسجام. في حياته لم يشاهد (فيلما) شريطا (دراميا)، أو مسرحية نكدة.. وله في هذا منطقه ومبرره الذي أقنع به نفسه قبل أن يقنع به الناس.. أو يود أن يقتنع به الناس.. أو يضعه أمام أو عند مؤلفي هذه الأشرطة ومخرجيها.

- الإنسان يدخل قاعة المسرح والسينما للتفرج والتلهية للترفية عن النفس.. يسعى المتفرج والمشاهد للمرح والفرح لا للغم.. والدموع والتأزم.

يريد أن يلهو ويتلهى ساعة.. ماله وللمآسي والهلوع وأنواع (التراجيدا) والدراما.

- وهو رغم ثقافته كان يلعن قدماء الإغريق في المسرح وفلا سفتهم وشعراءهم الذين غرسوا في فن المسرح والنصوص ألوان (الدراما) و(التراجيدا) والمأساة وما تفرع منها في عصورنا.. ويقول لزملائه عندما يجرهم الحديث عن هذا.

- هل أشترى تذكرة من جيبي.. وأقتطع ساعة أو ساعتين من عمري، وأذهب ساعيا بقدمي لأقضى فترة أشاهد منغصات ومآسى. لأزفر زفرات.. وتسيل مدامعي وأتنكد.. وأحيانا كما حكى عارفوه وتندّر خلانه الراصدون لخطواته والمتتبعون لمدارج حياته.. يتندرون في سرد ما يعرفونه عنه.

يقطع تذكرة ويقبع على الكرسي لأنه شاهد في لوح الإعلات ممثلة في الرواية جميلة الشكل حلوة التقاطيع.. مائسة القدأوكما رسمت صورتها في تصوره.. صبوحة مغناجة.. رقراقة فتانة.. يقبع متابعا أحداث الرواية مسرحية أو شريطا.

يقطع مرحلة في المشاهدة وعندما يدرك أو يُفاجأ أن المواقف في القصة تؤدي إلى صراخ ودماء ومآس وأشلاء وعياط ودموع وتشنج أو على الأقل إلى تحسر.. وتجاوب مع طرف منكود.. أو تؤدي إلى شدّ التلابيب وخرشمة وخربشة هنا يتسلل متسرعا في خطو متحسسا طريقه ولا يعتذر لمن يلكزه بكوعه أو يدوس علي قدمه برجله عندما يخرج في ظلمة القاعة.. ويتحسر. ويتوحوح على القروش التي دفعها وخسرها ثمنا للتذكرة.. وطارت هباء.. ويلعن الإعلان وصاحبه.. ويستمر في خطو. وزومه لاعنا المؤلف والمخرج وصاحب القاعة أيضاً.. ومن أشار إليه ونصحه بدخول القاعة ومشاهدة العرض ومتابعة الشريط.

- وقالوا له عندما كان يتلهف على القراءة والمطالعة :

- إن مصطفى المنفلوطي خير من اهتم بهذا اللون من أدب الوصف والعاطفة.. وتصوير الدموع والحرقة والمآسي، والمنفلوطي اهتم بالعبرات والنظرات.. وثقافة الآلام، ولكنه أعرض عن هذا وأبى أن يشتريه أو يتصفحه ويتساءل.

- وهل أقرأ لا تفجع وأدمع؟!

والفواجع لديه وبمقاييسه ليست أدبا. والأدب والفن لديه وبحسب إحساسه وحسبانه يجب أن يكون فرحا ومرحا وحبورا وسرورا وانطلاقة أمل في الحياة لا أن يكون قرحا.. وترحا.. ونشيجا ونحيبا.

وحتى "مصطفى صادق الرافعي" أحب منه "أوراق الورد" وكره منه "رسائل الأحزان".. وأعرض عن ترجمة "الزيات" لرواية "آلام فرتر" عندما طالعته كلمة "آلام".

والتراث عندما نصحه أحدهم أن يقرأ منه أدبا وقدم له عنوان "دمعة الشاكي ولوعة الباكي" طوّح به ولم يقرأ منه سطرين. وتحامل على ابن الوردي عندما طالع: اعتزل ذكرَ الأغاني والغزل.. بل لعنه وسبه وقال لأصحابه:

- تصوروا اسمه ابن الوردي.. لابد أن يسمى ابنِ الشوك لأنه يدعونا إلى ترك الأغاني والغزل.

- وماذا يبقي لنا في الأدب إن ذهب الغزل والغناء؟!

سامحك الله يا بن الوردي.. مع أن ما نسب إليك من أقــوال ماجنة في صفحات شذراتك يندى لها الجبين.. يا بن الوردي.

- دع ذكر الأغاني والغزل... من يسمع هذا النــداء الــذي صدر أيام عجزه أو شيخوخته.

- وكان يهتم في مطالعاته بالغزل والوصف واللقاء، لكن إن وقعت عيناه على باب الرثاء.. والتفجع والبكاء يجتازه، ماذا يصنع بهذا الميراث من لوعات الرثاء.

إنسان ذهب ومات منذ مئات السنين.. ولا يعرفه ماله يقــرأ مرثية عنه.. ويتشنج في هذه الساعة من ليل أو نهار.. إنســان مات أو أميت في القرن الرابع أو ما قبله أو مــا بعــده حتــى عظامهم بادت وعصورهم انقرضت، أيقرأ الرثاء والندبة ويتفجع من أجلهم. أيجدد أحزانه بهذا؟

ماله وآداب المراثي والبواكي في غوابر الأسلاف.

ذكر أمير المؤمنين و أمير غير المؤمنين الــذي كــان فــي غوابر أيامه ودوابر لياليه وزهو سلطانه عاش حياته بــالطول والعرض، وشرب براميل وعــاش فــي الطيلســان والحريــر والماس.. كيف يزعمون.. ارتجت الأرض لموتــه.. لابــد أن طماعا أو منافقا قال هذا ارتجت الأرض لموت سلطان، أنــا لا أعرفه كيف أقرأ مراثيه بعد قرون.. وقرون طويلة.

• أبدل مطالعة "المنفلوطي" وأدب (الـدراما والتراجيـدا) ومدامع العشاق ومراثي السلاطين ولوعة الشاكي ودمعة الباكي بكتب الفكاهة ومجلات الخلاعة والمرح والتسـلية والترفيـه.. وضبطوه ذات مرة يهرّب مجلة "بلاي بوي" تحت إبطه وعلـى قول الرقيب في حزامه والله أعلم.

واهتم بمسلسلات ونشرات "ألف نكتة ونكتة" ولكنه لـم يضحك من هذه المسردات والتفاهات وإن ضحك عليـه بـائع الكتب وتاجر المطبوعات.

• والنكتة والفكاهة في حقيقتها تُسـمع ولا تقـرأ تـروى مشافهة ساخنة حارة ولا تنسخ في ورق غالباً.

كم من نكتة وأطروفة تسمعها في مجلس فرح وأنس ولحظة صفاء وتجلية.. من إلقائها.. وحرارة تفاعلها وإيقاع نبضـها.. تثير في نفس المستمع البهجة والضحك ولكن إذا قرأتهـا فـي كتاب أو صحيفة كانت باردة مثلجة، يظهر أن هذا لـون مـن الأداء والإبداع برع فيه أقوام آخرون، خفة الظـل.. وشـفافية النفس.. وسرعة البديهة وحب الاستمتاع بالحياة.. وسلبت هـذه الموهبة من أقوام آخرين ويبدو أن الناشر ضحك على المـوزع والبائع.

وضحك المؤلف على الجميع فالضحك والبهجة والمرح أشياء لا تتكلف ولا تلف في قراطيس، ليست مجرد كلام أو بضـاعة

تباع في ورق.. هي الطبيعة المعطـــاءة الزاهيـــة أو الطبيعـــة الجافة الهامدة الجامدة.

- ذات مرة شاهد أحدهم جمعا أمام منزله وخيمة مضاءة. وعربة "فنطاس" ماء وهي مناسبة على ما يظهر وظن أن قريباً له انتقل إلى الدار الآخرة.. وسافر أو سُفِّر إلى الرحلة الأبدية.

وهذا شيء طبيعي.. وممكن.. كلنا لها.

كلنا أمانة في كف القدر.. وأرجوحة القضاء.

كلنا على قائمة الانتظار.. لا أحد يسلم من منجل عزرائيـــل وإن تطاولت الأعناق.. وعزرائيل مترصد لا يعرف إجازة ولا عطلة ولا مجاملة وفحص الرجل بعينه المكان وما رآه وشاهده من بعد حتى تقدم نحوه وهو يحاول أن يقطب جبينـــه ويرســـم تكشيرة على بوزه ويأخذ سحنة المواسى ومد يده معزياً، وعيناه تفيضان بالدمع، كيف أسرعت إلى جفونه الدموع تترقرق.. ومن شفتيه تدفقت العبارات التي كان لا يحب سماعها.. ما كان منـــه إلا أن ذهب إلى بيته مهيضاً كسيرا كئيبا.. متأثرا.. مـــع أنـــه مجرد التباس ولكنه لم ينم لياليَ عدة..

- ذات مرة داعبت أصابعه مفاتيح المذياع.. والمؤشـــر دار على العديد من الإذاعات الخارجية.. كان يبحـــث عـــن أغنيـــة مرحة مسلية أو مطربته المفضلة.. تلهيه وتمســـح عنـــه أدران التعب وإذ به صدفة في تلك الإذاعة الخارجية يستمع إلى موسيقا

جنائزية "مارش" حزين.. فبادر وأغلق المذياع وأدار المؤشــر بسرعة حتى كاد يلتوي أصبعه والمؤشرة.. سواء مات مشهور أو مجهول أو ملك أو إمبراطور أو "تريــزا" رئيســة دولــة أو صعلوكة.. ماله وما للنكد في هذا الهزيع من الليل.. فــي هــذا الركن هَيَّأ مشموم الفل وكأسه المشعشع.. أين الأغاني التي كان يترنم ويدندن بها حتى خلوته..

"مرمرم زماني يا مرمر"

"هلت ليالي القمر"

"غنى يا قمري"..

ملاحظة: " القمري طائر ولأن القمر لا يغرد من الخطــأ أن تقول "غنى يا قمري".

ولما قالوا له عندما حكى صدفه الأصابع و "الســمفونية" إن ذلك مقطع من موسيقا عالمية شهيرة.. من يومها أو ليلتها قاطع شيئا اسمه "سمفونية" مع أن هناك ألوانا من المــرح والروعــة الفنية في تلك "السمفونيات".

ولكنه اشمأز من اللحن الجنائزى الذي سمعه صدفة، هل هذه موسيقا؟ تكاد دموع المستمع لها تهطــل وكــأن الأرض تميــد وتتزلزل، لحن جنائزي حزائنى.. وتراءت له الأشباح في ليلته النحسة.

- وذات مرة.. صدفة طارئة شاهد مشاجرة عنيفة.. شجّ فيها المتخاصمون رؤوسهم، وسال فيها الدم على الرصيف جاريا قانيا.. ولا دماء الأضاحي، وتجندلت على الرصيف أكثر من جثة، وتداخل المتشاجرون المتناطحون بالأدوات اللامعة الحادة!

وظلت أشباح المتصارعين والصرعى أمام ناظريه ومخيلته تطارده تلك الأشباح حتى في استراحته وخلوته ومنامه، وأخذ يقطع الشارع من طريق أطول ليصل إلى بيته متحاشيا المرور من الطريق الملتصق بذكرى مؤلمة ممضّة.

ويقول صاحبه متسائلاً:

- لماذا تتهرب، وتتجافى هذا الطريق، وهو أقصر الطرق؟!

وبادر آخر متطوعاً.. أو متنطعاً بالإجابة في أسلوب ساخر مبطن بالدعاية مغموس بالاستهزاء:

- لابد أن يكون هناك صاحب ديون متربص به في ذلك الشارع..

وأجاب مزيحاً هذا التصور:

- لا.. والحمد لله.. لا ديون ولا مطاردة من الدائنين... إن قريشات "الوظيّف" لا تتحمل ديونا، مثل غطاء " جحا " في مروياته.. إن غطّى رأسك كشف رجليك. وإن غطّى رجليك كشف رأسك..

- هل عندك خصومة، وملاحقة في هذا الشارع؟!

- الحمد لله لا أعرف خصومات.

وبادر المتطوع المتنطع شارحاً قائلاً:

- صحيح هو من نوع "تلحس مسني.. ونرقد متهنّي"

وتدخل متسائلا آخر قائلاً:

- لازم هناك سبب.. لازم فيها (واو).. لابد هناك ثأر مبيّت.. وتتحاشى اللقاء مع الخصوم.

- يا أخي لا هذا ولا ذاك.. مالك (تنشد على البسباس ومن زرعه).. هل أنت من ذاك الصنف الذي "يقيد في الأحوال" ويلاحق الناس بعيونه، ويتلصلص عليهم حتى في سيرهم وجلوسهم وهي هواية الفارغين.. والفارغات.

فألحّ طارحا مرة أخرى تساؤله:

- لماذا تمشي من هذا الشارع؟.. إيه لابد هناك سبب وعلة.. وضغط على كلمة "علة".

- يا أخي حفظنا الله من "العلة".. كلامك فيه أساليب المرض عافانا الله.. لا علة.. ولا معلول..

وتراقصت حواجب السائل وهو يقول:

- إيه يا عيني.. لازم عندك عليها.. إيه.. لك حق؟

- كيف..؟ وماذا تصورت؟!

- لابد هناك وجه جميل في الشارع هنا تصر على المرور ذهاباً.. وإياباً.. صباحاً ومساء.. إيه يا أنا يا وعدي.. يا بختك.

وأجاب بعد هذه التساؤلات:

- وهل أنا في تحقيق واستجواب؟.. أولاً ليس في شارعكم وجه جميل، كانت هنا ورحلت، وقبل أن يقول ثانياً أو يكمل كلامه قاطعه قائلاً :

- إذاً ماذا؟ وعلاش؟!

- شبح.. هناك شبح!

- ماذا؟!

- وفتح فمه كالأبله.. أو كتلميذ بليد إزاء سؤال صعب، وارتعب صاحبه من الجواب المفاجئ.

- قالوا هناك شبح يخرج في الليل.. وأحياناً في رابعة النهار، من يوم العركة الدامية على الرصيف.

- شبح عفريت.. تظهر العفاريت حتى في النهار والشمس طالعة؟!

- بل شبح عركة الرصيف.. كلما مررت تذكرت صرعى الأمواس والسكاكين.. يا لطيف.. يا لطيف.. اللهم اجعل كلامنا عليهم خفيفا.

- اقرأ آية الكرسي.

- هناك عفاريت تحفظ آية الكرسي وقد لا يؤثر فيها قارئ غير متوضئ

• وتقدم أحدهم منه بصوت أجش مثل سكران مـــدمن أو كأنما مصاب ببرد مزمن أو صوت من أهلكه الشراب والســـهر وخلط الليل بالنهار وقال مرتعبا مرتعشا:

- هذه مشاجرة خفت منها لو كنت في الحرب ماذا تصنع؟!

- هذا شيء.. وذلك شيء آخر.. أما أنا فلماذا أزج بنفســـي في هذا الطريق مادام الطريق الأسلم إلى بيتنا موجودا المهم أن أصل إلى بيتي مطمئنا غير مرتعش.

• ظل طوال حياته يتشبث بخيوط الفرح والأمل، ينسجها بمغزل الراحة والاستمتاع بالحياة، ينفر من الضباب والعتمـــة.. قرأ منذ مدة ورسمت في أعماق نفسه تلك التصورات من كتاب مترجم (كيف تعيش سعيدا وتقهر الألم..)

إن الهم والغم والنكد والكآبة أشياء تقصف الأعمار وتحصـــد بهجة الحياة وتقصم الظهر وتهد الحيل.. الشيب على نار الهـــم يلتهب..

• الشيب رماد الأحزان

• الهم والغم وحرق المخ يؤدى إلـــى فلـــت الأعصـــاب والفالج وما اشتق وتفرع من أمراض وأعراض عافاك الله.

• وتأكد لديه في منهجه وفلسفته وقناعته أن إدمان قراءة أخبار الموتى والفواجع ومطالعة صفحات الحوادث والكـــوارث تهز الأعصاب وتزلزل كيان النفس وتطلع الروح ولو تدريجيا؛

لهذا وجد حسب تصوره وسلوكه أن الصحة النفسية وراحة البال تكمن في الابتعاد عن الكآبة والمنغصات والتأثر والتوتر والانفعال المؤدى إلى انهيار الجسد، وبالتالي طلوع الروح وإن طلعت كيف تعود.

إن تسلل البرك والمياه تحت الجدران مهما كانت صلدة متينة ولو من صخور قوية قد يؤثر فيها الرشح على طول الزمن.. كذلك الأحزان تسلل إلى النفس تؤثر فيها وتهزها، تصدعها تسقطها ولو تدريجياً وبصورة غير مرئية.

يتجنب قراءة أخبار الحوادث والكوارث والزلازل والصواعق والموت الأصغر والموت الأكبر وسأله صاحبه.. وهو غير اللكلع.. النطع:

- ما هو الموت الأصغر.. والموت الأكبر؟!

وأخذ يبين في شرحه وفلسفته الفرق بين الميتتين لا يقرأ في المجلات والصحف أخبار الموت والحوادث والجريمة والسطو وإن كان لها هواتها، لا يهتم بغرق السفن أو خطف الطائرات وأخبار الخنق والشنق والانتحار يجب أن يعيش هنيا.. رخياً - بتقديم الراء على الخاء - سليماً.. معافى.. عمر الإنسان الزمني قصير في حقيقته بالنسبة للطبيعة فلماذا يقصره أكثر ويبادر بالجناية عليه وقصفه بأخبار الموتى والحزانى والثكلى وألوان

من الفواجع والمدامع وإزعاج المهاجع لا يعجبه من كل شطرات الزهاوي الشاعر إلا مطلعه ومقطعه:

امرح لدنياك امرح

فما خلقت لغير المرح

الفرح والمرح يطيل العمر.. وإن لم يطلْه ويمطه ويَزِدْه فعلاً فعلى الأقل لا يمرمده ولا ينقصه ولا يقصره كما يفعل الهم والغم ومواكب الأحزان..

يكره التاريخ لأنه في نظره وحسب تصوره وقراءته مجموعة من المظالم.. والمخانق.. والمشانق والمآزق.. وسلسلة من المرعبات والأهوال والموبقات والمزالق والمهالك وقهر الضعاف واستغلال المستضعفين وخاصة أخبار الملوك والسلاطين والعتاة والأساطين من الطغاة البغاة المطوقة – عبر التاريخ منذ قابيل – بالجثث والضحايا والبغي والبغايا والعدوان.

عندما يقرأ أخبار الصحافة العالمية في أوروبا أو غيرها يمسح الصحف العالمية بعينه مسرعاً بإلقاء نظرة عجلى تستغرب كيف قرأ الحروف وتابع السطور وفكّ أو ركّب الكلمات، نظرة كأنما هي رشقة طائر أو نقرة ديك أو هبشة قط مرتعب.. في حياته لم يشاهد في موكب جنازة.. ولا ولجت قدماه سرادق تعزية ولا حضر حفلا تأبينيا.. ولا أرسل برقية مواساة.. يبتعد عن رصيف جوقة المودعين في المواكب

المتجهة للسور الأبدي.. ولا شاهد شجارا باستثناء تلك التي انطبعت في قعر ذاكرته، يبتعد عن الشجار ولو كان مزاحاً أو مفتعلاً أو تمثيلية فكاهية أو حتى دورا في لقطة مصورة للمرئيات أو "السينما" فيها فشخ.. وفتخ.. ودمغ..

وعندما يسمع في المدينة صريخ رجال وعويل نساء يبادر بسد أذنيه ويقول لك إن سألته:

- إن الصم أحيانا لهم نعمة وهبة لا يقدرها إلا من سمع مثل هذا الهرج والصراخ والزعيق والعويل، في مناسبات الأحزان الصمم نعمة تبعد الأصم عن كوارث البكاء والنحيب.

وعندما حلم ذات ليلة أنه يسير وراء تابوت وأنه في طريق الفناء استيقظ مرتعباً.. وتشاءم.. وهو يتحسس رقبته مثنى وثلاث.. وينظر في المرآة ويكاد يقرض أذنه ليتأكد أنه مازال من أبناء الدنيا.. حيّاً يرزق.. وإن كان رزقه محدوداً.. وبادر بالذهاب إلى الشيخ "بركة بركات" مؤول الأحلام وفتش عن كتاب "ابن سيرين"، و"ابن العربي"، و"عبد الغنى النابلسي" الذين كتبوا عن الرؤيا وتفسير الأحلام وظل أسبوعا مبوزا.. مطرما.. بماذا يفسر سيره وراء نعش.. ونسى أن أضغاث الأحلام كثيرة.. وعالم الرؤيا لم يقل فيه العلم والباحث كلمته..

أضغاث أحلام ولكنه تخوف من منام مزعج.. لم يطمئن إلا عندما فسر وأول له الشيخ بركة بركات - مفسر الأحلام ومعبر الرؤيا في الضاحية المهجورة- قائلاً:

- هذا خير.. الحلم يفسر بضده.. الغرق بالنجاة، والأمان والموت بالحياة، والانزلاق أو الوقوع في حفرة حظ، والفلوس تعاسة.

قال فرحاً:

- الحمد لله الفلوس لا تأتيني حتى في المنام.

ولا يدرى أحد كيف استند أو استنبط الشيخ "بركة بركات" هذا الشكل من التأويل والتفسير، إلا إذا كان ذكيا لبقا من الذين يكبحون الأحزان ويشفقون على مثل هؤلاء الهلعين ويقدمون لهم شيئاً من المهدئات والمسكنات.

- كان يفحص الشارع بعينه مخافة أن يقع في مطب مع ثقيل الدم من سخفاء الأسلوب والتصرف، عندما يراه ذلك النمط أو الهبط يبادره بهز يده بعد غيبة طويلة أو غطسة عميقة: "إيه مازلت حيّاً؟!".. أو العبارة السخيفة "مازالت البركة!!"..

- مازالت البركة!

هل يريدونه يتوارى أو تذكيره بأنه ليس هناك أحد من أبناء جيله.. يدب.. وحي يرزق.

"ملاحظة": قال أحد الدارسين للأساليب.. لا توجد هذه التحية أو العبارة الثقيلة والتحية الممجوجة الباردة إلا في هذه الأزقة.

هل يتعجلون تواريه ويتعجبون من بقاء الأحياء..

- "مازالت البركة".. هل ينفض يده من ذلك المرحب السائل المحيّي، هل يقول في ندائه:

- إيه يا بن الكلب والكلبة.. هل تحية أم شماتة..

لكن الحياء يمنعه رغم أنه سؤال سخيف وتحية أسخف، وتملك زمام غضبه إزاء هذا الأسلوب "فكل بلاد وعزاها" أو يلقاه ذلك السمج بليد الحس فاقد الذوق ويقول له مرحباً:

- إيه أنت صاحب جدي يرحمه الله. ومثل تلك الأساليب من أصدقاء السوء ظل بعدها ثلاثة أشهر ونيفاً ملازماً للفراش خاصة بعد أن قال له أحدهم:

- مالك.. خيرك.. لا بأس وجهك أصفر.. متلاشي.. رجليك متخبلات.. عيونك غاطسات غايرات.. تبدلت يا حاج.

عندما تصكه هذه العبارات يا فتاح يا عليم يصبح نهاره أحرف وليلته مشومة من تلك التساؤلات المباغتة المنغصة سيبحلق في المرآة أو أكثر من مرآة.. مرآة الممر.. ومرآة قرب السرير.. بل ومرآة عند الكنيف.. سيبحلق في المرآة حتى تكاد المرايا تمل سحنته وكشخته، فهو لا يمر أمام أو خلف الجبانة.. يتشاءم وإن تصبح أو تمسى بفقيه الجبانة، هل هذا الذي سيقرأ

عليه الأوراد إن تمدّد التمديدة الأخيرة.. لا يمر أمامها أو خلفها أو حتى في الشارع المقابل لها، فضلاً عن أن يشق طريقها أو يجلس تحت التوتة في وسطها وإن اضطرته الظروف إلى أن يتلو ترحماً أو مجاملة يرفع يديه تلقائيا ويقرأ من بعيد ويقول:

- أعتقد أن ملائكة الرحمة توصل الأمانة، وهم مرهفو السمع حتى من بعيد وربك أعلم بالنوايا، والنية حاصلة ليس ولابد أن أقترب من السور الأبدي.

ثم يلطم المتسائل وله حق عندما يقول له:

- وأنت ما هو دخلك.. هل أنت وكيل آدم على ذريته؟!

• كان يتملل من وجوه كثيرة وفى مقدمة هؤلاء ذلك الجزار الذي كان يمر وعنده "لازمة" يتقرع بها دائما وكأنه من أصحاب الزهد الكاذب أو التظاهر بالورع وهو غير ورع وإلاّ فلماذا يغش الزبائن إن كان زهده صادقا وورعه حقا، إنه ينغص عليه بمواعظه وآهاته حتى بلا مناسبة.. "إيه دنيا فانية".

هل لابد أن يذكره بساطوره؟

"الدنيا فانية".. وهل هذا الأمر يحتاج إلى تذكير من الجزار وساطوره ونعراته؟!.. والأدهى أن يتقرع بعبارة انكليزية يلويها بلسانه يظهر أنه التقطها من الجنود الإنجليز أيام الحرب العالمية عندما كانوا يعيثون فسادا ويسكرون ويعربدون.

يلوى الجزار لسانه:

- فنش.. فنش، كله فنش.

ويظهر أنه لا يعرف إلا هذه العبارة من الإنكليزية

وإذا طلب منه أحدهم أن يكتب له تعزية يرفض لكن رفضه يكون بأدب ورقة وحسن تخلص مثل: "ليس عنده قلم.. أو نسى عويناته في البيت"، وقد يواجهه طالب الرسالة قائلا:

- هاهي عيونك في رأسك!

ويرد:

- عويناتى أعنى النظارة يا سيدي ألا تفهم؟.. هل هناك من ينسى عيون رأسه؟..

وقد يتعذر بأنه مستعجل مشغول..

- ابحث لك عن غيري..

نادر الدمع لا قسوة ولا جلافة ولكن هكذا تعود.. يهرب من الدموع، لم يخرج منديله ليمسح دمعة إلا دمعات القهقهة والضحك والمرح أو عندما أصيب بالتهاب في عينه أخرج منديله برقة ولطف مخافة أن تلتوي رموش عينيه أو تتأثر جفونه، واستعان بمرآة مكبرة، وتردد على طبيب العيون حتى أخذ الطبيب إجازته قبل أوانها بأشهر هروبا من كثرة أسئلته:

- كم سيبقى الاحمرار في العين؟..

- هل لطعة الهواء تزيدها؟..

- هل عندك مرهم من باريس أم هونج كونج؟!..

- يا دكتور كم عدد رموش العين؟!..

- هل تكسر من رموشي اثنان أم واحد أم نصف رمش؟..

- هل هناك تأثير من أكل الحلوى على العين؟..

- هل المنديل المعطر يؤذي، وهل النظر في وجه القبيح يؤثر؟!

والحمد لله سلمت عيونه ولعلها المرة الوحيدة التي أوقد فيها شمعة نذرا لسيدي الشعاب وسيدي الهدار.

ولكنه لم يذهب إلى المزار، بل أرسل أحد أقاربه والنية حاصلة.

• في أحد الإصباحات طرد من على باب بيته شحاذا كان يردد مقطعا وهو يستجدي.. ويستعطف بصوته النشاز الحزين وصداه يتردد ويتجاوب في المنعطف والزقاق الطويل بنغمات مكررة ممطة:

- الموت حق.. الموت يا غافل.. كله فان.

وهنا أطل من الشباك متدلدلا حتى كاد يفقد توازنه الجسماني، كاد يسقط في رصيف الزقاق.. وقال وهو يبرطم:

- فانية.. فانية لماذا يا فتاح يا عليم؟.. لماذا تذكرنا في هذا الصباح، واحتدّ، ووصفه بكلمة بذيئة تستغرب كيف خرجت من العمق إلى السطح، ولم يرد عليه الشحاذ السمج المحترف للشحاذة والتسول فنزل إليه ملوحا بعصا طويلة!.. وعلى قول

الجيران والجارات المتفرجات من النوافذ ونصفهم شامت به قالوا: - في يده جريدة أو مكنسة..

وقالوا: - بل مغرف خشبي..

وقالوا : - قصباية أو عصا عنصيل..

قالوا:- بل عصا رشتة.. أو مغرف عصيدة..

قالت الحاجة زازية:

- بل قبقاب الفردة اليسرى

(غريبة كيف ميزت الفردة اليمنى من اليسرى وهى نصف عمشة ونصف طرشة.. وعلى بعد خمسة شبابيك أو ستة)؟!

وهدده مطاردا له، أو راجيا أن يذكر أي مقطع يستجدى به بدل هذه النغمة الحزينة والنبرة المميتة.

لاشك أن حضرة الشحاذ المحترف كان من النوع المتبجّح قال وقد فتح عينيه وكان قد تصنع إغلاقهما وتصلبت يده وكان يتظاهر بالارتعاش:

- سيدي.. وهل هو كذب؟.. ما هو وراك موت..

حق ولكنه مر، ونحن يجب أن نتفاءل في الصباح والمساء، وانتهز الشحاذ فرصة الابتعاد عنه وصرخ:

- امّال تريدني نغني موّال يا ليل يا عيني ونشحت بالتواشيح؟!

وترك الشحاذ المتجول المحترف عبارة: "الموت حق".. وأخذ في تجواله عند باب وشباك الأستاذ يردد عبارة:

- وراكم شبر يا غافلين.

وتململ وهو يتحوقل:

- هل يصب على رأسه جردل ماء؟

وقالوا له وأكدت حليمة الزغرادة وغزالة الوشامة ونوارة السمسارة:

- إن هذا الشحاذ المتجول المحترف يمارس الأغاني في الإذاعة منذ سنوات وهو مطرب في احتفالات ليالي الخميس.. ويفكر في طبع أشرطة وأنت غاطس في لهوتاتك، وسبحان من جمع النقيضين في حنجرة بسوق الآهات يستجدي ويطرب أو يزعم أنه يطرب، ويسد فراغا في مناسبات الحكومة والبيّات الزناقيل.

وتحدث صاحبه معه في إحدى سهريات المشارب:

- المتجولون من أصحاب الذوق في البلدان المتحضرة يعزفون الموسيقا ويشحذ المحتاجون برقة ولطف، وأمثال هؤلاء يذكرونك بعبارات غير لائقة..

- وتذكر صاحبه لحظات وومضات من طفولته مازالت راسخة في مخيلته، صورة عازف البيانو ذلك الخواجة الرومي المتجول الشحاذ الذي كان يطوف الحواري والأزقة يحمل على

ظهره الآلة الموسيقية وتدار بمفتاح وقرب الشبابيك في البيــوت الأرضية وعند ساحة الممرات في الحي الشعبي وينــزل آلــة (البيانولا) من على ظهره ويعزف بألحان مازالت تدق في أذنه تلك النغمات التي كان يرقص عليها (شارلي شابلن) ويرقص الأطفال على نغمات لا بأس بها.. ويدفع بعض المارة الملالــيم والقريشات.. والصبايا من النوافذ أو عند الأبواب أو الجالسون على المقاهي والمشارب والمطاعم وفى الأســواق.. موســيقى متجول عنده ذوق ولطافة ويمد غطاء رأســه أو منديلــه فــي صمت.. أو بسمة هادئة لا هذا النشاز الذي يذكرك بالمنغصات.

- ذات مرة سلّم على أحدهم سلام المصافحة باليد في حفل وجلس ليتفق على عمل معه.. أو يؤجر منه مسكنا وعندما علم أن ثروة الحاج (عكاشة عبد الغنى الزنقيل).. كسبها وجمعها من دفن الموتى وصفقات الأكفان اشمأز وتحوقل.. الناس الطيبــون كانوا يتبرعون ولا يتاجرون في هذه الأشياء هل تصل رغبــة الاتجار إلى هذا الحد..

جلس معه لكن لم يكمل معه مشروعا ولا صفقة.. وغســل يديه بماء "الكولونيا" والمطهر لسبع وســبعين مــرة.. لا ســبع مرات فقط.. ولعن السمسار الذي دله عليه.. وعرّفه به.

- كان يتخطى في قراءته أبواب الرثاء والتأبين.. وفي النحو والقواعد باب الندبة، حاول أن يحصن نفسه بإشراقة الأمل.. وومضات التفاؤل.

أحب أطايب الحياة وزهوها. ولهوها..

يتشبث بها كطفل رضيع عند الثدي.

يهمه من الحياة الأكلة الهنيئة. والجلسة الرخية والنوم المرتاح.. والاسترواح بمروحة ريش النعام..

حتى الأحلام المزعجة يكرهها، يعجب كيف تسللت إليه.

لكن الرؤيا المناسبة عالم لم يخضع لمقاييس.

يا أهل العلم أنقذونا من مزعجات المنام ومنغصات الأحلام.. هل هناك كتب لجلب النوم؟.. هل هناك كتب لجلب الأحلام السعيدة؟..

يتمنى أن يجد كتابا من نوع "كيف ترى الرؤيا السعيدة المريحة".

- ذات مرة وقع في يده كتاب مترجم.. (وقع) وهل الكتاب يقع؟!.. كيف تكون الرؤيا المنامية بعيدة عن الكوابيس..

من نصائحه.. "تعش خفيفا".. "سر خطوات بعد العشاء".. "تشقلب على البساط قبل أن تنام تشقليبات متزنة".. "عدّل الوسادة".. "لا تتلهف على أخبار البراكين والزلازل".. "اشرب

الماء القراح فى الصباح والمساء".. "نظف المرحاض".. "سـلك ديونك"..

الكل سهل لكن حكاية تسليك الديون.. وأكل المأكولات التـي بها فواكه وفيتامينات.. وحرارة.. في فترات غـلاء المعيشـة وجنون ارتفاع الأسعار وهبوط سعر العملة كيف؟!

وقرأ النصائح العشر أو العشرين، وعندما استسلم للوسادة أو استلمت الوسادة دماغه بعد أن تشقلب وتغطى وشخر.. وتكاسل كقط عند عجوز أرملة، واستغرق في نومه.. كاد يقتله كـابوس ورؤيا أزعجته وأعرض عن النصائح المنامية.

- وذهب ليبحث عن عمل فقد جاع واحتاج وأثرى الغرباء والحذاق، سعى للعمل.. مازال فيه جلد.. ورغبة في الحياة.

لم يجد عملا إلا بعد مشاوير.. وترجيات.

بعد سعى وطواف.. وتوسط وتلهاف.. وزكته في المصـالح بمهمات ومعارف قالوا إنها ذات شأن وشنشان.

وفصّل بدلة جديدة زاهية الألوان. وشرى حذاء لمّاعا يئـزّ أزّا عندما يمشى وطاف على أصحابه يخبرهم بالحصول علـى عمل يضمن لقمة العيش ويحفظ ماء الوجه.

- جعلوه عند مكتب قرب القبو أو "البـدروم" فـي إدارة جريدة من الجرائد.. هاله لما رأى لافتة عند حجرة مكتبه

– محرر صفحة الوفيات!..

ورحبوا به.. كان الزملاء لطافا معه.. وهل تخلو جريدة من هذا الباب، وما طفح جرعات من القهوة.. ونفث نفثات من الدخان حتى هرب من أول يوم.

وانزلقت قدماه وهو يهرب من السلم الحلزوني الطويل المؤدى إلى السرداب.

ونفر حتى من قراءة الجريدة التي عيّن بها وتحاشى حتى المرور من شارعها.. مع أنهم كانوا مؤدبين مهذبين معه.

- لم ينقذه من كآبته وصدمته ومتاهته إلا فاعل خير من أصدقائه توسط له في مصنع يلف الحلوى في علب الأفراح والأعراس والهدايا.. والليالي الملاح.

□ □ □

تجربة الشيخ مرسي ...

كان المدرج في الكلية غاصاً بالطلاب والطالبات مزدحماً حتى أن الأنفاس أفسدت جو القاعة الواسعة من شدة الازدحام، بضع طالبات كالعصافير المرتعشة أخذن الصفوف الأمامية وبضع منهن في الممرات أو مقاعد المدرج يهوّون بالكراسات أو بمراوح صغيرة..

لم يكن هناك مكيف في المدرج، وحتى النافذة التي تتسلل منها نسمات من الهواء تسلقها الطلبة وجلسوا على حافتها لضيق المكان رغم اتساعه.. فقد احتله ما يزيد عن ثلاثة فصول تكدسوا في هذه الرقعة..

وكانت المادة "علم النفس"... في محاضرة من المحاضرات الرئيسية من المواد المقررة التي يتوقف على حضورها واستيعابها رصد الدرجات، أو رصيد الطالب والطالبة في الامتحان واجتياز المرحلة.

والدكتور المحاضر أستاذ المادة من ذلك النوع من الأساتذة الذين سبقتهم شهرتهم وسمعتهم..

وسبق أن قالوا للطلاب في المدرج سيحضر الدكتور المحاضر لكنه تغيب لمهمة علمية في أوروبا.. فقد كان مساهماً بنشاط علمي في جامعات عالمية.. وهو مشغول بجمعيات علمية على مستوى رفيع ودوماً له حضور في المؤتمرات والندوات العلمية في عديد من عواصم العالم، وهو لكثرة انشغاله وازدحام

جدول أعماله ومسؤولياته لا يلقي أكثر من محاضـــرتين فـــي الشهر وفى الموسم الدراسي.

وهو رغماً عن لين ابتسامته ورطابـــة لقائـــه ورقتـــه فـــي الترحيب وردّه للتحية بأحسن منها، إلا انه شديد المعاملـــة فـــي الامتحان ويا ويل الطالب الذي لا يحضـــر محاضـــرتيه فـــي الشهر.. مهدد بالرسوب والسقوط والدوائر الحمراء التي تكعبل مساره وتعثر سيره في مستقبله العلمي..

طوق النجاة أن تخلص من مطاردته لك ووضعك في القائمة السوداء، أو جدول المغضوب عليهم.. لـــو أهملـــت حضـــور محاضراته لا يمكن أن تمر بسهولة أو سلام ولو كنت ابن حاكم البلدة أو صهر سلطان السلاطين.. يرسب الطالب إذا لم يكتـــب عن محاضراته.. ولا يملأ أوراق الاســـتبيان والاســـتمارات أو يخرج فى جولة علمية على الطبيعـــة والواقـــع فـــى الدراســـة الميدانية.. والأستاذ المحاضر كان يعتبر من ســـرب الـــدكاترة الطائرين لكثرة سفره وعدم استقراره..

- الدكتور "أسعد مظهر" شـــاب حســـن الســـمت.. أنيـــق الشكل.. وسيم الهيئة يجيد الصمت إلا إذا انساب وتـــدفق فـــي محاضراته أو استشير في حادثة، أو أخذ رأيه فـــي واقعـــة، أو عرضت عليه حالة أو موضوع مما له صلة بالمشاكل النفسية.

في وسامته وأناقته وعنايته بمظهره وملابسه يصلح أن يكون من رعيل الممثلين.. يرتدي أحسن الأزياء يصر على "الشياكة" في وسط زملائه المدرسين منهم المبهدل والمهربد والفوضوي في لباسه.. يصر الدكتور "أسعد مظهر" على لبس "البابيون" وأنواعا من "الفرفلة" في عنقه وتثبيتها بطريقة فنية، وقد اشتهرت بها فئات من الجراسنة والفنانين وهو قبيلة الفئة الثانية..

كان الدكتور "أسعد مظهر" في حفاظه على الملبس وطريقة المشي والجلوس وأدب الخطاب والحفاظ على المواعيد والسلوك والانضباط مثلاً للمثقفين السكسونيين وخريجي اكسفورد، وأحياناً يغلب عليه الطابع الفرنسي في الذوق رغم ما بينه وبين من يطلق عليهم "السرابنة" من تنافس أو تنافر..

وكانت له عناية ومتابعة بدراسات علم النفس ومدارسه الحديثة وتياراته المعاصرة وجمعياته المنوعة في أوروبا، وخاصة الجانب التطبيقي والعملي بجانب الاتجاه النظري في الدروس والمحاضرات.

حقيقة إن الدكتور "أسعد مظهر" كان مثالاً للدقة والنظام بالدقيقة، يدخل المدرج يمكن أن تضبط ساعتك على توقيت دخوله وبالثانية يبدأ بدون تأخير ولا إطالة للمقدمة.. لا كلمة خارج موضوع المحاضرة.

وعند الفراغ منها يعطى ربع ساعة.. خمس عشرة دقيقــة.. هكذا بالضبط والدقة للأسئلة أو الاستفهام عن أمــر أو عبــارة وردت عن المحاضرة، لابد أن يكون السـؤال يتعلــق بالمــادة العلمية وشؤون الدراسة ثم ينطلق الأستاذ إلى وجهته لا يمكــن أن يقف أو يجلس دقيقة واحدة، بعد أن يفرغ من محاضــرته.. وربع الساعة الخمس عشرة دقيقة التي سمح بها للتساؤلات.. هو لا يدخن في المدرج أو الممر وبالتــالي لــن يســمح للطــلاب بالتدخين.. أو وضع رجل على رجل في الجلوس أمامه..

كل شيء بالدقة والموازنة إن لاحظت حركاته ورصــدتها، يخرج علبة الكبريت عند الدرجة الأولى من السلم في الطريــق إلى غرفة الانتظار أو غرفة الأساتذة، ثم يخرج عود الثقاب من الصندوق وهو فى الدرجة الثانية من السلم ويشعل العود وهــو فى الدرجة الثالثة.. وينفــث وهــو فــي الدرجــة الرابعــة أو الخامسة.. هكذا بالضبط كما لاحظه وراقبه أحد الطلبة الخبثــاء وأشار إليه في الجريدة الحائطية.. وكان هكذا طيلــة ســنوات الدراسة لطلابه..

موطن إعجاب في حفاظه على الوقت، لأن العمر مكون من لبنات ذراتها الدقائق والثواني واللحظات، وحتى ارتفاع صــوته كان بمقياس ودرجة معينة، ونبرة معدلة فــي أول المحاضــرة وآخرها على وتيرة واحدة.. ولكنها ليست مملة.. ليست جافة..

ليست مثل ذلك الدكتور من زملائه الزاعق كأنه دلّال في السوق أو حامل جرس المزاد العلني.. كما يُوصف أصحاب الأصوات الضاجة، وأيضاً الدكتور "أسعد مظهر" في لقائه المتميز لم يكن هامساً متخافتاً كأنما يـدعوك للهدهـدة والنعـاس أو التثـاؤب والسرحان.. لا يبدد الوقت، لا يبعثر العمـر.. كمـا لا يبـدد المعلومات أيضاً التي تعب في تحصيلها.. وأحياناً "البايب" فـي طرف فمه بطريقة إنكليزية تذكر الأستاذ الدكتور بأيـام لنـدن ومدفأة لندن، أو تذكرك بمفتش الري ومفتش المجاري أيام سلطة الإنكليز في وادي النيل أو بشكل ممثل في رواية شاهدها الطلبة في سينما درجة ثالثة.. وهذا ما أشرنا إليـه هنـا أيضـا مـن تشنيعات وتعليقات تلك الصحيفة الحائطية من التمرين الصحفي للطلاب العفارتة.. وله منظار أزرق لكنه أنيق رغـم زرقتـه يكشف عن عينين صافيتين وتتناثر كلمة OK (أوكي) بمناسـبة وبغير مناسبة حتى أصبحت ركيزة أو لازمة كلامية له.. سماها أو أطلق على هذه العادة أو الظاهرة أحد دارسي الأدب العربي "لزوم ما لا يلزم".. وقال أحد سلطاء اللسـان مـن أصـحاب الأوصاف الحادة هي عنطزة.. وهذه اللازمة أو الركزة الكلامية مثل عبارة وكلمة أسـتاذ اللغويـات والمحفوظـات والسـرد و"النقولات" وهو كذلك.. وهـذه المعلومـات أو الأوصاف التشنيعية أخذناها من الجريدة الحائطية..

• الدكتور البروفسور "أسعد مظهر" تخرج من لندن رغم الفوانيس الزرق أيام الحرب العالمية الثانية وتهديد الغارات وأكياس الرمل والخنادق والتموين الحربي والفوانيس الزرق.. شاهد صبر الإنكليز وتحملهم في سبيل بلادهم أيام الضنك والحرب، كان يدرس ويجتهد رغم انقطاع المواصلات والمراسلات مع أهله.. تعلم هناك الصبر والدقة وبرودة الأعصاب وقيمة الوقت.. وهو أستاذ صاحب منهج ويؤكد كذلك لابد من الاندماج إذا أردنا الدراسة التطبيقية..

علم النفس التجريبي الاندماجي لا يؤمن بالسرد.. ومجرد ملء الفراغ وسد الخانة وحشو الدماغ، بل على الطبيعة والعمل الميداني، ويضحك عندما يقول محاصراً لك بالأسئلة.

- هل يمكن سباحة وغطس نظرياً؟
- هل يمكن صيد سمك أو صيد طيور نظرياً؟
- وهل يمكن زراعة وحصاد نظرياً؟

السباحة.. والصيد.. والزراعة أمور لها ساحتها العملية، كذلك علم النفس.. هو سباحة في بحر الحياة.. وزراعة وحصاد في أرض الواقعية.. هو صيد في خضم الحياة.. هو من العلوم التطبيقية التجريبية لهذا هو علم بل علوم.. تتطور.

كل موضوع ندرسه هنا لابد من تطبيقه في الساحة العملية، ويسأل الطلاب أستاذهم المتحمس لمادته وتجاربه..

- والمعمل يا دكتور؟!

ويسأل طالب مولع بكثرة الأسئلة.. ورفع إصبعه:

- هنا معمل لكلية العلوم.. والصيدلة.. والزراعة.. ومختبر حتى للحشرات.. لكن معامل علم النفس أين؟!

ويجيب الدكتور "أسعد مظهر" في نبرته المميزة قائلاً:

- المعمل الكبير، والمختبر الحقيقي خارج الجامعة.. خارج المدرجات.. خارج سطور الكتب والمصادر.. والمصدر الأهم المرجع الأهم هناك في الشارع.

في الحارة، في الميدان، في القرية، في المعاملة والاحتكاك.. في المشاهدة والاندماج.

وبهمس طالب مولع بالتعليق همسًا:

- أنت تحلم يا دكتور أسعد مظهر هنا غير أوروبا التي عشت فيها فترة..

- هل تنسى انك الآن تعيش بين أهلك وناسك؟!

* * *

ويدور الحوار متشابكاً بين الدكتور (أسعد مظهر) وعميد الكلية ثم عميد الجامعة والأساتذة الزملاء وحجتهم.

اللوائح - الميزانية - الظروف - البرامج - المنهج كما هو الامتحان التقليدي - العادات والأعراف..

لكن الدكتور "أسعد مظهر" يصر:

- لا بد من الحوار مع النماذج البشرية التي ندرسها.. لابد من الاندماج والغوص في المحيط.. لابد من المشاهدة على الطبيعة..

ويكرر في حماسه العلمي ضاغطاً على كلمتي "لابد من الاندماج والاحتكاك".

وأصر في منهجه على غرس الطرق المستحدثة والمدرسة الميدانية الواقعية، وصحب معه الطلاب والدارسين ليشاهدوا التجربة النفسية في المدرسة التجريبية بالاحتكاك والمشاهدة واستطلاع الحالة والنماذج في المدرسة العلمية.. لابد من المعاناة والاحتكاك.

وخشي عميد الكلية أن يكون الدكتور "أسعد مظهر" آنذاك يحمل بذور التمرد أو شيئاً من بعض الاتجاهات والمؤسسات التقدمية التي كانت تطاردها السلطات الحاكمة آنذاك.. في فترة المخاض السياسي لتلك المرحلة.. وفعلاً تلك الحقبة كان بها غليان وفوران، وكان هناك نوع من الاحتكاك والصدام بين الطلبة والمسؤولين في نظام تلك الدولة، واستعملت الحكومة لغة العصي والهراوات.. ولأول مرة شهدت تلك الساحات علباً يرمونها تسمى (مسيّل للدموع)، وتوزع مناشير وملصقات حادة

الأسلوب ضد السلطة والحكومة، ويسأل عميد الكلية في توجس وتخوف..

- أي احتكاك يا دكتور تدعو إليه؟..

- احتكاك الطلاب بأجهزة الأمن.

- احتكاك الطلاب بمسؤولي الإدارة؟!

احتكاك المدرسين مع الإدارة واللوائح وجهات الاختصاص.. أي احتكاك يا دكتور؟

ويجيب الدكتور "أسعد مظهر" في نبرة هادئة.. وقد وضع البايب على المنضدة وصوّب نظره إلى المتسائل قائلاً:

- احتكاك علمي.. احتكاك اجتماعي.. اندماجي.. تبلور الإحساس عن قرب بالمشاهدة الاستنباطية المؤدية إلى الاستنباط بين درجة الاستبطان و الاستنباط تتبلور المشاعر بالحس الواقعي.. ليظل الاندماج التلقائي في عفوية الصدق الكائن من كينونة المشاهدة بلا ترهل في الاستبطان.

- وتدفق مثل هذه المصطلحات والعبارات في أسلوب الدكتور وحضرة العميد فاتحاً فمه في ذهول.. هل يتهم نفسه بأنه لم يفهم؟!.. أم يتظاهر بأنه يفهم؟!.. ولكن أحد زملاء الدكتور قال:

- من فضلك يا دكتور بسط الأسلوب قليلاً و أوضح لنا ماذا تريد بدل الغموض الدائر في الأسلوب في اختصار ماذا تريد؟!

- تدرس ظاهرة نفسية وتستعرض حالة اجتماعية لابـد أن تعايش أصحاب الظاهرة والحالة في نفس المناخ والظروف..

- البيئة هي المصادر الحية، هي المراجع النابضة الناطقة..

ودار الحوار.. اشتد الأخذ والرد.. والتخوف والتردد وأخيراً شغف الطلاب بالأسلوب الجديد للبروفسـور "أسـعد مظهـر" وتكونت جماعات وتوزعت فرق للعمل الدراسي الميداني..

- أعجب به الطلاب لسعة معلوماته وتنقله فـي أرجـاء المجتمع لاكتشاف أنماطه واتجاهاته.. فقد عاش أكثر من عشر سنوات في المنطقة، بعض المظاهر والأحياء تغيرت، والبعض بقى كما هو ولو غاب قرنا كاملا.. وبعض المناطق والأحيـاء عاشت في تشرذم وتمزق.. أو ازدواجية وتأزم ولا يدري مـا مصدره.. وما وراء الطوايا.. لكنه خشي لو طـرح هـذا فـي دراسة موضوعية وميدانية، وكيف أثرت هذه الفئة وقفزت تلك الفئة ربما كانوا في الأجوبة والردود والمد بالمعلومـات غيـر موضوعيين ولا صادقين.. أو ربما كانوا متخوفين من الإطلاع على الأسرار وكشـف العيـوب أو مـن مطـاردة مصـلحة الضرائب.. أو ربما كانوا لصوصاً أو خصـوما أو أصـحاب إساءة إلي غير ذلك من أمراض وأعراض اجتماعيـة.. ولهـذا أبعد الدكتور "أسعد مظهر" من مشـروعه الانـدماجي مسـألة

الاحتكاك ببعض الأحياء والفئات من أجل الإطلاع على أسباب التحول النفسي والمالي.

- إنهم يكذبون مثلما تكذب أكثر السواقط والمنزلقات..

إنها من أصل عائلة كبيرة وجدها من كبار العلماء والوجهاء، وجد جدها شهبندر التجار، أو سلالة أثرياء آكلي الفالوذج ولكنها أصبحت هكذا الراقصة المحترفة، فقد هبشها هابش وضحك عليها ناهش في ليلة مظلمة غاب قمرها وأفل نجمها فانحرفت وهربت، أو كما تزعم صاحبات المذكرات وموضة الذكريات أنها صوامة قوامة مرتلة.. متبتلة ولها آراء في الجيولوجيا وأفكار في الطبيعة، وحذر الدكتور "أسعد مظهر" طلابه من أساليب المبالغات والتهويلات عند الدراسة الاجتماعية والفحوصات والاحتكاك والتمرس.

- في وسط الدائرة عند المحاورة والنقاش وليظهر عميد الكلية اهتمامه قال أمام جمع من الطالبات والطلاب في المدرج:

- نحن سعداء بالدكتور "أسعد مظهر".. لأنه مهتم بالطلاب والطالبات ودراسة موضوع الاندماج، ولكنه تلفظ بكلمة الاندماج بحروف متزحلقة مما أصبغ عليها معنى آخر.. وهنا

أزرورق وجه الدكتور واصفرّ وازورّ.. وتصبب عرقه والطالبات العضوات خجلن وتوارين وهن يمسحن العرق عن جباههن.. لماذا ارتبك الطلاب والطالبات من العبارة التي

تحرفت حروفها وكان يريد أن يثني على الدكتور "أسعد مظهر" بعد أن تساءل ماذا يريد.. ولكنه لم يفهم الفرق من المعنى بين عبارة وعبارة.

وبعدها طلب منه الدكتور "أسعد مظهر" أن يطلق أو يستعمل عبارة اصطلاحية - الاحتكاك - بدل وقوعه في الالتباس في تسويق ونطق العبارات.

- ولا زال الدكتور الباحث المحاضر متميزاً بين زملائه من أساتذة الجامعة من حيث المظهر "بالعيون الزرقاء" والبايب والفرفلة "والبابيون".. لكن أهم ما عرف به وميزه من ناحية الموضوع الإصرار على الدقة والنظام، فلا يمكن لطالب أن يخرج أثناء إلقاء المحاضرة، أو أن يدخل أثناء إلقاء المحاضرة.. أو أن يقاطعه أحد أثناء سرده للمحاضرة أو يهمس هامس.. أو يكلم جاره.. دقة متناهية.
- ويفرح الطلاب عندما يقول لهم:

- سنذهب إلى الورشة أو عندنا جولة في العمل "ويعني بذلك الشارع.. والسوق.. والمقهى وزيارة بعض البيوت للاستفهام وملء الاستمارات والبيانات والأضابير".. أو الذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية أو بعض المصحات النفسية وأحياناً إلى ملهى من الملاهي.. أو مرفق من المرافق، والقصد من كل ذلك الدراسة والإطلاع والمعرفة الاستنبطاية.

وذات مرة أحدث مشاكل مع مدير الجامعة.. كانت مثار جدل عندما قال:

- نريد أن ندخل مع الطلاب والطالبات "مطبخ الحكومة"

وظنه يمزح.. أو يريد الذهاب إلى حفل عشاء رسمي دعت إليه الحكومة، لكن فوجئ بأن قال له الدكتور:

- أريد أن أرى و أشاهد كيف يتكلم الوزراء..

وأجابه المدير:

- بسيطة يا بروفسور أسعد.. استمع إليهم في النادي الذي يذهبون إليه في أوقات الفراغ وهم هناك يثرثرون.

ورد الدكتور قائلاً، وهو يسلك البايب ثم يحشوه ببرود وتؤدة:

- لا.. هذا غير مهم.. أريد الاستماع إليهم أثناء عملهم.. أثناء نقاش بعضهم مع البعض الآخر..

ورد المدير وهو يتفحص زملاءه بعينه ويكاد ينفجر غيظاً وحيرة ثم تمالك قال:

- اذهب للبرلمان..

وأجاب الدكتور على هذا الاقتراح المباغت قائلاً:

- لا.. هذا لا أجد فيه بغيتي.. هذه أقنعة ومساحيق.. هذه طبخة معدة وأدوار مخرجة تخريجاً فيه بروفات وتلفيق.. ونفاق ودوبلاج الاستعداد.. إنما المهم على الطبيعة من غير أقنعة ولا أضواء.. نريد الاندماج.. احتكاك.. رؤية طبيعية.. أن نشاهد

عن قرب مع الطلاب الدارسين كيف يتكلم الوزراء مع بعضهم بعضا في جلسة مغلقة بشرط ألا يرونا، و ألا يشعر بنا أحد من هؤلاء الذين مصير الناس في أيديهم.. نريد أن يلحظ الطلاب في حلقتهم الدراسية طريقة الكلام والتفاهم ومستواهم في النقاش بدون برلمان.. أو صحافة أو شعور بأن أحداً يراقبهم.. يلاحظهم.

وسكت المدير سكوتاً ظاهرياً وإن كان الغليان والغيظ يكاد ينفجر به.. ورفض طلب الدكتور.. بل اعتبره طويل الأنف.. حشريا.. يزج بطلابه ونفسه فيما ليس له واعتبر بمشروعه.. أو باقتراحه هذا مشوشاً.. وتهامسوا وتغامزوا.. ربما يكون له صلة بجهات مشبوهة.. وقد يكون له صلة بعواصم لا يوجد معها تمثيل دبلوماسي.. وربما وراء الأكمة ما وراءها.. هكذا نطقها العميد في الكلمة.. ثم سال أستاذاً بجانبه:

- ما معنى الأكمة وما تحمل هذه العبارة؟!

أجابه ليرتاح من الإلحاح في السؤال:

- وراء الأكمة تعني أمورا خطيرة وفيها "واو".. وحكاية فيها داهية.

وازداد العميد تخوفاً.. وارتفعت درجة الارتعاب والتوجس إلى ما فوق الأربعين.. ثم المئة درجة.

• وخوفاً من وراء الأكمة - وحكايتها طلب لفت نظر ووضع اللفت هذا في ملفه.. وإن لم يسكت الدكتور "أسعد مظهر" ويكف في الجامعة عن مثل هذه المنغصات، لابد أن يعمل له فصلاً من راتبه.. وبعدها تؤخر ترقيته وإن تمادى وألح قد يصل إلى مجلس تأديبي، و أخذ الدكتور " أسعد مظهر" هذه الرسائل والأوراق التي وصلته ووضعها أمام الطلاب في مدرج المحاضرة ليدرس أيضاً هذه الظاهرة البدائية الغوغائية - على حد تعبيره ومصطلحا ته - ويعني بها طريق التخويف والترهيب والترغيب في المؤسسات الأكاديمية ومعامل البحث..

يرى أن ذلك من نوع الممارسات التي ترسمها العصا أو السوط والكرباج الورقي، وهي صورة من الترجمة للرعب السلطوي.. أخذ يدرس ويستعرض هذه الحالة من فئات التحكم والتزاّحم وبدل أن تعالج الأمور بالتي هي أحسن.. وفي جو هادئ.. أخذت دوراً آخر واكتست صبغة حادة.. وانضم الطلاب إلى أستاذهم الدقيق في مواعيده والمجدد في طريقة بحثه، والمتحمس لأطروحته.. ومذهب الاندماجية التلاحمية.

وتضايق عميد الكلية من محاضراته في المدرج، فقد كان أستاذاً جيد الإلقاء، حسن الاختيار للموضوع والمادة.. لكن المشكلة الأخطر بالنسبة لهم اهتمامه بجولات الطلاب الميدانية والشوارعية لدراسة الظواهر النفسية بطريق - الملاحظة -

والاندماج.. والاحتكاك.. الملاحظة والملاحقة والتفحص على الطبيعة والواقع.

• وبعض الطلاب تحمس لمشاريع الأستاذ بدافع حب الاستطلاع والاستفادة، أو بدافع الحرص على نيل الدرجات والأرقام والتقديرات ومراعاة قلمه الأحمر الذي يعول عليه في اجتياز عقبات أو عتبات الامتحان والعام الدراسي.

• علم النفس التجريبي.. لابد من خوض التجربة، لابد من المعايشة والاختبار.. وانطلق الدكتور "أسعد مظهر" نشيطا متحمساً في توزيع فرق الدراسة والعمل الرصدي.. لابد من الكتابة عن ظواهر العواهر والمنحرفين واللصوص والشظايا والبقايا والحطام والركام.. لابد للدارس الجاد من المعايشة وتفحص الأحوال والمناخ.. وكيفية السلوك والدوافع.. كيف تكتب؟ كيف تدرس؟ كيف تتعرف على أوجه المشكلة.. قد تكون حالة.. أو ظاهرة أو ممارسة لها أرجل أخطبوطية.. لها سبعون رجلاً أو سبعون مسلكاً..

الكتابة أو الملاحظات عن الظاهرة الصوفية وتفرعاتها وطقوسها وتأثيراتها، لابد من تعارف واندماج واحتكاك وعيش في جو مرفقاتهم وشطحاتهم، و إلا كانت الكتابة عن هذه الظاهرة وتصور الحالة لا تستند إلى الواقعية والدراسة

الاندماجية التبلورية، الكتابة عن الصعاليك لا تكون جادة ومنهجية إلا بعد معايشتهم ورصدهم.

- أولئك الذين كتبوا وتحدثوا عن الصعاليك العرب والعدائين العرب والفرسان، وأهل الفتوة جاءت كتاباتهم باهتة ناقصة، لأنهم لم يعاشروهم.. لم يجروا معهم في الأشواط.. لم يشاهدوهم عن قرب، وحفظوا كلاماً.. نقلوا كلاماً.. لم يعيشوا الأجواء والمناخ مع أصحاب الظاهرة والحالة.. فقدوا عنصر المشاهدة والرصد والانصهار النفسي..

بأسلوب مبسط في عصرنا الكتابة من الأرصفة دراسة قاع المدينة.. لابد من الغوص في قاع المدينة.. وارتفع إيقاع صوت الدكتور "أسعد مظهر" وهو يقول لطلابه:

- مهمتنا الغوص.. الغوص..

وتكاثر اللغط والهمس.. وضحك أحد الطلاب من ذوي الأمزجة المرحة، والذين يحبون التعاليق وخشي من ثأر وانتقام الدكتور إذا أحس وعلم أنه ضحك من كلامه أو سخر به، وتغلب الطالب على ضحكته بصعوبة تحت كمه وكتبه.. وضحكت طالبة سمينة ضحكة رقيقة.. اهتزت لها أرجاؤها و أبان عنها هذا الاهتزاز الجسماني.. وتوارى وراءها الطالب المرح فقد كانت هرماً لحمياً.. وحدجها الدكتور المحاضر بنظرة فاحصة وكز على أسنانه وهو صاحب الأعصاب الباردة والتربية

السكسونية، وخشي الطالب المرح إن استمر في قهقهته ولم يتغلب عليها قد تكون سبباً في إنقاص علاماته في المواد الامتحانية.. خاصة إن كانت هناك مقابلة شفهية.. وقد عُرف الدكتور "أسعد مظهر" بالجدية والبخل إلى حد التقتير في إعطاء التقديرات ورصد الأرقام والدرجات.

- ووزع الدكتور العمل الميداني على طلابه قائلاً وهو يلوح بالجدول والبرامج:

- نحن سنقسم طلاب الفصل إلى مجموعات لتطبيق ودراسة علم النفس التجريبي الاحتكاكي.

- مجموعة تتجه إلى المشردين والصعاليك.

- مجموعة إلى حي العواهر.

- مجموعة إلى الصوفية والدراوشة.

- مجموعة إلى الفنانين وأهل الطرب.. يا ليل.. ياعين

- مجموعة إلى المدمنين والسكارى وأصحاب الكيوف والإدمان.

- مجموعة إلى الذين لا ينامون الليل ولا يصحون النهار.

- مجموعة إلى المجانين.. والمعتوهين والمهابيل والله يلطف ويثبت علينا عقولنا.. عافانا وعافاكم الله.

- ورفع ثلاثة أرباع المدرج أصابعهم طالبين أو مفضلين أن يذهبوا إلى حي الفنانين ويغوصوا مع الفنانات وأهل الطرب لدراسة الظواهر الفنية.

وتهامس الطلاب وتغامز بعضهم:

- أليس هذا أحسن وأفضل من موضوع اللصوص والصعاليك والمشردين.

ولكن الدكتور "أسعد مظهر" نهرهم قائلاً:

- لا حياء في العلم.. لا خوف من العلم.. كل الظواهر والمظاهر والسلوك مواد خصبة للدراسة والبحث.. لا تستهينوا بأي موضوع في اختياركم وتجربتكم.. تجربة.. المهم الدقة والملاحظة والمعايشة، من يكتب عن التجربة أنه مذهب واتجاه للدراسة والتجديد في البحث العلمي.

- اختيار الاختبار.

- التبلور في الاختبار.. عمق المعاناة والمشاهدة..

- وتكتب الملاحظات من طرف الباحث أو الباحثة وتقدم الدراسة في موعد أقصاه ثلاثة أشهر من المعايشة في ذلك الجو الذي اخترته عن طواعية ورغبة.. انتهت خانة الفنانين و أهل السمر وعشاق حياة الليل.. وهناك خانة التصوف وأهل الأذكار والأوراد.. وهنا رفع الطالب "عبد السميع عبد السلام" إصبعه قائلاً:

دكتور ضعني في قائمة التجربة مع الطرق الصوفية وأصحاب الابتهالات.

وسأل الطالب:

- هل أذهب لدرستها في بعثة أو دورة في الخارج.

قال الدكتور للطالب:

- لا.. بل الأحسن أن تختار جانب المعاناة في الطرق والمعايشة لها مجر أناشيد وابتهالات.

وسأل الطالب:

- هل أذهب لدراستها في بعثة أو دورة في الخارج؟

أجاب الدكتور وقد أحتد في نبرته:

- ما شاء الله طرق صوفية تدرس في أوروبا.. نحو عربي يدرس في أوروبا.. تاريخ عربي تدرسونه في أوروبا.. سيرة بني هلال وأدب شعبي تأخذون عنه شهادات من أوروبا.. فقه إسلامي تطلبونه في أوروبا.. طريق طبختكم تدرسونها في أوروبا.

- أستاذ وهل الدراسة في أوروبا عيب؟!

- ليس عيباً أن تدرس هناك بالعكس هو جانب حضاري.. هناك علوم ومناهج واهتمام صحيح.. وعندهم تقدم ولكنْ هنا أنواع من العلوم والدراسات أنتم أصحابها وأولى بها.. وألصق بها وأقدر عليها إن كانت عندكم همّة ورغبة واهتمامكم

صحيح.. وحقيقة العلم لا وطن له.. ولا عصبية فيه.. لكن أولويات ألا تتحركوا لأشياء وموضوعات أنتم ألصق بها ومنكم تبعث.

- وقال عبد السميع عبد السلام:

- سيدي الدكتور.. أنا مستعد أن ألبس مرقعة وأربي شوشة وأضرب بندير وأطوف الأسواق وأعاشر الدراوشة للدراسة والبحث الميداني ولكن ارجوا أن تكون كريماً بحبوحاً معي.

- تقصد تريد أجراً وفلوسا..

- لا.. بل أريد درجات عالية.. ولا تقتر عليّ ولا تستعمل حلقات القلم الأحمر كثيراً..

قال الدكتور "أسعد مظهر" توجيهاته وإرشاداته:

- لابد أن ترى كيف يعيش هؤلاء في ممارستهم ولا بأس إن لبست مرقعة أو تظاهرت بالتدروش معهم، من أجل استيعاب الدراسة والبحث الأكاديمي الجاد.. على بركة الله انطلق من الغد.

.. وأختار "عبد السميع" لدراسته الميدانية الجانب الصوفي والابتهالات.. فقد تشرب من أمه الأدعية الصالحة ونغمات الأوراد، واستمر الدكتور طيلة موسمه الدراسي بالجامعة يضرب على الوتر.. وينهج على هذه الوتيرة مواصلاً تحريضه للطلاب في توزيع مجموعات على فصائل وفئات الحياة

الاجتماعية محققاً شعاره ومنهجه العلمي. "لابد من التبلور والاندماج".

حتى عندما دعي إلى الإسهام في نشاط ثقافي عام خارج مدرج الجامعة في أحد النوادي والمؤسسات الثقافية اختار موضوعه الأثير لديه "الاندماج والتبلور"..

• وأوضح في حماسه لموضوعه ودعوته العلمية أن الاندماج والتبلور شيء ضروري للدارس والباحث.. وهو عامل نجاح في كل ضروب الفن الإبداعي.. الاندماج للممثل الفني.. الاندماج للخطيب الملهم للجماهير.. الاندماج للزعماء قادة الشعوب.. الاندماج للمحاضر الأستاذ المتمكن في الدرس.. الاندماج للصانع والحرفي عندما يطرق بمطرقته أو يستعمل إزميله وآلته.. ويتفنن في استعمال أدواته.. الاندماج للمطرب عندما يتأوه.. ويتلوع.. حماسة الاندماج للشاعر.. بل وحتى الباعة السريحة.. يظهر أثر الاندماج والتفاعل في أصواتهم ونداءاتهم على السلع..

وهكذا على الباحث في علم النفس المعاصر التجريبي أن يهتم بهذا،لابد له من الاندماج مع الشرائح التي يقوم بفحصها وتشخيصها.

* * *

• واختارت بعض الفتيات الدارسات ما يسمى في الشرق "عوالم" ومن يقمن هناك بالزار والأعراس.. وما عـرف فـي مصطلح الشمال الأفريقي "زمزامات" عرفن بإحياء الأعـراس والمناسبات الاجتماعية.. ولهن في محيطهن تقاليـد وعـادات، ولكن إحدى الدارسات أوغلت في الاندماج بذلك المحيط الساهر وفن الغناء والرقص.. وغيرت اسمها من زينب إلى (زيـزي) وبدلت حتى اسم أبيها وجدها واتخذت لقباً وشهرة فنية، وانسابت حتى رقصت في ملهى ليلى بأوروبا للسـائحين والمعربـدين.. وأصبح دخلها في سهرة وسهرتين أكثر من راتب سفير بلادهـا عاماً أو راتب رئيس وزراء بلادها.. وتاهت في ذلك المحـيط فقد كان اندماجها وتأثرها فعالاً وسريعاً.

* * *

واختار الشيخ مرسي لدراسـته الميدانيـة فئـة المـدمنين وأصحاب الكيوف التي هي أخطر ظاهرة.. وكان ذلـك الحـي والمنطقة التي اختارها مشبوهة.

وقال الدكتور "أسعد مظهر" مخاطباً وموجهاً للطالب الدارس:

- أنت يا مرسي.. مستقيم محافظ.. أنت مثل الـذي يـدخل مصنعاً فيه جراثيم وأوبئة.. يلبس قفازاً واقياً.. وقناعـاً معقمـاً ولابد للوقاية من مصل.

- لكن تلك المصانع بها آلات وأجهزة وهناك مشرف أمصال وتطعيم واق واحتياط..

أجاب الدكتور:

- وأنت أيضاً باعتبارك شاباً مستقيماً عندك وقاية ومصل بالضمير.. بالخلق، بالشعور بالمسؤولية، بالتسامي.. وإحساسك أنك تقوم بواجب علمي.. وتدرس ظاهرة.. وتتابع حالة وتكشف عن عوامل ومؤثرات ظاهرة.. ستتغلب عليك لذة الكشف العلمي والتفوق العلمي.. لذة ما بعدها لذة وانتصار ما بعده انتصار.. ستعمل على انتشال المجتمع من تردي أهل الكيوف والإدمان.. لذة الانتصار العلمي ستنسيك المتاعب.. ودعك من عيون الناس وألسنتهم الحادة عندما يشيعون ويشنعون أنك تتردد على أصحاب الكيوف والإدمان، إنك مثل القاطع للمرحلة المتعبة عندما يصل ينسى وتتبخر كل آلامه.. بل تظل المعطيات والمتاعب والمعاناة مجرد أطياف وذكريات حلوة..

- لكن يا دكتور هذا الطريق فيها مزالق.. هؤلاء المدمنون..

وقاطعه الدكتور قائلاً:

- من هنا دورك أهم وأخطر.. الملاحظة.. التتابع.. الاستقراء.. الاندماج الاستيعاب.. التعرف على المشكل من جذوره..

- هنا أمور قد تبدو موحلة شائكة في أول الطريق لكن بالمران والتعود يسهل كل شيء.

- وأخذ الدكتور أسعد مظهر يواصل خطط عمله وتطبيق برامجه.. يواصل نشاطه مع طلابه ويوجههم.. يرعى تجاربهم وعملهم الميداني بالإحصائيات والرصد والاستقراء يلاحظه في المناطق التي توزعوا عليها والاتجاهات التي اختاروا.

ولم تكن المتاعب التي لقيها وواجهها الدكتور أسعد مظهر من إدارة الجامعة وزملائه فقط.. بل متاعب منوعة من الطلاب أنفسهم في سلوك بعضهم واختلاط الخيط الدقيق بين الاندماج والتو هان والملاحظة والذوبان وبين الدراسة والعربدة وبين التتبع والاستمرار وأيضا متاعب من أولياء الأمور لبعض الطلاب وخاصة الطالبات..

- ذات صباح وقبل رن جرس الدخول للفصول والمدرجات فوجئت مكاتب إدارة الجامعة بسيدة هارعة صارخة تبحث عن الدكتور وهي تلفظ حرف الدال أقرب إلى الطاء والكاف بلهجة غريبة لا هي لاتينية ولا عربية (طكتور) أسعد مظهر وهي تدعو الله لا يسعد أيامه وهي تصرخ كيف جنى على ابنتها حتى ظن البعض أن هناك جناية واعتداء بالمعنى المزعج المتصل بشرف الفتاة وكينونتها وشمت بعض من المتربصين المتألبين عليه..

وتهامسوا.. وتغامزوا.. ونهشوا..

- ها هي الحقيقة تظهر.

وقال قصير قميء أشداقه مثل كلب (البولدك) ولسانه منشار لم يسلم منه أحد:

- عشر سنوات عاشها في أوروبا ألم تفسد سلوكه؟

وقال آخر حاقد على كل موهبة ولا يعرف الناس إلا بمثاليها:

- ها هي تظهر نقطة الضعف.. الجنس أنا شاهدته ورصدته يتابع بعينيه مؤخرات البنات وهن يتسلقن السيارة في الزحام.

وقال ثالث وكأنه عز عليه أن يصمت في هذه المناسبة المتاحة:

- لابد أنه جنى على هذه العذراء التي جاءت أمها تشكو وتولول في هذا الصباح.

وبادر بعض أصدقاء الدكتور أسعد مظهر بمحاصرة المرأة الصارخة كمن يحاصر حريقا لئلا يندلع أو يطوق إشاعة لئلا تسري وهم أصدقاء واثقون من خلق الدكتور واستقامته وسألوا:

- ما بك يا حرمة؟!..

- البنت جعلت البيت مزدحما من جماعة الزمزامات والقوديات والمغنيات والزغرادات تسألهم وتناقشهم تسجل وتقيد، أخشى أن تصبح من جماعة الزمزامات وتمشي تزغرد في الأعراس!.

وحمد الله هؤلاء الأصدقاء على أن الدكتور أسعد مظهر ليس له علاقة ببكارة البنت لا من قريب ولا من بعيد.. ليس له علاقة ولا صلة بالتهاب عود الكبريت.

وطمأنوها على سلامة ابنتها وأن نشاطها من نوع الدراسة العلمية .. وزاد من طمأنتها أحد أصدقاء الدكتور عندما همس في أذنها:

- بنتك رائعة سليمة حتى خطيبها موافق على هذه الدراسة.

وهنا أطلقت الأم زغرودة مجلجلة جعلت الشامت صاحب الوجه المنفوخ البولدكي مع زميله صاحب اللسان المنشاري يتوارى..

- وفي صباح آخر جاء زاعقاً باحثاً عن الدكتور أسعد مظهر وظنه صاحب الوجه البولدكي أنه دائن يطارد مديونه الهارب أو صاحب ثأر وتضامن معه في الشكوك والظنون صاحب اللسان المنشاري، أو كما أطلق عليه بعضهم القورمة المنتقلة، وكان الرجل الزاعق يتهدد ويتوعد.

- ضيعت ابني!.

- كيف يا راجل؟!

- ابني كان لا بأس عليه عاقل.. الآن تدروش طول الوقت مع أصحاب البنادير.. والمرقعات.. والشطحات.. وشاش عقلي.

- إنها دراسة يا رجل.. ابنك سيصبح عالماً في مجاله وسيأخذ على هذا درجات علمية.

- عالم!.. لازم يكون عاقل وماله الشيخ إبراهيم برهوم عالم في زنقتنا.. عمره ما فتح فمه.. عشرين عام عمره ما سمعنا منه كلمة.. خاش قفته ساكت.. وهذا طول النهار يجري ويشطح..

- هذا عنده دراسة علمية وامتحان ومسابقة ميدانية..

- لا.. لا يفتح الله.. يترك الدراسة والامتحان وأفتح له دكانا مثل بوه وجده.. يكسب منه.. ويكوّن روحه.. ونشبح له بنت حلال ونزوجه ولا يدور بالبندير.. والمرقعة..

وما آفهموه موضوع الدراسة إلا بعد اللتيا والتي، لكنه أقسم يمينا بالله.. ويميناً واعرا بالطلاق ويميناً أخر بأولياء الله المرابطين المعروفين وغير المعروفين.. لو تدروش وطار بقية عقل ولده ليطيرن رأس الدكتور أسعد مظهر بالساطور ولو كلفه ما كلفه..

- تحمل يا دكتور هذه ضريبة البحث العلمي.. لو طار رأسك بساطور.. أو شنعت عليك هذه السيدة.. أو سخر منك بعض زملائك مثل صاحب الوجه البولدكي أو اللسان المنشاري فهناك من يقدر جهدك واجتهادك.. وبعد آماد ستكون صاحب

تمثال أو محطة أو صورة في فترينة زجاجية بمعهد علم النفس التجريبي يرمز إليك كضحية للتوجه العلمي.

- كان من تقسيم نصيب الشيخ مرسي في الخريطة الدراسية حيّ من أحياء الرذيلة وأصحاب الكيوفات وهو الشاب المستقيم الزاهد الذي لم يقترف في حياته ما يسيء إليه، ولم يلامس بالحرام، كان خفيض الصوت خفيض النظر.. خفيض الخطو.. تردد عندما ذهب إلى هناك في الجولة الأولى، شجعه الدكتور على اقتحام هذه الدراسة، وبعد أن تردد واصل الدكتور دفعه قائلا:

- أنت لك حصانة من نفسك كما سبق أن قلت لك قبل جولتك الأولى، لماذا تتردد بعد أن قبلت ووزعنا الجدول وقسمنا المهمات تأتي الآن لترفض وتتردد أما شرحت لك وقبلت لا تراجع.. اذهب وواصل الجولة في ذلك الحي.

- أنا متزوج.

- وماذا يهم من أجل البحث العلمي.

- لكن.. اتقوا الشبهات.

- شبهات ايش ما يهمك أنت دارس باحث.. مكتشف فاحص..

- ستنهشني الألسنة والعيون وقد يزيد المزايدون ويتربص السطحيون.

- شيمة أهل العلم.. عرضة للشكوك والمقولات..

- ماذا أعمل وهو وسط موبوء بالذين سقطوا بالكيوفات.

- تجوس من خلال الحي وتراقب كيف يتسلل الناس هناك في جنح الصمت والظلام وتعرف أسباب هلكتهم وتهالكهم تجوس وتدرس بالملاحظة.. وتقترب من بعض النماذج وتحادثها وينكشف لك من المحادثة ما خفي وما تغطي، أنت مثل الطبيب تجس وتقيس بمبضع الحرارة ومعدل الحرارة.. الطب النفسي قد يكون أهم من الطب الجسدي.

- طبيب.. لكن يظهر بيطريا.. بل الطبيب البيطري أريح حالاً وأرق بالاً.

- لا تمزح أيها الباحث في سبيل العلم والدراسة الميدانية يهون كل شيء، هل تعرف هناك في تاريخ البحوث العلمية في أوروبا من قام بتجربة المصل ومفعوله في نفسه غرسه في جلده وشرايينه قبل أن يقدمه للناس دواءً مكتشفاً؟

- بدأت الهمسات والإشارات وأنا أصاحب أهل الكيوف..

- لا يهم مادمت تبحث عن الحقيقة ولو في الوحل.. أنت مثل مفتش عن شيء غائص في الزبط والوحل.. مضطر إلى أن يفتش لأجل كشف شيء، إنقاذ شيء.. في بحثك العلمي واستقرائك ستعرف كيف ولماذا انهمك الشارب المدمن في

الشراب؟.. والساقطة كيف انجرفت وانحرفت وهوت، وكيف كانت سبل الإغراء ووسائل المزالق والمهالك؟..

- يلومنا الذين يروننا هناك.

- لا يهم العبرة بالنتيجة وما تصل إليه من غايتك وهدفك، أتعرف أن هناك طريقة ومذهبا صوفيا (الملامتية)، ومنهم وعلى رأسهم (فريد الدين العطار) العالم الصوفي.. كان الملامتية في الظاهر يرتكبون من المعاصي والرذائل ما يلامون عليه.. ويؤاخذون لكن هذا في الظاهر وما يتخيله الناس عنهم وما يتصورونه عنهم لكن في الحقيقة والواقع هم أصفياء الجوهر والمخبر.

- وماذا يقول أستاذ التاريخ المعاصر أو الصحافة والمتسرعون في الأحكام.

- وماذا يهم الأدباء والفلاسفة وأهل الدراسة والبحث من نظرات وأقوال وتقولات وتشنيعات إذا توصلوا إلى الحقيقة وكشفوا عن الظاهرة وأدوا الواجب العلمي، أتعرف كان ما بين مقهى متاتيا وحي الشرامطة والمشبوهات إلا خطوات.. هل ضر هذا الجلوس جمال الدين الأفغاني ومريديه حوله في مقهى متاتيا، ذهبت الشائعات وتبخر لوك اللائكين وبقى التاريخ الأدبي والفني العبرة بالباطن لا بالظاهر.

- ذلك يا أستاذ عند الله لا عند الناس أما الناس فلها الظاهر.

• وأخيرا اقتنع بالذهاب في جولته واستطلاعه العلمي لدراسة ظاهرة أصحاب الإدمان والكيوف..

- هل أذهب بحقيبتي وملابسي أم أتنكر وأتخفى؟..

- ذلك أمر متروك لك.. أنت دارس علم..

- أستاذ، هل أسأل النموذج التي أدرس حالتها كيف انشغلت وانزلقت سؤالا مباشرا أم ادعها هي التي تسرد وتفضفض على مهل ومراحل؟!

- متروك للظروف والملابسات تريد مسايسة ولباقة..

- أستاذ، وإن هوت بالنعل والشبشب على رأسي؟!

- ضحية علم لا بأس.. ضريبة البحث..

- وإن نادت الجارات.. وكانت فضيحة..

- أحيانا وفي بعض الحالات والظروف يجب ألا تشعر صاحبة الحالة بأنك تدرس الحالة..

- كيف لا أشعر صاحبة الحالة بالحالة؟.

- لا تشعرها مباشرة بأن تحقق معها وتدفق في أسباب الانحراف والانزلاق.. أنت محقق عالم نفس هل يغلبك صحفي مبتدئ يجر الناس إلى الحديث والفضفضة؟!

- أستعمل لباقتك حتى تتعاطف معك.. وتثق فيك، الثقة شيء مهم للمحقق والباحث الناجح الاطمئنان والتعاطف والثقة جسور

للوصول إلى الهدف والحقيقة أنت اخترت الموضوعات الأخطر حساسية في سبيل البحث العلمي الجاد.

- وذهب مرسي إلى الحانات والطبارن والأماكن التي يتردد عليها المدمنون من أصحاب الكيوف ليتعرف على أسباب الإدمان وعوامل الانهيار النفسي ليصل بدراسته إلى التشخيص وبالتالي إلى العلاج والشفاء.. ليتابع هذه الخيوط والمسارب إلى أين تؤدي، تعرف عليهم حشاشين ومدمنين جلس إليهم حاول أن يتعمق حياتهم.. "جرعة.. شفطة.. جبدة.. ثم تجربة"..

وهذه الغابة القادمة من أطراف الهند كانت قد أهلكت شعب الصين أيام الاحتلال البريطاني.. وقامت من صفوف الشعب ثورة أنقذت شعب الصين من بؤرة الفساد والغيبوبة القاتلة.. والسموم الفتاكة..

- هدرز معهم.. وقدم استمارات وبيانات يملؤونها.. ثم الدراسة الشفهية بدل الاستمارات الجامدة..

الاسم.. اللقب.. أول جرعة كيف مشت قدماه وغابت بصيرته في تلك البؤر.. تردد على تلك ألاماكن ذات الضباب الأزرق التي كاد يصبح فيها الزبائن من الذباب الأزرق.. سوائل ومحترقات، وجوه مصفرة مغبرة.. وهياكل بشرية والألسنة والأقدام المرتعشة، نفوس متربة..

وهاله هذا أذهله ذهول الأسف والتحسر أن يعثر في تلك البؤر الشبيهة بسراديب وجحور الفئران على نماذج من جميع المستويات والفئات.. حتى ذات المستوى الثقافي وأهل الفن، بل هاله أسفه أن دعاة الفن أكثر.. جنوا على مواهبهم بانزلاق أقدامهم هنا.. لماذا يسقط بعض من الناس.. هل هو غياب المقوم الديني؟..

أم ضياع المقوم الأخلاقي؟.

أم رفقة السوء.. والمحاكاة والتقليد وفقدان المثل؟

أم نوع من ضعف النفوس وفقدان الإرادة والعزم؟

أم تراكم المشاكل وعدم رقابة الأسرة وفقدان ولي الأمر الحازم..

أم هو الوضع الاقتصادي لبعضهم؟

ترى أم هي السلبية والهروب وعدم الشعور بالمسؤولية تؤدي إلى التوهان وآنية اللحظة بدون مراعاة النتيجة؟

أم مع هذا المناخ والبيئة..

أم عوامل القلق والضيق؟

هذه الساقية حلوة العينين ذات الدلال والغنج.. والرهج والوهج كيف بدأ الوهج يتلاشى من وجنتيها وعينيها حتى نبرات الصوت بدأت تتآكل؟!..

المال.. أم الفقر.. الحاجة والافتقار.. أم اضطراب عائلي؟

ناوشها هابشها التدريج بالإغراء والإغواء وحاول أن يدرس حالتها..

- ومرت أيام.. وانطوت أسابيع وأشهر والباحث مرسـي تأخرت دراسته وتباطأ تقريره العلمي المنتظر.. كـان سـيقدمه للدكتور "أسعد مظهر"..

تقدم زملاؤه الآخرون بتقاريرهم ودراساتهم سواء من اختار المتصوفة والمتدروشة.. أو الذي اختار الوسط الفني.. أو مـن اختار الشحاذين والمتسولة.. أو مستشفى ومصـحة الأمـراض العقلية، وانتظر الدكتور أسعد مظهر، وطال انتظاره، لم يصـل لا البحث ولا الباحث.. ولا بأس بعطلة وموسم وامتـداد المـدة الغائب عذره معه..

قد يكون استقراؤه الواسع.. وتصوره العلمي يقتضى مزيـدا من الفترة الزمنية لسعة الموضوع.. وتشعب أطرافـه وتنـوع، نواحيه إنه يدرس ويستطلع حالات من المنحرفين.. والحشاشين والمدمنين.. وتوالت مواسم.. وفترات.. ودورات..

كان لابد أن يسأل عنه بل أسرته سألت عنه بتوجس ولهفة.

لم يعد.. حتى كادوا يعملون إعلانا في الصـحف الحكوميـة والشعبية تحت عنوان "خرج ولم يعد" ولكن الدكتور أسعد مظهر نصحهم بالتريث والتمهل.. والإعلان عن ضياعه مع الصـورة عيب بل وصمة في المحيط الجامعي وأساتذة البحث العلمي..

لابد أن يظهر وخاصة أنه ليس مطاردا ولا مطلوبا ولا هــو من أصحاب المشاكل والخصومات والثأر.

من غير اللائق أن ينشروا تحت صورته.. المــدعو فــلان خرج ولم يعد ومن يعثر عليه أو يعرف عنوانه يبلغ أهله وذويه أو أقرب مركز شرطة.. أو هاتف قسم البحوث العلميــة علــم النفس التجريبي الدكتور أسعد مظهر.. وأسرته تخوفت وتلهفت ربما ذهب حادث ووضع في ثلاجة أحد المستشفيات ولم يتعرفوا على هويته..

وأخذ الطلاب يتفننون في عنــاوين وإعلانــات الصــحيفة الحائطية من مثل:

- باحث مبحوث عنه!!

- يا ولاد الحلال من شاف عالم تايه؟!

- إنسان لا يترك بصمة

- العلامات المميزة.. حاسر الرأس.. مطرم الشفتين.. زائغ العينين.. مفلس الجيب.. في رأسه ثلاثة مشاريع استيطانية من يعثر عليه له جائزة كتاب دليل الحائرين أو معجــم البــاحثين.. تأليف (الواصل بن المعتمد على الله الهمايوني)..

وطلبوا للتائه في بريد الغائبين التائهين أغنية (تجي تصــيده يصيدك)

* * *

غدا الشيخ مرسي حالة أو ظاهرة وموضوعا وحقل تجربة وعبأوا في قسم الدراسات استمارة وأطلقوا عليها رمزا علميا، وجاء الدكتور أسعد مظهر ورفع صوته بالمقدمة التقليدية ثم غيّر نبرته وخبط المنضدة حتى أن الكوب أمامه كاد يصبح شظايا مع رذاذ شفتيه.

- في آخر الفصل الدراسي وعند الموعد المقرر أو بعد بقليل في قاعة المحاضرات سلم الباحثون دراساتهم واستطلاعاتهم عن شرائح وأنماط المتصوفة والصعاليك وأهل الفن.. إلا بحثا طال انتظاره.. المدمنون والتائهون، وتطلع الدكتور أسعد مظهر في المدرج..غاب صاحب البحث الاستطلاعي الاستنباطي ولم يعثروا له على أثر..
- غاص الشيخ مرسي.. وجاء التبليغ من الأهل ومن جهات أخرى..

لقد عربد.. وتاه وجرفه التيار.. غدا مدمنا..

وقال الدكتور أسعد مظهر محلِّلا معلِّلا:

- يظهر أنه بالغ في الاندماج والتجاوب، عاش بصدق مع نماذجه وتعاطى ما يتعاطون، ما عاد مرسي ذلك الشخص الطيب، بل أصبح الشخص الاعتباري.. انتقال الظاهرة من الطبيعة إلى الاعتبار.. هي حالة استنباطية تجده في المستشفى أو السجن أو بين أماكن لا يمكن للمحترم أن يذهب إليها!..

غدا مرسي حالة من يذهب إليه ليتعرف على أسلوبه وأسباب انزلاقه.. من يتطوع لدراسة حالة الإدمان؟.. من يختار حالة مرسى؟!.

لم يرفع أحد إصبعه خوفا من إحداث مرسى آخر أو يتكاثر المرسيون..

من يحاول أن يعيد إلينا؟..

وصمت الكل ولم تصمت العيون.. ورن الجرس لانتهاء المحاضرة.. وهرعوا موسم الامتحان على الأبواب..

• وبحثوا عن موضوع آخر.. وإن كان الدكتور اسعد مظهر مازال كل عام يكرر مقدمته التصورية في ضرورة دراسة الأحوال النفسية والاجتماعية بطريقة الواقعية والاحتكاك أو التلبس والتمخرط..

- لقد ذهب ضحية يا أستاذ..

- لا بأس.. كان للنيل عروسة كل عام تقدم ضحية له لأجل أن يفيض.. البحث العلمي له ضحايا لا بأس.. من يريد أن يكون عروسا من أجل البحث..

- لكن حكاية العروس لفيضان النيل خرافة.. وأسطورة يا أستاذ..

- الأساطير أيضا لها جذور من الحقيقة.. الدلالة..

ووجّه الدكتور أسعد مظهر سؤالا إلى طلابه الذين غصّ بهم المدرج:

- من يذهب لدراسة حالة الشيخ مرسيّ؟

تجدونه في السجن أو المستشفى أو هائما في الطرقات أو غاطسا في البيئة التي جنت عليه..

حالته مادة خصبة للدراسة والتأمل.. اندمج فجرفه التيار..

- لكن لم يرفع احد في الفصل إصبعه.. إنما سرت همهمة ثم لحظات صمت وصمت عميق، ومرت الأيام وتوالت الأسابيع والأشهر.. وتعاقبت الفصول.. وامتلأت وفرغت المدرجات.. وتخرج المتخرجون..

وعندما ودّع الحياة فجأة الدكتور أسعد مظهر لم يمش أحد في جنازته من الأساتذة والطلاب أو أصدقائه القدامى.. غير الشيخ مرسى في لحظة صفوه وساعة استفاقته في لحظات عند الانعتاق الذاتي..

◘

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

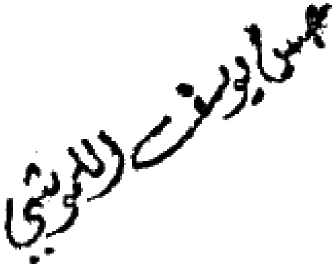

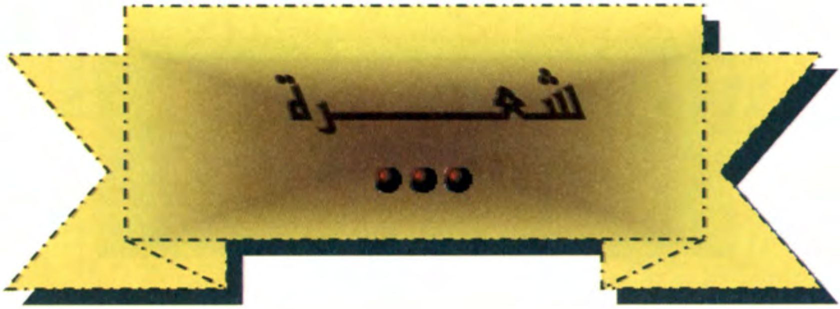

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

قالت في لهجة المتوجس، وانفعال المتوتر لأخيها الطبيب:

- عندي مشكلة.

وأجاب مشفقا متسائلا:

- لا بأس.. في المعدة، و إلا في الرأس؟!

قالت وهي تزفر بشدة، وتتململ:

- شعرة.. صحيح شعرة!

- إن شاء الله لا سو.. لا سوية.

وسألها أخوها قائلا:

- من هو؟!

- زوجي.. راجلي عافاك الله.

- لا بأس.. ومتى اكتشفته؟!

- مساء الأمس

وبحكم أنه طبيب متمرس سألها أخوها:

- وكيف عرفت الحالة؟!

- الظاهر عليه.

- سبحان الله.. ومتى اكتشفه؟!

وأجابت بصوت أكثر ارتفاعا. وأشد تهدجا وحدة.

- أنا.. أنا بنفسي..

وهى تشير بإصبعها إلى صدرها.. وتكرر:

- أنا.. أنا..

وسألها أخوها الطبيب مستغربا:

- كيف؟!.. وأين.. وما هي العوارض؟!

أجابت في نبرة حادة وهي تقلب عينيها وتمط شفتيها:

- على أكتافه الملعون فضحه ربي..

- على أكتافه؟! كيف؟!

- في السترة.. في "الجاكة".

- تقصدين من ناحية الكتف من تحت السترة.

- لا.. لا.. من الخارج.

- كيف من الخارج.. شيء واضح؟!

- إيه.. شيء واضح.. شيء فاضح.. باين أنا اكتشفته.

- بالآلة أو المجهر؟!

- لا.. بل بالعين المجردة.. بالصدفة.. لازم تعالج الموضوع.. ساعدني يا خوي.

وقال أخوها.. وهو يهز رأسه المثقل بكثير من المعلومات والمحفوظات:

- صحيح كل أو أكثر الاكتشافات العلمية والظواهر الكونية يكون عن طريق الصدْفة!.

والتفت إلى ناحية أخته المتوتر صوتها قائلا مستفسراً:

- أعنى في الحالة التي أشرت إليها الظاهر هناك أعراض.

قالت..

- أية أعراض كيف الشمس واضحة فاضحة!

ثم أبرزت السيدة الغاضبة ذات الصوت المتهدج والعيون المتشقلبة.. والطرمة الممتدة شعرة وصاحت بصوت أعلى من دلال في سوق الهرج.

- هذا يا أخي الدليل والبرهان واللي ما عنده شاهد ودليل كذاب..

هنا وقف أخوها الطبيب ذاهلا.. أو ازداد حيرة وذهولا.. والذهول يربك.. وسأل:

- كيف؟!

وقالت:

- هذه الشعرة.. أريد أن أعرف من أين جاءت.. ولمن! هل هي لبني آدم؟.. طبعاً هي لامرأة.. أريد أن أعرف كم عمرها؟!

أجاب أخوها عن هذا السؤال المفاجئ الغريب:

- من الناحية العلمية ممكن أن نتعرف عليها في المعمل عند الزميل الطبيب الشرعي.. والمحلل.. بعد أسبوع فهو في أجازة.. أو رحلة علمية.

قالت:

- لا.. لا.. بل أريد أعرف عاجلا وسريعاً حالا.. بالا.. لا إهمال ولا إبطاء.. وبصراحة.. هل هي شعرة لأجنبية رومية، وإلا مواطنة مسلمة، وإلا شعرة واحدة كافرة هنا..

ازداد حيرة وارتباكا وقال الطبيب لأخته المتنرفزة الهائجة:

- اسمعي يا أختي.. أما أن نعرف شعرة ذكر أم أنثى فممكن.. شعرة لإنسان أو حيوان.. ممكن كم عمرها التقريبي.. ممكن لكن.. سؤالك المحير المربك "هل صاحبة الشعرة جميلة أم قبيحة وكافرة أم مسلمة؟!"، هذا حقيقة سؤال عجيب غريب.. طلبك فوق الإمكان والتصور ينقصه أن تقولي: "هل هي شعرة تقدمية أم تأخرية.. متحررة.. أم رجعية ومثقفة تقرأ أم أمية.. وساكنة فين؟! وعنوانها أين؟"!

وقالت له.. وهي مصرة على معرفة كل شيء عن الشعرة:

- طبعاً.. العلم تقدم.

وأجابها:

- عفوا يا أختي.. يا بنت أمي و أبي.. وحتى الجهل أحيانا يتعمق.

قالت وهي تزوم.. وتمسك بالشعرة بين أصابعها قابضة عليها بشدة وحذر مخافة أن تنزلق أو تطير من هبّة ريح أو نفخة شفاه، تمسكها بدقة وعناية مخافة أن تلامسها أصابع أخرى كأنها تحقيق جنائي تريد أن تتمعّن في البصمات وكشف الجُرّة، تريد أن تتعرف على أصلها وفصلها وما هي الحكاية التي وراءها وأكدت في نفسها قائلة:

- هذا دليل على الخيانة الزوجية.

- أين عثرت على هذه الشعرة؟!

- على كتفه.. وفي الليل، وأريد أن أعرف من هـي هـذه الملعونة.. آه لو أتعرف عليها نهارها وليلها أسود.

- كيف وصلت إلى كتف الزوج المستقيم المحصن؟!

وكانت ليلة تماوجت فيها الشكوك وعصفت بهـا الريـب.. وقالت.. وهي تشمشم الشعرة.. وتستعرضها:

- لابد أنها رائحة باريسية وليست من صنع محلي.. رائحة من وراء البحار.

وقالت لها إحدى الصويحبات من غاويات الثرثرة والنافخات في الضرم.

- يا وخيتي.. زمان لقيت شعرة من روميـة فـاجرة فـي سوريته.. (قميصه).. لكن ما سكت.. خليت ليلته حرفة زقحـة حتى يعرف نحن النساوين ما يتعدى علينا تلوعيب الرجالـة.. مالهم أمان.

والصويحبات أخذن يقلبن الشعرة بحذر ورفق ويقلبن أمرها.. ويتبارين في أنواع الشكوك والاحتمالات.. وأنواع التخريجـات قالت إحداهن وهي حولاء شوهاء:

- تسريحة الرأس يظهر أنها من النوع الجديد "موضة".

قالت أخرى.. وهي مدموكة تترهل من الشحم والدهن وتلهث من شدة السمنة:

- لازم شعرة وحدة "بيوندا".

وقالت.. إحدى النحيفات طويلة مثل قصباية فارغة:

- لا.. لا.. يظهر أنها شعرة شقراء من ولاد الشقروات من بنات الحرام ملأن الأسواق والشوارع.. لازم راجلك عرف واحدة منهن.. إيه تره شمّي الشعرة بالك تعرفي الصنة.

وقالت إحداهن في نبرة هادئة:

- كوني عاقلة.. بالك.. ربما كان عند الحلاق.. الحسان.

- حلاق النساوين غير حلاق الرجالة واش دخله عند حلاق النساوين والكوافير يا أنا يا هو.. أنهاره أغبر.. طيّح مزاله.

وأكدت على أخيها قائلة:

- أريد أن تذهب بالشعرة للمحلل الدكتور في المعمل أريد أن نعرف سنها.. ومنطقتها وأي ريح رمتها.. في كل تركينه متلوعبات.. إيه! عقابها شعرة.. يا حشمتي.. يا ناري.. يا شماتة العدوان فيا.. إن كان سكتت نتبلغم.. نتبغدد..

- إيه.. لازم كان يعرفها من زمان.. ما هو سلام ولا كلام عادي.. هذا شيء كبير.. هذا السكوتي تحته كوتي:

وأضافت إحدى المتحاورات معها الباحثات معها في مشكلة الشعرة وهذه الثرثارة (الطرطارة) كانت ألغت خطبتها وردت شبكتها لأن الخاطب لها لا يحب المثقفات المتبرجات وقالت:

- ما المانع أن تسأليه وتستجوبيه وتصارحيه من أيـــن لـــك هذا؟.. وتفكي الارتباط معه!

ولكن رفضت هذا قائلة:

- لا.. لا.. لابد تفاجئه بالحقيقة الدامغة الدليل المادي.. لابد كان يرقص مع واحدة.. والا بايت مع واحدة.

- لكن هو لم ينم خارج البيت.. قالت إحدى العاقلات.

- بالك.. ربما الريح طيرها.. جاءت من الجو.

وأجابت المتنرفزة الغاضبة الهائجة وهي تتأتئ وتبأبئ وتهز رأسها علامة الرفض لهذا الاحتمال الطقسي:

- أمس في نشرة الطقس والأحوال الجوية لم يكن هناك ريح ولا عواصف لم يكن هناك ريح ولا هواء ولا نسمة تطير شعر امرأة وشابة.

- واش عرفك أنها شابة؟!

أجابت عن هذا التساؤل المفاجئ:

- وريتها لوحدة مساعدة حسانة عندها صالون عصري قالت "هذه شعرة من الموديل الجديد".

قالت معلنة ومتسائلة أخرى:

- ربما باروكة.

- لا.. بل شعرة حية.

لم يهدأ لها بال، ولم يهنأ لها خاطر.. وجلست تحلل وتعلل وتستعرض الحالة.

- إيه.. الأيام الأخيرة كان يأتي متأخراً..

- إيه.. كان لا يطيق الحديث مع أحد يجلس ويفكر وحده..

- إيه.. وضبطته متلبساً بقراءة قصة غرامية.. وحط جنبه قصيدة شعرية..

- إيه ورد على الهاتف مرة ومرتين (بشويش)، وتنهد أثناء الكلام مرتين أو ثلاثا أظن أربع تنهيدات حارة ما تطلع التنهيدة إلا من واحد قلبه مشغول..

- إيه صحيح كان لازما آخذ بالي. أصبح الكذاب قال: "جاءته هدية لازم هدية من صاحبة الشعرة الملعونة"..

- إيه.. ومنذ يومين سلت رأسه ولمّع الحذاء.. والصبح طلع بدري. لا كعادته.

- واستنبطت من حركاته وتصرفاته واستدللت من وجود الشعرة الغريبة فوق كتفه على وجود أمر خطر طارئ.

- لابد أن هذه الشعرة جاءت من خلال عناق طويل..

وتصورت الرأس على الكتف.. والشعر متماوج متهدل، أو أثناء رقصة من رقصات الديسكو.. لابد من اكتشاف وفضح المجرمة صاحبة الشعرة.

قالت إحداهن وهي ساقطة في امتحان شهادة ابتدائية ومن قارئات "اجاثا كرستي" وسلسلة "عبير".

- سمعت شعرة قسمت ظهر بعير، هذه شعرة تقسم ظهر رجل.. ردت عليها أخرى من هواة الكلمات المتقاطعة ومجلة نصف الليل والأبراج.

- بل قشة قسمت ظهر بعير.

- ربما في حكاية أخرى فيها مخزن تبن وقش، هذه شعرة على كل أنظف من قشته.. إيه عامل روحه ساهي.. يا ما تحت السواهي دواهي.. سمعت جدتي تقول: "لا أمان للرجال".

- وبعد محاورات ومناكفات.. وشد وجذب ومدّ وجزر وتقليب الحالة تبيّن أنها شعرة بريئة.. طارئة.. طائرة من زحام السيارات العامة التي ركبها، أتوبوس أثناء عودته من عمله وبعدها قرر في حزم وإصرار:

- ألا يركب في ذهابه وعودته السيارات العامة.

- ألا يقترب من امرأة في زحام.

- وأن ينفض السترة الجاكة أو المعطف عند الدروج أثناء عودته.

- ومن قبيل الاحتياط ودرءا للشكوك ودفعا للوساوس وسد باب الريح والهواجس وسدّ باب الذرائع، ونوافذ الاحتمالات.. عمل الرجل على تثبيت مرآة كبيرة مصقولة لمّاعة لا هي

مشروخة ولا مدغدشة وضعها بقوائم ثابتة عند السـلم وقـرب المصعد لينظر فيها عند عودته إلى البيت ومن احتاط سلم.

□ □ □

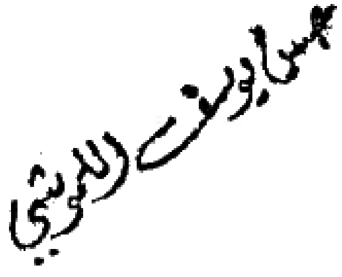

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

عيسى يوسف اللوشي

ورفعت الجلسة ...

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

عُيّن الأستاذ "منصف عبد الحكم" محققا في بلدة تمتاز بظاهرتين تفشتا بين الناس واستفحلتا بشكل يثير الانتباه والإزعاج وخاصة من ناحية السلوك العام.

شيء أزعج حضرة المحقق وكل مهذب واعٍ مثقف.

وهما دلالة على عمق الجهالة وسوء التربية والتخلف، رغم الثراء الظاهري أو الطلاء الحضاري، ثراء فاحش من ناحية.. وألسنة أفحش.. بذاءة في الأسلوب رغم استهلاك أدوات الحضارة.. وتكاثر زخارف المباهج في المأكل أو المشرب أو الأثاث والمسكن.

ويظهر أن ذلك السلوك والأسلوب المبتذل البدائي.. كان متوارثا وغدا شيئا تلقائيا.

وأراد الأستاذ المحقق أن يكون له من اسمه نصيب حازم ومنصف..

سيكون حازما غير متهاون.. في تطبيق مواد القانون واللوائح من أجل تهذيب وتطهير الأعراف ومراعاة السلوك الأخلاقي.

يريد الأستاذ منصف عبد الحكم حازم أن يطهر الألسن خاصة ما يطلق عليهم السوقة والرعاع من فحش القول وبذاءة اللسان، والأساليب السيئة وتلك العبارات الجنسية التي كانت تنتشر في بعض الأوساط، وفى لهجات فئات بشكل بذيء

مقرف، ونغمة مقززة.. منفرة هابطة تجانب الحياء والخجل، من الشخير وضرب الفص والعياذ بالله.. وتحريك بعض الأصابع.

وكان يزعجه أيضا في تلك البلدة تفشي ظاهرة الحلف بالطلاق، حتى في الحوار والحديث العادي وصفقات المساومات والبيع والشراء والخصومات وحتى في الأمور البسيطة، والأشياء الصغيرة ينزلق يمين الطلاق.

وما ذنب المرأة المسكينة ربة البيت وأم البنين، وركيزة العائلة.. وحامية الطفولة تصبح بكلمة مطلقة كالقذيفة المدمرة.. وتغدو مهيضة كسيرة الجناح؟!.. الزوجة القابعة في بيتها يزلزلها يمين الطلاق بلا مبرر من زوج أهوج اللسان، تأتيها هذه "الهدية" المباغتة من أحمق نكد سريع الانفعال لا يقدر ما يترتب على ذلك التصرف الأهوج من عواقب ونتائج.

والظاهرة الثانية التي أراد أن يتصدى لها المحقق "منصف عبد الحكم حازم" هي تفشي سب الدين في الأسواق والمحال العامة والطرقات والمقاهي.. وما أسخفها وأرذلها، تلك الظاهرة سب الدين والملة.. "استغفر الله"..

وفى حكاية حلف الطلاق المنزلق على بعض الألسن غير المهذبة.. هل يحكم بالانفصال.. أليس فيه جناية بلا مبرر؟!.

أم كيف يجد مخرجا وفتوى ترضي جوهر الشريعة والدين.. وحفظ كيان الأسرة؟.. أم يكتفي بتأديب السفيه بـذيء اللسان ومعاقبته ونهره وتعزيره؟..

وقد جعل الشرع الحكم ضوابط للطلاق، والفقه تكفل بذلك، وما شرع الطلاق إلا للضرورة القصوى وهو أبغض الحلال.. ولا يليق أن يكون يمين الطلاق بلا مبرر ولا داع... وأن ينساب رخيصاً على الألسن عبثا وملاسنة حتى في المزاح واللعب والخصومات في الأسواق.

وشدد الأستاذ "منصف عبد الحكم حازم" في تأديب العابثين المنسابة ألسنتهم بالحلف والأيْمان وسب الدين.. يلاحق أهل السفه والبذاءة.. وطلب من البرّاح المنادي أن يذهب إلى الأسواق ويطوف بالتجمعات.. ويمر في الميادين العامة وأماكن تزاحم ووجود الناس، ويعلن بصوته المجلجل المدوّي.. الجهوري عن تشديد العقوبة والإنذار بأن من سب الدين ولعن الملّة سيحاكم ويؤدب، ويا ويله من المحقق لن تنفعه وساطة، ولن يجديه ترجٍّ، وتزداد العقوبة وتتضاعف وتصل إلى السجن والغرامة إن تورط السفهاء وأهل البذاءة والرديف في السباب حتى يتأدب السفلة من الهبود والهبط وتتطهر الألسن، وتسمو الأخلاق، ومن أجل أن يرتفع المستوى الاجتماعي، وطبعا استشهد بالبيت المحفوظ الملاك في الأشداق..

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت .:. فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كان البّراح ذو الصوت المدوّي المجلجل يصــرخ ويتجــول رغم الملصقات والإعلانات على الحوائط والمنشورات.. ولكن هناك أميين وغير أميين قلما يلتفتــون، ويهتمــون بملصــقات حائطية ويظنونها مجرد دعاية حكومية أو إعلان تجارى.

ما كان من حضرة البرّاح الضخم الصيّاح المرداح.. جهيــر الصوت.. بوقي النبرات إلا أن أخذ في يده جرسا مثل الــدلالين والمعلنين في الإشهار المزادي.

وصاح بعد مقــدمات التنبيــه والإنــذار للفــت الأبصــار والأسماع.. والرّواح والغوادي:

- إيه يا ناس ياللي ماشي، ياللي جاي.. اسمعوا.. وعــوا.. وتفطنوا.. وانتبهوا يرحمكم الله.. وليبلغ الحاضر الغائب، ومــن لم يسمع ويفهم، ومن لا ينتبه ذنبه على جنبه، وليعلم الجميــع، وليحذر الجميع.

اليوم عُين قاضٍ جديد شديد قوي الشكيمة - [ترى هل عنده شكيمة، وتصور شكيمة الإنسان] - واستمر الصارخ بالإعلان البرّاح في ترديد الإنذار والتوضيح.

- نعيد.. ونكرر.. اسمعوا.. وعوا.. جاءنا محقق.. مــدقق حازم ولد حازم، راضع من بز أمه.. شديد.. ما يعرف في الحق حتى بوه، أكرر وأعاود.. وقد أعذر من انذر.. وكل من ضــبط

متلبسا بسب الدين ولعن الملة، القاضي والمحقق يطلع دين أمه.. ودين أم اللي جابه ردوا بالكم أهو أعلمناكم، يبلغ الحاضر الغائب وذنبكم على جنبكم.

وذهل الذي سمع!!.. واستغفر بعضهم واستهجن بعضهم هذا الأسلوب من صاحب الجرس الملعلع والحنجرة المدوية.

وذات صباح جرجروا وساقوا أحد القاطنين أو المتقطنين في البلدة بتهمة سب الدين، ومثُل أمام حضرة المحقق بعد أن بات في السجن ليلة ليلاء.

التهمة واضحة لقد تجرأ هذا الوقح وارتكب إدّا.

- الاسم؟

- عز الدين.

- اسم الأب؟

- نصر الدين

وقال المحقق وهو يداعب القلم ويعبث بالورق في حركة تلقائية..

- لابد أن تذكر الاسم الثلاثي حسب اللوائح والعرف.. اسم جدك لئلا يحصل التباس في الأسماء.

- علاء الدين بن كمال الدين وجد الجد نهج الدين، وهّز المحقق رأسه وقال:

- ما شاء الله.. ما شاء الله..

أرجو أن تذكر اسم الأم يرحمها الله.

قال الماثل أمامه:

- لا ما هي مرحومة بل هي حيّة.

- المهم.. أطال الله عمرها.. ما اسمها؟!

- إيمان بهاء الدين.

- وما هو اسم جدها.. ليكون الاسم ثلاثيا؟..

- تقي الدين.

- واسم البلدة أو القرية؟

- علم الدين.

- من فضلك اذكر الحومة أو العنوان، ممكن مراسلتك أو القبض عليك مرة أخرى عند اللزوم.

- أقطن في وسعاية كريم الدين.

وزاد رأسه اهتزازا وهو يقول:

- اللهم زدنا علما.. أين تقع هذه الحومة؟!

- متفرعة من حي صلاح الدين.

وتوالت أسئلة المحقق:

- ما شاء الله.. وما هي المهنة يا عز الدين؟

وكاد أن يقول "يا قليل الدين".. ولكن تمالك قليلا وهو يكرر سؤاله:

- ما هي المهنة أو العمل.. أين وما نوعه.؟!

أجاب في برودة واللامبالاة:

- مسؤول في مطبعة اسمها "لواء الدين".

وضرب المحقق "منصف عبد الحكم حازم" المنضدة بكلتا يديه، وقد احمرّ وجهه واحتقن.. ورعشت شفتاه وتراقص حاجباه.. حتى كاد الدم ينفجر وينزّ من عينيه، وأنفه، وأذنيه وصاح:

- كل هذا وأنت في هذا الوادي ويجرجرونك بالتهمتين الممنوعتين.. عجب أمرك!!.. أنت عجيب..

وقال المحقق منصف:

- عليّ الطلاق ماريت مثلك!!

وجمجم وبرطم.. كانت القذيفة الكلامية والحركة المباغتة أن رماه بالدواة في وجهه وقال:

- امش غور انتلف من قدامي يلعن... و... أبوك واللي جابك.

□ □ □

محسن يوسف الموشي

شتمني في المنام ...

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

- كلما خرج "رافع عبدالحكيم" من البيت صباحا.. دعت له أمه رافعة يديها متهدجا صوتها في نغمة تحتان وتبتل، داعية له بالتوفيق والنجاح والعودة سالما غانما.. إنه وحيدها وقرة عينها.

حمدت الله على فيض نعماته. إن كبر ولدها "رافع" وتخرج من الكلية وغدا محاميا له مكتبه وزبائنه وسمعته الطيبة، وإن كانت "رجعة بنت المحمودي" تفضل وصف لقب "افوكاتو" على كلمة "محامي" لأنها الكلمة التي لها وقع في نفسها.

في صغرها سمعت الكلمة يصفون بها أحد المثقفين الكبار من أقاربهم في ذلك العصر الذي كان التعليم فيه نادرا والخريجون قلة.. أعجبتها كلمة "افوكاتو".. افوكاتو قد الدنيا.

وسمعت أن الافوكاتو موطن الاحترام والتقدير، إذا كان نزيها وجريئا.. وهي صفات مكتسبة من جدها الذي كان من فوارس زمنه..

وترفع صوتها بالدعاء ليعلم مزيد محبتها له، واعتزازها به.

تراه طفلا كبيرا يحتاج إلى مساندتها ودعائها رغم أنه أصبح رجلا يعتمد على نفسه بل يعتمد عليه الغير، لكن رزقه من مشاكل الناس، وقضايا الناس وكل يوم السؤال والجواب:

- رايح وين؟!
- رايح للمحكمة..
- رايح للسجن أو المعتقل.

لاقدر الله. كفانا الله الشر والضر.

- إيه حكاية السجن والمعتقل؟!

- كنت أزور سجينا.. وأسأل عن مقبوض عليه ومعتقل لاخذ منه معلومات حول موضوعه وألقنه كلمات تنفعه في التحقيق، والاستجواب.. والدفاع عن النفس.

وترفع "رجعة المحمودي" الأم الحنون صوتها في عفوية ونبرة صادقة.

- روح يا ولدي الله يرزقك بتهمة.

- روح يا ولدي الله يفتح عليك. ويرزقك بقضية ومشكلة.

وقال رافع عبد الحكيم لأمه العجوز وهي على سجادة الصلاة:

- يا أمي الله يخليك ويطول عمرك غيّري صيغة الدعاء.. غيّري كلامك وأسلوبك، ربما يكون باب السماء مفتوحا ويسمعك ملاك يتجاوب مع حرفية الدعاء.. وأنت طاهرة صادقة فأرزق بتهمة فعلا.. أو أقع في مشكلة وأتورط في قضية ولست أول

محامٍ أو على حد تعبيرك "افوكاتو" ينقل من بيته أو مكتبه إلى حيث زبائنه أو محترفي التردد على ذلك المكان.. ضيف الحكومة.. هناك عند دار خالته.

- من هي خالته؟!

الحبس يسميه بعض الناس سخرية أو تطرفا وتهكما "دار خالته".

- لا قدر الله.. إن شاء الله عدوك.. بعيد الشر.

- جدك حبسوه الأروام. هم العرب يحبسوا في بعضهم؟!.. روح يا ولدي يجعلك في كل خطوة سلامة وكل خبطة في العرجون..

- يرزقك بتهمة كبيرة تخلص فيها الناس وتخلص..

وكانت رجعة بنت المحمودي تقصد في دعائها أن يرزق ولدها بقضية تكون موضع دفاعه ومورد رزقه الحلال ويدافع عن المظلومين ويبيّن الحق، ويوضح وجه الحقيقة.

ومورد هؤلاء المترافعين من قضايا الناس ومشاكلهم وقد أشار الشاعر الحكيم الحصيف في بيت من حكم الموازين والتعادلية في كفتي الأحوال ومسار الحياة:

"**مصائب قوم عند قوم فوائد**"...

- خرج الأستاذ رافع عبد الحكيم من البيت بعد أن تلا كعادته آيات بيّنات.. أخذ العادة عن والده ومازال متابعا لها، إذ

كان يصحبه عند الخروج وهو يتلو أيات من القرآن الكـــريم.. ومن أوراد حفظها عن جده.

• وهبط على مكتبه زبون استفتح به في هذا الصـــباح.. مستطيل الوجه.. مثل رســـوم جحـــا فـــي ريشـــة الرســـامين الكاريكاتيريين أصحاب الريشة الساخرة.. ولم يكن "لنصر الدين خوجه" الشهير بجحا رسم حقيقي، ولم يصنعوا له تمثـــالا فـــي عصره.

وكان الرجل القادم عليه في هذا الصـــباح البـــاكر زئبقـــي العين.. مترمش الجفون مترجرج النظرة مـــرتعش الشـــفتين.. متداخلا في كلامه مثل شريط مسجل مسرعا.. معرورق اليدين ويلتفت بكامل رقبته المستطيلة، ودماغه الكرنـــافي.. أي مثـــل الكرناف وكأنما الرأس ركب على آلة لولبية يدور فـــى حركـــة آلية.. ويلتفت فى سرعة وحذر كأنما يريد أن يقطع خط مرور مزدحما.. في منطقة تعج بالسائقين الحمقى.. أو هـــو بشـــعور باطني كأنه يتوجس من أحد يطارده أو خصم يتهدده ويلاحقه.. وقال الرجل للأستاذ رافع عبد الحكيم.. بعد أن فـــرك أصـــابع يديه، ولعق شفته العليا، وشفته السفلى بطرف لسانه:

- عندك يا أستاذ.. دلني عليك أولاد الحـــلال قـــالوا عليـــك إنسان فصيح ولبلب ومتمكن ومشهور فـــي المحـــاكم، وعنـــد الشاكين والمتهمين.

وفي رد تلقائي قال الأستاذ رافع عبد الحكيم لهـذا الزبـون المترجرج النظرات والكلمات:

- أهلا وسهلا.. اتفضل اجلس.. تشرب قهوة؟

- لا يا أستاذ.. بعد الاتفاق نشرب كازوزة والحالة تخليك تشرب حتى عراقي.. وإلاّ لاقبي.

- أعوذ بالله..

وقال الرجل المتداخل الكلام، المترجرج النظرات:

- وبعد النجاح وكسب القضية نشرب شـربات وإلاّ حتـى عصير وبوخة.

قال رافع عبد الحكيم:

- ما هو الموضوع.. لكن أرجوك باختصـار كلمة ونص.

وضـحك الرجل وقال:

هـم

المحامون يعرفون الاختصار؟!.. أول مرة أسمع محاميا يحب الاختصار.. ثم كلمة ونص.. اهي سلام عليكم وعليك السلام.. لكن هذى كلمتين وليست كلمة ونص.

- أقصد للتعرف على الموضوع الذي جئت من أجله.. نقتصر على المعلومات الأولية.. قد أقبل الموضوع والحالة للترافع وقد أعتذر.. المهم خير الكلام ما قل ودل وشره ما طال وأملّ.

وأكد الأستاذ على حكمة وفوائد الإيجاز والاختصار، لأن المحامي وقته ثمين وأكثر الزبائن المتلهفين مطوّلون ثرثارون.

- قل لي شكوى ضد من؟!

أجاب الرجل وهو يمهمه:

- ضد ولد حرام.

- عيب الوصف.

- موش عيب. هو ولد الجروة.

وأغمض الأستاذ رافع عبد الحكيم عينيه من مفاجأة هذه النعوت.. وحاول أن يثنيه عن هذا الأسلوب وقال:

- الأحسن أدبا تقول شكوى ضد مواطن.. وتذكر لنا اسمه.. ولقبه.. وعنوانه كاملا.

- لا.. هو لا يستحق أسلوب أدب.. ليس مواطنا مهذبا بل هو زوفري.. زبرطعي.. رديف.

- ماذا تعني.. ماذا تقصد هذه شتائم؟! وهذا سباب وليست معلومات تفتح بها ملفا!.

- أقصد أنه واحد زبرطعي.. رديف.

- تقول زبرطعي.. هذا اسمه أم بلده؟!

- حرايمي ولد بياصه.

- أرجوك.. لا أريد اسمع هذا الأسلوب.. ما هو الموضوع مبدئيا؟

- قلت لك شكوى ورفع قضية.. أريد تأديبه ولد النيفرة. لازم خرطة على راسه قبل حبسه.

- دع الحكم للقضاء.. الآن يا حاج ما هو الموضوع ونوع الخلاف أو المشاجرة والنزاع مع خصمك؟!

- أنا لست حاجا إن شاء الله نحج.

- اسمع يا أستاذ رافع - الله يرفع قدرك، ويعلي درجاتك - دير همتك معي.. وإن لم تؤدبه الحكومة هذه المسكسكة فأنا نؤدبه بذراعي.. نورّيه الزنباع وين ينباع.. نوريه النجوم في القايلة.. وحق سيدي البرطاع نقطرله الثوم في عيونه.

وجد الأستاذ رافع عبد الحكيم نفسه وجها لوجه مع هذا الزبون العجيب.. وحاول أن يتخلص منه بمسايرة ولطف.

- يا سيدي هدي أعصابك من فضلك.. واتكلم على مهل.

- اسمع يا أستاذ.. وحق هالقبلة (وأشار خطأ إلى جهة غير القبلة).. وحق من قرّاك وورّاك وتلاقينا في يوم من غير ميعاد لو نحصله في يدي نخلي عظامه يطقطقوا.. ونسلخه سلخة عنز ليلة القرة.

- علي مهلك خليك لطيف.

- قال خليك لطيف.. يحسابني ساهل.. وإلاّ نرضع في صبعي.. المّ يأخذ القانون حقي أنا نأدبه.. قاعد يتحكك عليا.

- على مهلك.. هدي بالك.. اشرح لي الموضوع باختصار، ومكاتب المحامين مفتوحة لإبانة الحق ومساعدة أصحاب الحق في ظل سيادة القانون، وتطبيق القانون والعدالة.. كل شيء له حل.

- إلاّ حكاية الإدمان.

- إدمان؟!.. أش هو الموضوع فيه حشيش ومخدرات مسكرات.. هذه البلوى والآفة التي أهلكت بعض الشباب الطائشين والهمل من الناس، ما كنا نعرف هذه الآفات هل خصمك الذي تشكوه تعاطى أشياء من الهلوسات؟!

- بل هو إدمان شتمي.. رجل لا يتحشم لا يستحي.

- من غير شتائم ولا انفعال.. اذكر اسم الرجل وبس.

- هو لو كان راجل يصرّ على شتمي!

- إذاَ هي جنحة لا جناية.. مجرد سوء تفاهم خصام وشتائم وتلاسن بين مواطنين.. ليس فيها إسالة دماء ولا خدوش.. بسيطة حكاية الشتائم.. تحصل حتى في أكبر العائلات.

- الاسم ماهو؟!

- ولد حَوا!

- لا.. بل أقصد اسم الذي شتمك.. اسم الشاتم؟

وحرك الأستاذ استعدادا وانتظارا لأن يلفظ اسم المشكو منه.

- تأخذ اسمه هو الأول؟.

- طبعا اسمه الثلاثي.

- لا أعرف.

- أين يسكن؟!

- في رأس الزنقة.. الحوش اللي فيه شجرة لبلاب وبابه عكري.

- وهل هذا عنوان.. رأس زنقة.. بابه عكري.. شجرة لبلاب؟!.. ما هو اسم الزنقة؟!

- نحن في زنقة.. زنقة كبيرة مالهاش اسم!.. كان لها لافتة طاحت من ريح قوية من مدة طويلة.. كان لها اسم قبل اللافتة ولم يركب، إهمال من البلدية زنقة بلا اسم.

- تذكر الاسم.. لازم مسجل في الخريطة.

- لا.. الزنقة من غير خريطة.

- اسم الزنقة من غير خريطة!.. هذا لا يمكن أن يكون اسما.. ما هو الاسم المشهور المتداول.. ولو على الألسنة.

- أظنه بردعة الحمير.

- لا يوجد زقاق بهذا الاسم.

- زمان جدي وجدك.. كان جدي وجدك في زنقة راس اللفعة وبعدها سموها - بردعة الحمير - كانوا يصنعون فيها برادع الحمير.

- قل لي عن الموضوع.. ما هو السبب الرئيسي الباعث الأول هل بينكم نزاع.. شجار.. سوء تفاهم.

- وهذا شيء وارد في العلاقات بين الناس، وحتى الخلاف بين الدول والحكومات وإعلان الحروب والزحوف العسكرية، وقطع العلاقات، وقطع الرؤوس أحيانا قد يكون سبب ذلك في البدء مجرد أمر بسيط أو حاجة تافهة، ويتفاقم الأمر ويستفحل.

- ليه هو لا يعمل فحلا إلا عليَّ أنا يستفحل.. أنا نبزله. عيونه.

- يمكن تقول لي السبب المبدئي؟!

- من غير سبب.

- هل هناك إنسان يشتم من أول الباب؟!.. لازم أنت حضرتك شتمته أو عملت شيئا دفعه إلى أن يشتمك.

- أنا راجل اعرف كل ألوان الشتائم، ولساني أطول من لسانه.. وفمي ما هو مليان بالدقيق.. نقدر نعطيه بدل الكلمة عشرة وتخليه ما يسوى بارة ولا سانتيم.

وضحك الأستاذ رافع عبد الحكيم وقال:

- البارة والسانتيم والسبيلية والمليم عملات انتهت يا حاج!.. قول درهم.. دولار.. فرنك من زمان من عهد جدي ما سمعت كلمة بارة وسنتيم على كل حال. أرجوك تختصر ما عندي وقت ما هو الموضوع؟!.. عندي زبائن تنتظر وملفات مكدسة.. ومواعيد متزاحمة.

ونظر الرجل بعينيه الزئبقيتين.. المترجرجتين كأنما يريد أن يكذبه. فليس هناك زبائن على الأقل أمامه الآن، ويظهر أن وفرة عدد المحامين أكثر مما تستوعبه المدينة.. جعلهم مثل الدكاكين والأكشاك والواجهات الزجاجية، ومفترشي الأرصفة من الباعة!.

- المهم مادام الأمر محصورا في شتيمة وسباب وعركة خفيفة، ولم تقع رقبة ولا خرجت روح ولم يكن هناك خدش.. ولا جرح ولا بطح لو تأتي به لنتفاهم. ربما نلجأ لسيد الأحكام.

وهنا ترمشت عيناه وهرش طرف أذنه بإصبعه المستطيلة.

- من هو سيد الأحكام الذي نلجأ إليه؟!

أنا ذاهب إليه عندك عنوانه.. بدل ما تنادي أكبر منك.

- سيد الأحكام الصلح بين المتقاضين والمتشاكين.. تتصالح وتوقف الشكوى.. ربما اليوم شتمك وغدا يتجرأ ويضربك ويعفجك ويشج رأسك، وقد يحدث بك عاهة ويجند لك.. وعلمتنا التجارب أن الأمور قد تبدأ بسيطة سهلة ثم تستفحل.. المهم اش قالك؟!

- كلام كبير من ها الحقير من الحزام ونازل.

وفكر الأستاذ رافع أي حزام هذا؟!.. ويريد التوضيح أي حزام من أنواع الأحزمة.

حزام العفة.. حزام الأمان.. حزام الفتك والرتق، حزام الجوع.. تطالب به الحكومات شعوبها اربطوا الأحزمة!.. تقشفوا.. اقتصدوا ربط الأحزمة للمجاعة.. وسوء التوزيع.. أي حزام في عصور تكاثرت فيه وانكشفت السوءات؟!

- اسمه.

- ولد سالمة.

قال الأستاذ رافع عبد الحكيم:

- يوم القيامة في الحشر والنشر.. قالوا هناك يسجلون وينادون على الناس بأسماء أمهاتهم.. لكن في الدنيا كما نص القرآن "ادعوهم لآبائهم".

- من فضلك هات اسم الأب واسم الجد لمن تشكو فيه.. لابد من الاسم الثلاثي في المعاملات والأوراق الرسمية خوفا من الخطأ والالتباس وتقارب الأسماء وتشابهها.

- تو أنت تطلب مني إثبات اسم جده والبحث عنه ملعون جده كيف اعرفه؟!.. أنا ما عرفت اسم المشكو فيه إلاّ من الغير.. أنا لا أعرفه معرفة طيبة.. إنما نتلاقى في الشارع وفي الطبرنة - الحانة - واللي يسموها الخفيفة، ولد النيفرة صنته مكمكة.. هو يشرب في ركن بعيد عني.

- أنت تشرب؟!.. أي مدمن، الله يتوب عليك.. ربما كنتم مع بعض وتنازعتم على الحساب مثلا.. أو لما ثقل شوية عفس أو عفست على رجله، أو تلاسنتم كلام سكارى لا معنى له - لا صنة لا بنة.. ليس له ساس ولا رأس.. هل عندك شهود على أنه الذي أخطأ في حقك وغلط معك؟!

- لا.. كان الشتم في نص الليل من أين آتي بالشهود؟!.. حتى الصغار الأولاد نائمين.. والمرا كانت تنخط وتشخر في سابع نومه.

- أنت شرت وزطلت معاه.

- لا يا سيدي رافع.. أنا لا أشرب مع هالكاسم.

- امال كيف دخلت الخمارة وتلاقيت معه؟!.. نوروني.. الله ينور بيتكم، ويكثر زيتكم.. من أجل أن تنور المحكمة والقاضي

إذا قدمت قضيتك وشكواك للمحكمة.. أعطيني شوية تفاصيل لأقدم مذكرة إضافية وأترافع.. عاون سيدك عبد السلام بحبيل..

- أنا لم ألتق معه.

- كيف شتمك ولم تلتق معه.. كيف حصل هذا؟!.. في الهاتف.. أم بعث لك رسالة شتم؟.. شتمك في غيابك وبلغك هذا من أحد الناس المتطوعين بنقل الشتائم والغيبة.. فلان قال عليك.. فلان نازل فيك للباط.. فلان ما خلاش عليك ريشة!.

وهنا طرقع الرجل بلسانه وثأثأ نافيا لهذا التصور.

- لا.. ليس الأمر كذلك.. يا أستاذ رافع هو الذي التقى معي.. وغمزني، وأشار بإصبعه إشارة سخيفة ولم أعره التفاتا.. ثم شتمني بلا سبب!.. كلام كبير من الحزام ونازل كما سبق أن قلت لك، والحكومة لازم تربيه.. هي هيدقه؟!

- هو متحزم.. ولاد باب بحر زمان وأبناء الشواطئ والموانئ.. الحزام الزلبندي للرجالة المعتبرة والتريس المصحصح والقبضايات.. يا حسرة.

- لا يا حضرة المحامي.. لم يكن من هذا الصنف ولم يكن لابس حزام زلبندي.. إنما تحت الحزام كلام كبير لا يقال للرجالة.

- ما هو السبب؟!

- من غير سبب.. هو لو كان هناك سبب وداع أنـــا أجـــي لمحامي يأخذ حقي ويثبت عليه العيب.. أنا جيت لمحامي مـــن أجل يحامي عني..

- هكذا شتمك لله في لله؟!

- لا.. بل للشيطان في الشيطان، لا زم كان مسخن!

- سخن البندير.

- لا.. بل سخن راسه.

ثم قال للأستاذ رافع بعد المقدمات الدائرة:

- لازم تردلي شرفي واعتباري.

- لمه.. لا سامح الله هو شرفك مس؟!.. اعتدى عليه.. هذا موضوع آخر غير الشتم.. الحكاية إذاً أخطـــر لازم توضـــح.. وتعري.. ولا أستطيع الترافع إلا بالتعرية.. لا.. ليس فيه تعرية أقصد تعرية.. أي فضحا وتوضيحا للإنارة.

- لا.. لم يعر.. بل أقصد شرفي المعنوي.. الإهانة الصادرة من شتمي والسخرية بي.

وتمايل هذا الزبون وأخذ يداور في كلامه ولهوتاته.

وقد تعود الأستاذ رافع عبد الحكيم على الصبر والتصبُّر إزاء ثرثرة المتشاكين.. ونفرة المتنافرين على مختلف مستوياتهم من العامي البسيط، والأمي الذي يوقـــع بصـــعوبة إلـــى الـــدكتور والخريج وأصحاب الشهادات، لكـــل أســـلوب فـــي الشـــكوى

وفضفضة في طرح الشكوى. وقال هذا الزبون الطارئ في هذا الصباح وهو يتحسس جيبه كأنما يريد أن يخرج شيئا.. ورقا.. أو عملة.. أو محفظة.. أو لعله يهرش.

- كم الأتعاب يا أستاذ رافع؟

رغم لهوتاته في الكلام كان مؤدبا في هذه النقطة.. فهل يقول - أتعاب - عبارة مهذبة.. لكن هناك من هو جلف. خشن الكلام.. يجرح المحامي قائلا:

- قداش الأجر؟!

ومرات يقول "قداش الأجرة".. كأنه سائق سيارة أجرة العداد في سيارته "قداش الأجر".. ويسمعها المحامي المهذب ويبلع ريقه ويتزمط ويقول في سره وبينه وبين نفسه الأجر على الله.

وأحيانا يقول له أحد الزبائن وكأنه فصّال في سوق الخضرة أو سوق الشلايك:

- "قداش نعطيك فلوس؟!"..

والأدهى عندما يقع في زبون يقوله له:

- عندكش تسعيرة؟

ويبحلق بعينيه ويتلصلص ويتنسنس ويبحث عند الباب، هل علقَ ورقة بأسعار الترافع؟!

- أتعاب أي أتعاب.

- أتعابك عندما ستترافع ونأخذ حقي.. كل شــيء بحسـابه وتأخذ حقك المعلوم.. يقول أهل البحر "النايلون" عبارة قديمـة سمعتها من جدي البحار.

- أي حق؟!

- اللي جئت من أجله والا تريد تتطوع.. المحـامون أولاد حلال يتطوعون في قضايا الرأي والفكر أيـام النضـال ضـد الاستعمار والتخلف. كان العديد من المحامين يتطوعون.. لكـن ما أظن الناس مثل قبل أصبحوا ماديين.. هادي شـتيمة أفـراد موش شتيمة حكومة.. على كل حال أنا تفرست فيـك الخيـر.. والربيع من فم الدار يبان.. أستاذ قداش الحساب؟

- حساب ماذا؟!.. هل هو بيع وشراء؟!.

- أقصد المقدم، أم دفعة واحدة المبلغ المناسب.

- أي مبلغ وماذا تقصد؟!

- هناك محامي غالي ومحامي رخيص.. وإن شاء الله أنـت رخيص.

وانتفض الأستاذ رافع عبد الحكيم محتجا على هذه العبـارة والوصف.

- أنا رخيص، عقابها استهزاء وشتيمة.

جئت تشكي في واحد شتمك فتشتمني أنا؟!

- عجيبة أنت من أين طلعت؟!

- طلعت اليوم الصبح من بيتنا، وطلعت زمان من بطن أمي وظهر بوي.

- أنت شارب حاجة وإلا تلهوث؟!

- إيه شارب شاهي وزوز سباسي.

- تقول رخيص!.

- سامحني في سوء التفاهم.. وسع بالك.. رخيص عفوا ليس قدرك ومقامك.. حاشاك.. لا سامح الله.. أستغفر الله.. أقصد أنت ساهل.. متواضع.. لا تضرب الزبون الشاكي فوق راسه.. مثل بعضهم يعمل مكتب طربيقة.. منداف.. شبكة.. صفقة يضرب لفوق.. لفوق.. أنت طيب يا أستاذ رافع.. سامحني.. رخيص أقصد وأعني لست نصّابا.. والحكاية الدفع بالهمّة بالذمّة.. كم الأتعاب لأني.. لست زبونا مستديما للمحامين والقضاة والمحاكم.. لا أعرف هذه السراكة ومراكز التحقيق.. أنا راجل في حالتي.. لا تجارة.. لا عمارة.. لا شراكة.. لا شريكة.. لا حساب ولا يحزنون.. كم الأتعاب؟.. لأني لا أعرف هذه السراكة.

- كم الأتعاب والا الحساب بعد المداولة.

ما هو قضية العركة ليس مثل قضية الشتيمة.. والا فك رقبة، وطياح رقبة مثل مخالفة المرور أو مخالفة التسعيرة.. الأفضل

كم في المية لما نربحو القضية.. أهو اقتراح من واحــد طــايح المزال وإن شاء الله حضرتك فهمت.

- ما هو "الافوكاتو" المفروض فيه يفهمها وهــي طــايرة.. وهي نايمة.. وهي مكحكحة.. هيء... هيء...

وأخذ يضحك... والأستاذ رافع عبد الحكيم ينتظر إلى هــذا الزبون العجيب، لو كل يوم يرزق بواحد مثله يأتي إلى مكتبه ما عساه يصنع.. أو لو كل الزبائن هكذا..

وتأمل سحنات وجه الزبون وحركاته وتمطقاته!.. لو كان هذا الزبون اشتغل ممثلا كوميديا لكان أجدى له.. أو كاتبا مسرحيا..

مع شيء من الإطلاع والثقافة والاهتمام لكان يمكن أن يكون شيئا أو يقدم شيئا.. وكل ميسّر لما خلق له..

ونسى الأستاذ رافع عبد الحكيم أن يسأله..

- ماذا تشتغل، وأي عمل تؤدي للمجتمع؟

لكن ترى بعد أن سمع كلامه وشاهد حركات يديه وحاجبيــه أي عمل يمكن أن يؤديه ويقوم به هذا؟!..

والجواب يقرأ من عنوانه.. والبنادم يعــرف مــن ســحنته وكشخته... وتصابر الأستاذ رافع عبد الحكيم وهو يســتمع لــه والمحامي عرضة لأن يلتقي مع من هو أدهى من هذا النموذج ولله في خلقه شؤون، وأكد في قرارة نفسه أن هذا الذي أمامــه في حواره وحركاته لا يخرج من احتمالات ثلاثة:

- إما سكران زاطل غير متزن.. لا يدري ما يلهوت بـــه ولا يعي ما يقول!..
- وإما أنه غبي متكاثف الغباء من ذلك النوع الذي تكاثر وأوقعه سوء حظه معه في هذا الصباح.
- أو ربما كان مقلبا مدبرا.. سلطه عليه أحـــد أصـــحابه للتشويش عليه وتنغيصه وتعكير مزاجه.. من أساليب الدعابـــة الثقيلة.. والمزاح المسترذل. أو من أجل السخرية منه..

وسواء كان الاحتمال هذا أم ذاك.. اضطر حضرة الأســـتاذ رافع إلى مسايرته ومداورته.. أكان سكرانا، ولم يظهر هذا من رائحته؟ لعله شرب شيئا لا رائحة له.. فقد تفنن أهل الشراب.. أم كان معتوها؟.. أم غبيـــا؟.. تحمّلـــه على كل الاحتمالات؟ أو مقلبا لتهييج أعصابه.. وسأل لعله يجد منفذا:

- ومتى شتمك؟!
- قلت لك بعد منتصـــف الليـــل بخمس دقائق!
- اهتمامك بالموضوع جعلك ضابطا التوقيـــت بالدقيقـــة!.. لازم أنت راجل انضباطي..
- إيه.. وفي الهزيع الأخير عاد وكرر الشتيمة.
- ليس مهما مرة، مرتين المهم شتيمة وإهانة.

- أين كان هذا؟
- في السرير!!
- تقصد شتمك في منطقة السرير؟!.. المنطقة الصحراوية البعيدة في جوف الصحراء، اش وصلك لهناك؟!.. تعمل هناك.. كنت مسافرا؟
- لا.. ليس السرير منطقة الصحراء.. إنما في سرير البيت.
- عجبا.. هل دخل معك في السرير؟!.. كيف هل هو لص اقتحم بيتك إلى أن تهجم عليك في السرير؟!.. إذن هي شتيمة ولصوصية واقتحام حرمة المنزل!
- لا.. إنما هو شتمني في المنام؟
- نعم.. نعم.. اش تقول؟!!
ورمى الأستاذ رافع بالقلم من بين أصابعه وهبّ واقفا في حركة تلقائية:
- نعم.. ماذا حدث؟!.. ماذا تقول؟!.. في المنام؟!!
- إيه.. في المنام لا هي مرة. ولا هي اثنين.. معناها كما يقول أصحاب القانون الذي أنت حافظه، وعايش فيه أو عايش منه.. مع سبق الإصرار والترصد، والنية المبيتة.. كلما وضعت رأسي على الوسادة وأغمضت عيوني لأنام يأتي ويشتمني.. وينغص عليّ طيب المنام.. ويطير لذيذ الأحلام.. يشتمني والغريب في النهار لا يأتي.. في منام الليل فقط.

- لكن حضرتك قلت - إنه شتمك وهو يشرب.. واللقاء كان في الحانة.. وقلت إنه كان مسخنا!!..

- ما هو الحلم فيه خمارة كبيرة.. وفيها براميل وكيزان من نوع عتيق.. وضو خافت.. وتراكين.. والمشارب على كل لون، وكانت مزدحمة. يشتمني قدام الناس هالوبش.

وتساءل الأستاذ رافع عبد الحكيم في لحظات تأمل وومضات تفكير خاطفة.. ترى هل هو من نوع تخيّل حتى خال؟!!.. رحم الله الطبيب ابن سينا من أوائل الذين اكتشفوا هذا وعالجوا هذا.. لعله يعالج هذا الزبون الذي تورط صدفة بلقائه.. يعالج حالة الوهم بالوهم.. هو من نوع شفاء النفس.

وخاف أن يطلب منه الذهاب إلى طبيب نفسي ربما امسك بخناقه.. واستفحلت حكايته!!

وكانت أمه تقول في مثل شعبي تسوقه شاهداً:

- "اللي توحل فيه دبرله".

فليسايره بدل أن يطرده أو يستنجد بالفراش أو يطلب أحداً بالهاتف لإنقاذه وإزاحة الزبون المتعب.. وقال له في هدوء ليصرفه ويجد فرصة للراحة والتفكير:

- تعال غداً الصباح رباح.

لعل التسويف يهدئ نفسه أو يرجعها عن غيّها إلى رشده.

- تعال غداً..

وجاء في الغد.. وكان حريصا على الموعد..

وقال له مباغتا مخافة أن يطيل المقدمات.. ويشرح لـه مـا سبق أن شرحه من حكاية الشتائم المنامية:

- اسمع.. هناك حلان..

- إما أن تشتمه وتريح نفسك "وجزاء سيئة سيئة مثلها"

وكما يقولون "الشر بالشر والبادي أظلم".. بهذا تريح عقلك وأعصابك.. وإما أن تسامحه.. وتوسع صدرك وبالك.. وترتاح والمسامح كريم "ومن عفا وأصلح فأجره على الله".. والعفو من شيم الكرام.

وقال الرجل وهو يقرقر:

- يا أستاذ رافع عبد الحكيم.. لو تصالح الناس وتسامحوا دائماً ووسعوا صدورهم ما أكل كثير من المحامين والقضاة وكتاب الشكاوى خبزاً.. أنا لن أسامحه ولن أشتمه..

- ماذا تصنع إذن؟!

- أرفع قضية ضد من شتمني في المنام..

- هذه مواضيع تريد ابن سيرين!!

- من ابن سيرين؟! محامي "افوكاتو".. قاضٍ.. وكيل نيابة؟!

- لا.. بل عالم مفسر أحلام منام.. يمكن أن يتناول موضوعك..

• وسأل:

- دلني على عنوان مكتب ابن سيرين أو رقم هاتفه؟

- على كل حال.. وهل عندك شهود؟

- لا.. المرة الأخيرة لم يكن في الحانة المزدحمة ولكن رأسا برأس.. والشتائم من فمه، ولد الجروة زي الميزاب.

- في المنام؟!

- إيه في المنام.. أكثر من مرة وتقول لي سامحه!.. دبر عليّ يا سي رافع الله يرفع درجاتك.

ويبدو أن الرجل الملحاح مصر وكيف يتخلص منه؟!.. قال له:

- مادمت لا تريد المسامحة والتغاضي على هذا السفيه السفتول الذي نغّص عليك بالشتائم.. أحسن شيء اشتمه في المنام وخذ بثارك!!..

- أستاذ رافع.. أشكرك على هذه الاستشارة القيمة والاستفادة بل الاستخارة بلا استمارة.. إذا جاء وتطاول عليّ في المنام.. أشتمه وأرد له الصاع صاعين.. والكيلة كيلتين.. والكلمة بعشر، وإذا شتمني أكثر من قبل أو حاول يتشاجر معي أبلغك.. آتي إلى مكتبك يا أستاذ رافع..

- نعم.. مازلت ناويا أن تأتي للمكتب؟!

- اسمع..

وقام منفعلا وهو يلوح بيده ويصيح.. حتى أن جيران المكتب ربما سمعوه.

- وحضرتك إما أن تخرج من هنا وإما أن أرفع عليك قضية تنغيص.. وإزعاج.. وتعكير مزاج وسرقة أوقات الناس.. وهذا مركز للاستشارات القانونية والمرافعات.. وليس للهدرزة.. اسمع إما أن تخرج وإلا أستعمل معك لغة أخرى.

- هل آتى بمترجم للغة أخرى.. لغة الرميكى.. تخرج وإلا!!..

- وتحسست أقدام الرجل طريق الخروج..
- وقرر الأستاذ.. رافع عبد الحكيم السفر أو الاختفاء مدة وأغلق مكتبه.. وعلق لافتة.. "المكتب في إجازة".

وبعد أسابيع مخافة أن يعود إليه مرة أخرى علق لافتة.. "مغلق للإصلاح"!.

□ □ □

عيسى يوسف اللموشي

الخزنة والمفتاح ...

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

• وجهه مثل قنفذ محنط.. وجمع (المجـد) التليـد مـن أطرافه.

كان والده من عملاء الطلاينة.. وعمـه مـن الجواسـيس المناحيس.. وهو كسب المال وسمسر..

كان مع الطلاينة الملاعنة أيام الفاشية سالك الحال.. ولكن مع ما كسب ونهب وسلب كزّ اليـد شـهواني الطبـع.. جلمـودي الإحساس.. لا ينفق على أقاربه لأنه كما يزعم كسـب المـال بشطارته ومهارته وعرقه، لكن هل عرق حلال أم حرام؟

علمه عند الله، وكاتب الحساب، وأهل الزقاق الملتوي، كـان أكثرهم ميلاً للإنكليز والأمريكان وغيرهم، وأصـيب بمـرض فدخل المستشفى العام وضنّ على نفسه أن يعالج على حسـابه الخاص، وربط مفتاح خزانته في عنقه، كان حريصاً على الكنز والسندات التي يريدها من الناس – ويقـال – والعهـدة علـى الراوي الذي يعرفه.. إنه كان يعطى بالفايد – أي الربا – وإنـه كان من تلامذة وصبيان الحارة في هذا البلد.. يوم أن كان فـي الحارة ربويون وربيّون.. وسماسرة.

وعندما رقد في سرير المستشفى العام، وجاء بعـض مـن أقاربه لزيارته وشاهدهم قال:

– ما الذي أتى بكم.. لا بأس.. أنا صحتي طيبة.

وهمس في أذن الممرضة:

- هؤلاء لازم جاءوا للتأكد من سـفري النهـائي طـامعين منتظرين نصيبهم في الميراث.. ولاد الكلب.. ولاد الشحبة.

وشد على تزرير القميص مخافة أن تمتد أصابعهم للمفتـاح الذي ربطه بخيط في عنقه، وهو من أجل سمسرة وجلب بضائع ذهب للحج سبع أو ثماني مرات، ولولا السمسرة والتهالك على البضائع ما عرف طريق الكعبة ولا طاف ولا أحرم.

- يا حاج.. ضع المفتاح أمانة في الأمانات.

وضحك هذا الكُزمة أو العُرم اللحمي، مقرقراً أشـبه بقـرد هرم.. ضحك رغم مرضه وتحنَّط وجهه القنفذي.

- أمانـــة..

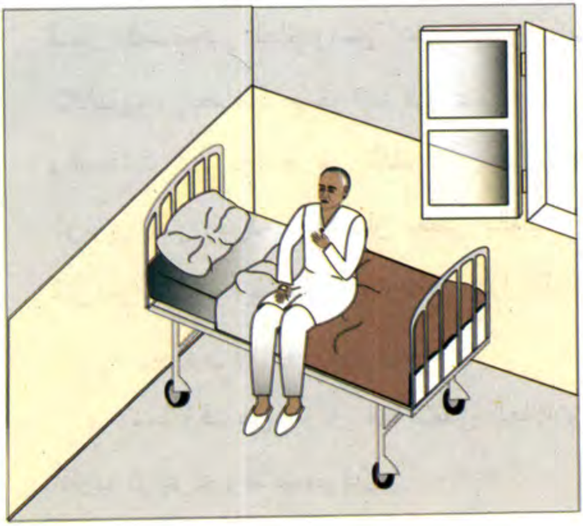

قالوا أمانة.. لا يوجد إلا أمانة يا ليل..

حط الأمانة عند عُربِ التقوى..

وعندما أرادوا أن يُحمِّمـــوه بالإكراه لرائحته

الزفرة.. أصَرَ على أن يبقى المفتاح في عنقه معه في الحمام أو المغطس.. مخافة أن يُسرق، ويُصنع على شاكلته مفتاح وتصل أصابعهم إلى خزنته.

وحرصه وتوسوسه هذا أصبح موضع التندر والتفكه في المستشفى.

وجاء ذلك القريب اللعين وحاول أن يرشو تلك الممرضة البلغارية.. بقليل من الرشوة والمحايلة والبسمات والملاينة والقريشات ستسمح له بأخذ المفتاح.. لكن الممرضة البلغارية طلبت مقابل تسليم المفتاح مبلغا لا بأس به.. فوق خمسمائة دينار، وأفهمته أنها لو ضبطت في عملية تسهيل أخذ المفتاح من عنق المريض قد تطرد.. لا من العمل بل من البلاد..

وتشوّه سمعتها.. تقصد السمعة المالية.. لا سمعة أخرى..

وقالوا "إن هذه الممرضة ليست فوق مستوى الشبهات" لكن خارج العمل.. وساعات الدوام أما خيانة العمل بمقياسها وحساباتها فلابد أن يكون لها ثمن فادح.. وفى تلهف الطامع أعطاها المبلغ على أساس أن تسهل له الاقتراب من المريض ويتمكن من أخذ المفتاح المربوط في عنقه، ووضع خطة للانقضاض على عنق (العدو) الرابض الراقد في السرير..

هذا الملعون ربط المفتاح في خيط أحكم عقده، هل يقطع الخيط بالموسىَ الرهيف الحاد، وإن تقلب الملعون في نومه وتحرك وجرحه الموس وانسكب دمه على الفراش الأبيض وتلحظ الممرضات الأخريات هذا.. ربما اتهمت لو سال الدم بمحاولة جناية قتل والجناية على روح طاهرة.. بريئة، وقد يشاهد هذا ذلك المريض الطريح في الردهة الذي لا ينام، أو يشاهد هذا عاسّ من عسس الليل.

ودبرت الممرضة الأخرى المجلوبة من أطراف آسيا خطة معه أن يأتي ليلاً.. وتسهل له أخذ المفتاح من عنق المريض بعد أن تضرب له إبرة منومة، وبدافع اللّهفة والرغبة في الوصول إلى مفتاح الخزنة دفع ثمن الإبرة المنومة.

لكن خشى أن تكون الحقنة أو الإبرة من نوع قاتل فتكون جريمة هو مشارك فيها، سرقة واختلاس المفتاح مقابل رشوة

بمقياسه لا بأس لكن حقنة أو إبرة قاتلة.. لا يليق لأن كشف أمرها سيكون فضيحة أكثر..

وماذا يهم تلك المجلوبة التي تتكلم أو تتصرف بلغة النهم المالي مقابل أي شيء..

وبعد تردد.. أعطاها الخمسمائة دينار.. على أساس أن يأتي في ساعة عيّنتها.. وقت دوريتها ومناوبتها وتضرب الإبرة المنومة.. وفى لحظة يأخذ المفتاح، وإذا بها هذه السفتولة خبيرة في المساومات والمناورات قال لها:

- مقدما مبلغ ثلث ومؤخرا ثلثين عند تسليم المفتاح..

أجابت بعربية مكسرة وإشارات مؤكدة:

- بل دفعة واحدة وإلا فلا..

وقالت له مؤكدة:

- هناك قريب آخر للمريض يتربص بالمفتاح وسيدفع ألفاً بدل خمسمائة، وقد يدفعها بالدولار.

- من.. من هو؟

- ابن عمه الآخر.

وزيادة في رسم خطتها وإيقاعه قالت:

- وقد ينقل إلى مستشفى آخر يصعب عليك الدخول إليه.

ثم قالت بأسلوبها:

- وقد يموت بعد يومين قبل أن تصل إلى المفتـــاح.. فكـــر مادمت تريد المفتاح..

وأعطاها المبلغ كاشاً.. باشاً متحاملا.. وبات ليلته.. قلقـــاً.. أرقاً.. وحالماً بالانقضاض على المفتاح.

وهرول في الموعد المحدد.. ووجد امرأة أخرى مـــن ذوات العيون المشقوقة والقامة الصفراء الممصوصة.. ومعها ديدبانـــة أخرى يبدو على كشختها أنها كانت سجانة قاسية.. ومحافظـــة على قسوتها.. غليظة الشفتين.. متورمة الخدين، مشمرة اليدين موشمة الجانبين مقطبة الحاجبين.. مبحوحة كأنما عبّت جرة من البوخة، شكلها كأنما هي صاحبة مطعم أو طباخة في الأعراس والمناسبات دائماً متقرعة وشبعانة..

هل هذه ممرضة؟.. لا يمكن!.. بينها وبـــين هـــذه المهنـــة الإنسانية تناقض.. لعلها.. زائرة.. أو طباخة مناسبات، المهـــم سألها عن صاحبة الاتفاق:

- أين الممرضة البلغارية؟!.. أين؟

وبادرته هذه الهامّة مجيبة بكشة وتساؤل إنكاري:

- أنت جنابك تسأل عن المريض وزيارته وإلا تســـأل عـــن الممرضة يابو عيون مفلوتة؟!

وتحمل هذا التساؤل والنبرة الجافة وقال:

- بس أنا عندي معاها حاجة!

- الحاجة خارج المستشفى يا رزيـل.. مـا أصـح وجـه الرجالة.. ما عاد فيه حشمة!.

- يا ست هذا موضوع إنساني.

وكانت المفاجأة غير المنتظرة!!...

- أنت ما تعرف هي الآن في بلادها.. سافرت فجر اليـوم بالطيارة.

- وامتى تعود؟!!

- مشية بلا رجعة.. ألغت عقدها.. شورها لاذعاتك..

- أنت يا خالتي الحاجة متأكدة؟!.

- لماذا تتوحوح؟!.. أنت ملدوغ منها.. هي ضحكت علـى غيرك.. يا ملوعية.. يا ملاعين ما عندكم ثقة إلا في الأجنبيات خيرهم بنات بلادكم؟.. أش عجبكم في الممرضات المكركبات.. المصفرات.. خليهم يعطوكم فوق رؤوسكم.

كانت تحاوره أو توبخه والمريض في الحجرة يتملمـل ولا تسأل عنه صاحبة اليدين المشمرتين كأنها تسـتعد للمشـاجرة.. وتلصص بعينه في الحجرة ولاحظ وجود المفتاح في عنق قريبه المريض..

مازال عنده أمل في اقتناص المفتاح، واقترب منه على قيـد خطوة أو نصف خطوة من سريره..

- لا بأس.. إن شاء الله لا بأس.

ولكن من حرصه.. وشدة تحوّطه آثر الرجل المــريض أن ينام على بطنه ليغطي ويخفي المفتاح العزيز ويبعده عن خطــر الطامعين.. وشر المتربصين.. فقد كان يشك فــي كــل زائــر وسائل عنه..

واللص الطمّاع المتمرس لا ييأس ويواصل الكرة..

وفي زيارة أو تردد آخر، وجد ممرضة أخرى أجنبية مــن بلاد نائية، وهي من ذلك النوع والكاسم نصف كلامها هزات.. وإشارات كأنما ولدتها أمها في سرير هــزاز.. أو أرجوحــة لا تستقر، وقد أدركت حكاية هذا المريض البخيل الذي قــالوا إن عنده خزنة مملوءة ذهبا وفضة وعملات منوّعة، ورفض السفر للخارج على حسابه لأنه يكلّف، ولا المستشــفيات والعيــادات الخاصة لأنها تكلف، بل كان علاجه وتردده على المستشــفيات العامة والصيدليات العامة المجانية، وكان هذا المــريض الكــز المهيض يدرك في دخيلة نفسه أن هذا السرير الذي يحوم حوله أقاربه لا لعيادته ولمجرد السؤال عنه وعــن صــحته الغاليــة وسلامة ذاته وروحه النقية، إنما يحومون حول المفتاح.. هــذا الذي حرص عليه وربطه بإحكام ودقة بخيط في عنقه.. متــدليا كصليب مقدس حتى أنهم لما جردوه من محيطه ومخيطه عنــد الكشف والعلاج والتصوير سلم سراويله ولــم يســلم مفتاحــه،

وأقاربه تتسابق عيونهم وأيديهم نحو هذا المفتاح، حرب خفية ومناورات سرية بين الطامعين والبخيل المريض،

أيجمع ثروته بالحلال والحرام.. وبالطيب والخبيث سنوات ويأخذها هؤلاء في ساعة؟!... يجري عليها الملحاح ويأكلها المرتاح.. نجوم السماء أقرب منها يا ولاد الحرام..

- وفي غير أوقات الزيارة دخل هذا الطامع في الوصول إلى المفتاح.. وبكلمة طيبة سمح له الحارس الطيب بالتسلل إلى جناح المريض رحمة ورأفة بهذا الحنون السائل عن المرضى كما تصور..

لكنه في الداخل كان قد أعد وبيَّت أمره ورشا تلك الممرضة الأجنبية للمرة الثانية فقد طارت الأولي بالمبلغ.. ولمن يشكو؟!.. أيفضح أمره؟!.. ثم يقع تحت طائلة القانون باعتباره راشيا.. ومخططا لجريمة سرقة.. أكلها قرصة ماكنة لكن لم ييأس، ها هو يحاول مرة أخرى لا بأس.. سيعوض خسارته عندما يستلم المفتاح، ووضع خطة مع الممرضة لأخذ المفتاح من عنق المريض..

قبل أن يخرج من المستشفي.. أو قبل أن تخرج روحه من جسده.. من يستطيع أن يقترب منه إلا إذا كان نائما ومستغرقا في النوم، وصارحها أكثر مما صارح الأولى.

الموضوع ليس زيارة حضرة المريض عجل الله بروحه إلى سقر وبئس المقر.. ولا مناوشة لجمالها ذي العيون المشقوفة.. والقامة غير الرشيقة.. وهي قزمة مدموكة يمكن أن تهرب بها في صندوق من حجم صندوق الزبالة، ومع ذلك فيها روح شفافة وخفة لص وتموج لاعبة سرك متجول..

قالت له:

- هل تريد أن تسرق المريض؟

- نعم أريد سرقته بكل صراحة.. واختصار.

- إذن نعمل معك خطة.. أحمله لك إلى الخارج.

وهنا ضحك خافتا وكان نصف الكلام معها إشارات وحركات وقال:

- وماذا أعمل به؟!. اسرقه جسما أو جثة.. أريد هذا..

وأشار إلى المفتاح.

وظنت أنه يريد مفتاح شقتها الخاصة مقابل مبلغ من العملة الصعبة وهدايا مما خف حمله وثقلت قيمته، وأشارت إلى أنها تقطن مع مجموعة.. ولكن يمكن الخلوة أو الاستخلاء بها ساعة معينة.. وأشارت بأصابعها عداً إلى المبلغ.. كل شيء بحساب وحسبان.. بالممارسة والمهارسة وهي تضحك.. كأنما هي لعبة أو دمية في دكان ألعاب، مجرد حركات ورموش طائرة..

قال.. بعد أن تفاهم معها بالإشارات وبضع من الكلمات من قاموس التعامل مع هذه الأنماط:

- لا.. بل أريد مفتاحا في عنق المريض المسجي على الفراش.. مقابل مبلغ.

- وساومته...

وقال في نفسه والهواجس تتماوج به:

- بنت الكلب!!.. هل سمعت بمبلغ خمسمائة دينار التي لهطتها زميلتها الملعونة، وضرب أخماسا لأسداس.. كتاجر وسمسار قديم لا يمكن أن يكون في خزانة هذا المريض البخيل نقدا أقل من مليون أو مليونين وضع فيها نقدا حصيلة وخميرة عمره، هذا الخامر الخامج.. كم عنده من خميرة غير المجوهرات.. إن شاء الله ما دسها تحت التراب والزلّيز.. وهو من طينة لا تحب التعامل مع المصارف وقالت له، ويظهر انها خبيرة في الاختلاس واللصوصية وعوامل النصب:

- الأحسن أن تصنع مثله أو تضع مفتاحا آخر في مكانه.. هات أي مفتاح ونبدله له.. اعتمد على أصابعي وخفني.

ولكنه استبعد هذا.. قد يكون هذا مجرد حركة منها وتعطي المفتاح وتبيعه لآخرين من الأقارب الذين عيونهم على المفتاح، وجعلوا زيارته تغطية لمآربهم ينتظرون طلوع روحه.. وقد يسرقون المفتاح عند القيام بعملية غسيل جثته..

حتى في هذه اللحظة!

- نضع مكانه مفتاحاً آخر لا يشك فيه

يظهر أنها من عصابة دولية.. ربما كان عشيقها من المافيا (أو من وزراء بلادها)..

وقدم لها من أجل اختلاس المفتاح خمسمائة مع موعد وسهرة إذا نجحت في تسليم الأمانة.. ويقال إن لها صلة بأحد الأجهزة.. أي الأجهزة الإدارية، وهى تعمل في أكثر من جهاز.. ربما آذتها إذا عرفوا ما صنعت.

- وفعلاً.. سلمته المفتاح وكانت روح الرجل خرجت في الصباح الباكر.. وانطلق مسرعا نحو الخزانة.

وضع المفتاح في جيبه.. هذه القطعة الحديدية الصغيرة كلفته عداً ونقداً ألفا وأكثر.. وهي لا تساوي قرشين لكن المهم ما في الخزانة.. فليسرع.. يبادر قبل أن ينتشر الخبر فيتزاحم البيت..

تسلل إلى البيت، فقد كان الأقارب مشغولين بالــذهاب إلـــى المستشفى للتأكد من خروج روحه..

فتح الخزانة، من الغريب أنه بسمل، كأنما هو متدين فعلا..

وجدها فارغة.. نظيفة.. تلمع أرضيتها الزنكية كأنها غسلت غسلا..

وطوح بالمفتاح بعيدا في الطريق المترب ولم يذهب للصلاة عليه.

□ □ □

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

ثور وثيران

...

• كانوا ثلة من أهل التحشش والتكيّف، غطاهم الدخان الأزرق ودوخت أدمغتهم أنواع " التكروري والشيرة، يتعاطون في شكل أدهان ما يبعث على التخيل والتوهم، ويدرون في متاهة التصورات الهلوسية زاعمين أنهم يجدون في هذا راحة واسترواحاً ونشوة - وإن كانت على حساب الصحة والمال والوقت، أوهام تدفع إلى أوهام، والعمر المبدّد.. تتماوج لديهم الأخيلّة، وتتداخل التصورات، يحلقون.. يغوصون.. يسبحون.. يرحلون. يشرّقون ويغرّبون إلى ابعد المشارق، ابعد المغارب يجوبون الآفاق على أجنحة التخيّل والتوهم، وهم في مكانهم يخترقون الآماد والآفاق يزاطون.. يقرقرون.. يضحكون.. يصفقون.. يحجلون.. وفي صخب يتجادلون ويغرقون في الهلوسة، تطّوح بهم أراجيح لا تهدأ.. وتواتيهم لحظات صمت عميق كئيب، يحلقون في الفضاء.. ويخرقون الصمت بالصراخ والخوف من طوفان يعم البشرية.. ويتصورون زلزالاً.. أو عاصفة قاصفة تهدّد أركان المعمورة، شعروا به، أو أحسوا بقرب وقوعه.. تُرى كيف ينقذون الحياة.

كان "صفوت" قد زلقت رجلاه إلى محششة منزوية.. دلّه عليها صعلوك من أبناء الحرام من تعساء القوم، تلك المحششة هلك على بابها شاعر.. ومات عند درجاتها موسيقي وقتلت مبدعاً معطاءً.. في وهج عطائه ومطلع تطلعات شبابه.. وأدت

عبقرية في مدارجها الأولى ووقع فيها مؤرخ فيلسوف، وضاع في دخان متاهتها مناضل خسرته بلاده.

وكان "صفوت" أوقعه سوء حظه في هذه البؤرة.. أوقعه بدءاً حب الاستطلاع.. ثم دفعته رفقة السوء إلى التعاطي والإدمان.

وكان "صفوت" قد خطب ابنة الدكتور الطبيب البيطري.. العالم المشهور "برهان مرغم".. وإن كان في بادئ الأمر قد احتج وتردد.. لكن ابنته الوحيدة الجميلة المدلّلة أصرت.. وحضرة الخطيب ألح ولم يكن أمره استفحل عند دائرة الهباب الأزرق.

وذات مساء من غوابر الأيام وهوالك السهرات كانت الشلّة المحششة يتكيفون تحت سحابة الدخان الأزرق.. يثرثرون يرسمون للعالم مستقبله يغوصون في أغوار سحيقة.. ويتهربون من حاضر يحبط بهم.. يتفجرون.. أو يتفرقعون ضحكاً.. حتى من حركات وكلمات لا تستدعى ضحكاً.. أو حتى بسمة أو تحريك طُرمة.

وقرأ بعضهم خبراً في الجريدة أثارهم.. أزعجهم هزهم.. حركهم.. أطار بقية صوابهم.

هل لديهم صواب؟!

هناك داء من نوع خطير من أنواع الوباء.. فتّاك.. هلاّك أصاب أنواع البقر والثيران يفتك بها فتكاً ذريعاً.. وطلبت جهات

الاختصاص مصلاً من أوربا لدرء الداء ومحاصـــرة الوبـــاء، وإنقاذ الثروة الحيوانية وخاصة البقر والثيران وقـــرأوا الخبـــر المثير مراراً.. وتكراراً وهم يحرقون وينفثون الدخان والشـــيرة وهذه الحلقات الدخانية دوخت دماغهم أثقلت لســـانهم، أذبلـــت عيونهم، واخذوا في أصوات جماعية في حلقتهم المنزوية عنـــد الدهليز المعتم يضجون في هلع ويولولون.

كيف ينقذون البشرية؟!.. والمصل قليـــل.. ووقـــف الشـــاب "صفوت" وقرر أمراً لإنقاذهم من كارثة بشرية وفناء العـــالم.. وطربقة الدنيا وضياع الكون..

وهنا قهقه احد من الشلة متسائلاً.. وكانت به بقية من انتباه.. ومحاولة التركيز في تعتعة.. ودعدعة.. قال وهو يســـتند إلـــى حائط بيد.. والى كتف احد زملائه باليد الأخرى:

- ما العلاقة يا دكتور "صفوت" بين ضـــياع العـــالم وزوال الحياة وفقدان المصل لعلاج البقر والثيران؟!..

وصاح " صفوت " مبرّراً معلّلاً سارداً الحيثيات والدوافع:

- يا جهلة.. ألا تعلمون أين تقف الكرة الأرضية؟

وأجاب -مبادراً- أحد المتعتعين، وهو يلوح بيده:

- على قرن ثور..

وأجاب "صفوت":

- إذاً هنا مكمن الخطر المحدّق.. المرض الفتّاك والداء الساري.. الوباء المجتاح للقارة يضر فصائل البقر والثيران.. الطاعون البقري اجتاح المنطقة.

- صح.. صح..

- والعلاج عند صهري- أي والد خطيبتي-.

- كيف تزعم هذا؟.. هل هو ثور؟!

- يعني يكون بديلاً للثور إن أصابه المرض الساري الوافد من بعيد!

- حسن ألفاظك.. هل تشتم صهري والد خطيبتي اكبر طبيب بيطري عرفته كل اصطبلات المنطقة ويترجاه أصحاب الأحصنة وقد تحتاج إلى العلاج عنده.

- قل لي إذاً.. كيف أقحمته هنا.. في هذه المعضلة؟

- سأذهب إليه عنده العلاج الواقي.

- صباحًا.. الصباح رباح.. فلنكمل جلستنا ولا تقطع نشوتنا.. ونستمتع بلحظتنا مازال هناك ما يُحرق ويستهلك..

- لا.. بل خير البر عاجله.. وضياع الفرصة غصة، لا تؤخر عمل يومك إلى غد.. خاصة في الصحة وإنقاذ الكرة الأرضية.. هذا عمل إنساني.. الآن سريعاً قبل أن يفتك الداء والوباء بالثور الذي يحمل الكرة الأرضية.

قال احدهم:

- كيف؟!.. أرجو أن تشرح لنا.. شرح الله صدرك للخير.

- اذهب إليه، وأنا خاطب ابنته، وهو الطبيب الذي عنده المصل الواقي.. لن يكون عرساً، بل إذا وصل الداء والوباء إلى الثور الفريد ولو أصيب لتفركشت الأرض وضعنا وضاع الناس -لا قدر الله-.. ضعنا جميعاً.

- وبكوا.. وشهقوا.. وبعضهم انساب وبال على نفسه من الرعب، ودارت رؤوسهم وأرجلهم، وارتعبت قلوبهم، وزاغت الإبصار وصفقوا للفكرة.. يذهب لإنقاذ الثور المهدد بالخطر.. المصل عند والد خطيبته وقالوا "أن المصل الموجود غير كافي للبقر والثيران".. فليسرع قبل أن تكمل الكمية المحددة.

سؤال علمي معقول؟!!..

سؤال أو استشارة طبية.. على خفيف معقول لا في منتصف الليل.. إزعاج يجعلك تتهرب وتتوارى وتعتذر بشتى المعاذير وقد تكذب أو تتحايل بشكل ما..

ذات مرة سحبوا له طفلة فعلا هي جديرة بالرحمة والإشفاق، ولكن ليس هذا من اختصاصه..

وقالوا: "عجب أحمق لا يعالج ولم يفهموا الفرق بين البيطري والبيزرى!!".

واتوا له ذات مرة بطائر جريح.. واعتذر بأنه ليس من اختصاصه الطيور والجوارح بل الحمير والأحصنة وضحكوا

على طبيب مختص بالحمير والأحصنة ولا يعرف يعالج ديكاً أو فروجاً..

وضحك مع نفسه أو على نفسه عندما جاءه صاحب ديك ساكت عن الآذان وقال:

- لعل هذا الديك الساكت عن الآذان أصيب بلوثة الحادية أو هو متلحد، لعل مشتريه ملحد آهي ظواهر وفقاقيع حتى عند الحيوانات..

لم نسمع في حياتنا بمرض جنون البقر إلا في عصر التقنيات والتقدم الحضاري وغزو الفضاء، وهناك أبقار أولى من أبقار.. وثيران أولى من ثيران، وعبدة الأبقار لو علموا بالحكاية لاشتروا كل الأمصال.

وعندما سمع الدكتور الدق على الباب لم يبادر بفتح الباب مخافة أن يكون من مزعجات الليال.. من طوارئ الحدثان أو من طرائف المعالجين لحيواناتهم أو السائلين عن بريء ساعة أي العلاج السريع..

طرائف وملابسات.. وصور من الخلفيات.. إلى درجة انه فكر أن يكتب ذكريات أو مذكرات طبيب بيطري أو مع الحيوانات وأصحابها.

لم يبادر بفتح الباب أو التجاوب مع الداق في منتصف الليل.. يظهر أن الذوق تبخر في هذه البلاد.. أو في هذه المنطقة من

البلاد.. انه غدا مثل مفتي الشارع، أي مفتي في الطريق والميدان والزقاق.. أو هو مدرس مجاني..

- إيه يا حسرة على أيام التطوع والمبادرات الخيرية والعلمية، والتبرع..

وذات مرة أتوا له بديك لا يكف عن الآذان.. بلا مبرر والأولاد عندهم مذاكرة وامتحان أزعجهم صراخ أو آذان الديك.. وضحك وقال: "أتوا له بما يشغله عن الآذان خارج الأوقات".. وتخلص منهم، ومن الطرائف أن استدعاه احد المترفين المسرفين بقطوس أصيب باكتئاب.

وقال احدهم من أشباه المثقفين اللكعين من أدعياء الثقافة:

- لعله أصيب باشمئناط!!..

وسمع الكلمة في إحدى المحاضرات من احدْ الأساتذة الزائرين.. فانبهر بالكلمة "الشمئناط". ولصقت في لسانه مثل علكة يلوكها..

وسكت الطبيب إزاء هذا الدعي -المُشمأنط- وكم في جعبته من وقائع المترددين عليه صاحب عنزة تصرخ من شبق.. من جوع الطعام أو من جوع آخر، وببغاء تبكش وانطمر ما عاد يقبل الملاغاة، وعصفور ما عاد يزقزق ولا يفطفط، ويحمد الطبيب الله على أن هاتفه عاطل وعطّل جرس الباب، لكنهم عادوا للدق باليد على الباب ويصرخون بحناجرهم ينادونه

خاصة في مواسم الكباش والضحايا عندما تفشى مرض اكتئاب الخرفان، وفكر في إيجاد مشروع عيادة بيطرية لكن هذا لن يدر عليه ربحا ودخلاً.. وهو يفكر في عرس ابنته وتحسين دخلـــه، وقد تعرض لخطورة من صكة حصان، وعفسة أتـــان، ونقـــرة ديك، وهبشة طاووس.

طلب منه احد أصحاب الكراريس الكشـــف علـــى حصـــانه ومورد رزقه.. وكان الحصان شرساً فصكه وأرداه ارضاً حتى كاد يخرج بقية روحه.. ولم يعتذر أو يتأسف صاحب الحصــــان بل قال.. وهو يقرقر:

- إيه.. طبيب وخايف من حصان أو بغلة.. ما تقدرش على حصان.. وين تعلمت؟!..

واصل "صفوت" دق الباب في منتصف الليل، واطلّ الدكتور برأسه.. أو بنصف رأسه من النافذة متوجساً.. مستطلعاً:

- من الطارق؟!

وإذا به "صفوت" خطيب ابنته..

وصاح ناسياً حتى المقدمات أو الاعتذار أو إلقـــاء التحيـــة.. ودخل على الموضوع مباشرة:

- يا دكتور.. نريد مصلاً عاجلاً ننقذ به الثور.

- هل عندك ثور؟!

هل تملك عجولاً وابقاراً؟!.. هل عندك مزرعة؟

- لا.. لا.. اللّهم الستر.. إنما هو عمل إنساني.. إنقاذ للبشرية من كارثة أكثر من الطوفان.. ما أصاب قوم عاد أو القنبلة الذرية.. أو سادوم.. أو ريح صرصر عاتية.. قالوا عليك أنت طبيب فنطاس.

يقصد نطاسي..

- هل أصبحت العوالم ثيرانا؟!

- لا.. بل ثور ارضي!

قال الطبيب وهو يحاول أن يسد النافذة:

- اذهب إليه صباحًا.. أو هات الثور عند عيادة الثيران.

وأجاب "صبفوت":

- لا أستطيع أن اجر الثور وإلا وقعت الواقعة وضاعت الكرة الأرضية.

وسكت الدكتور، وهو يراه يتململ ويتداخل في كلامه ثم قال:

- باختصار.. ما هو موضوع الثور الذي شغلك وتريد له مصلاً واقياً.. وحقنة؟

- يا دكتور هذا الثور ليس ملكي أنا ولا هو ملك مزارع من أصحابي، بل هو ملك البشرية.. على حياته تتوقف حياتك وحياتي وحياة الناس جميعاً.

- ماذا تقول؟! ما هو طلبك؟!!

- نريد إنقاذ الثور الذي يحمل الكرة الأرضية على قرنه!..

وهنا في سرعة أغلق الدكتور النافذة وبادر بتسكير الباب وتربسة النافذة واغمض عينيه وقرر في حزم فسخ الخطبة لئلا يطالب بالمصل الواقي.

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

علي مصطفى المصراتي
بشير السعداوي
مجاهداً وزعيماً

علي مصطفى المصراتي
حكايا

علي مصطفى المصباتي
عاشور في الطابور
رواية

علي مصطفى المصراتي
رسائل
أحمد زارم
إلى
محمد بن عباس

مؤلفات وتحقيقات
علي مصطفى المصراتي

1 ـ أعلام من طرابلس ـ مطبعة ماجي ـ طرابلس 1955 م.

2 ـ لمحات أدبية عن ليبيا ـ المطبعة الحكومية ـ طرابلس 1956م.

3 ـ إبراهيم الأسطى عمر ـ شاعر من ليبيا ـ دار الكشاف ـ بيروت 1957 م .

4 ـ جحا في ليبيا ـ مطبعة ماجي ـ 1958 م .

5 ـ صحافة ليبيا في نصف قرن ـ دار الكشاف ـ بيروت 1960م.

6 ـ غومة فارس الصحراء ـ مطبعة الغندور ـ بيروت 1960 م .

7 ـ أبو قشة وجريدته في طرابلس ـ مطبعة الغندور ـ بيروت 1961م .

8 ـ المجتمع الليبي من خلال أمثاله الشعبية ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1962 م .

9 ـ مرسال مجموعة قصص ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1963 م .

10 ـ أحمد الشارف ـ ديوان ودراسة ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1963 م .

11 ـ ابن حمديس الصقلي ـ اقرأ ـ دار المعارف ـ القاهرة 1963 م .

12 ـ نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الأعيان لأحمد النائب ـ تحقيق ودراسة ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1963 م .

13 ـ الشراع الممزق ـ قصص ـ دار الكتاب العربي ـ القـاهرة 1963 م .
14 ـ حفنة من رماد ـ مجموعة قـصص ـ مطبـعة الغندور ـ بيروت 1964 م .
15 ـ أسد بن الفرات ـ فاتح صقلية .
16 ـ سعدون ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1964 م .
17 ـ رحلة الحشائشي إلى ليبيا ـ تحقيق ودراسـة ـ دار لبـنان 1965م.
18 ـ ديوان مصطفى بن زكرى ـ تحقيق ودراسـة ـ دار لبـنان 1966 م
19 ـ مجمع الجهلة ـ بيروت ـ 1972 م .
20 ـ فنون الأدب الشعبي في ليبيا ـ المطبعة الحكومية طرابـلس ـ 1966م .
21 ـ ابن غلبون ـ المطبعة الحكومية طرابلس ـ 1968م .
22 ـ ديون أحمد البهلول ـ تحقيق ودراسة ـ دار لبنان 1967م .
23 ـ الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية والاجتماعية ـ المطبعة الحكوية طرابلس ـ 1966م .
24 ـ مؤرخون من ليبيا ـ المطبعة السـريعة ـ الشـركة العامة للنشر والتوزيع 1977م .
25 ـ رسائل القليبي بين تونس وطرابلس ـ الدار العربية للكتاب 1976م .

26 ـ جمال الدين الميلادي ـ مطابع الثورة العربية ـ طرابلس .
27 ـ الشمس والغربال ـ مجموعة قصص ـ مطابـع الدجوي ـ القاهرة 1977م .

28 ـ نماذج في الظل السفر الأول ـ مطابع الثورة ـ طرابلس 1978م
29 ـ التعابير الشعبية الليبية ـ دلالات اجتماعية ونفسية السفر الأول ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع ـ طرابلس 1982م .
30 ـ خمسون قصة ـ 1983م .
31 ـ الجنرال في محطة فكتوريا ـ الدار العربية ـ 1991م .
32 ـ صائدة الفراشات ـ 1992م .
33 ـ القرد في الطار ـ 1992م .
34 ـ عبدالكريم تحت الجسر ـ 1992م .
35 ـ قطرات من يراع ـ 1992م .
36 ـ التعابير الشعبية ـ السفر الثاني .
37 ـ نماذج في الظل ـ السفر الثاني .
38 ـ وخمسون قصة أخرى .
39 ـ ومضات قصصية ـ الطائر الجريح .
40 ـ رفاف سعدون .
41 ـ صندوق التفاح .
42 ـ الوفد .
43 ـ رسائل أحمد زارم إلى محمد بن عباس .

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

فــى هــذه المجموعـــة القصصية يقــدم لنا الأســتاذ الكاتب الأديب : على مصطفى المصراتى . لوناً من عطــاءه الأدبي وإبداعه الفني بإسلوبه المتميز وإحساسه المرهف مع الصــدق الفنــي ، والصــدق الموضوعي ، والأستاذ الكاتب غني عن الإشادة به هنا – فقد عرّف به عطاؤه وإسهاماته فى الدراسات والبحوث والنقــد – وأيضاً نضاله فى الحـــركة الوطنية والسياسية .

ترجمت قصــــص الأستاذ على مصطفى المصراتي إلى عديد من اللغات الأجنبية :

الإنجليزية – الفرنسية – الألمانية – الروسية – التشــيكية – الصينية – الفارسية .... إلخ .

وكتب عن المصراتي وإبداعه دارسون من الشرق والغرب .

قــدمت عن أدب المصراتى وقــصصه عديد من الأطروحــات الجامعية والرسائل العلمية فى جامعات أوروبا زادت عن العشر دراسات وأطروحات ولازال عطاؤه متواصل .

وهذه مجمــوعة جديــدة يضيفها إلى رصيــــده الأدبي ((صنـــــدوق التفــاح12 قصة)) لها نكهتها وطابعها الفني جديرة بالقراءة والتأمل.

الناشر

الشـــركة العامة
للورق والطبـاعة